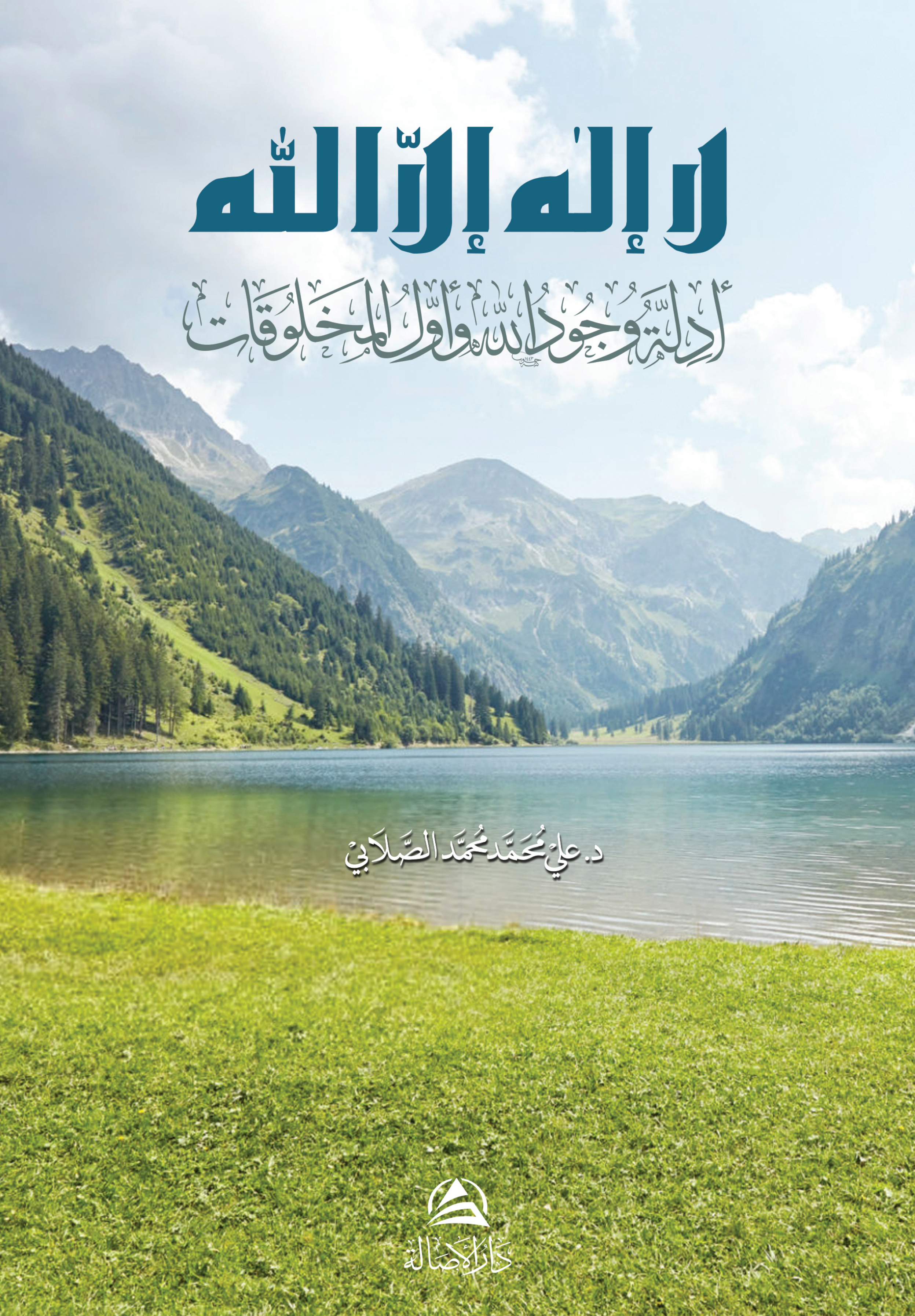

لا إله إلا الله
أدلة وجود الله ﷻ وأول المخلوقات
د. علي محمد محمد الصلابي
دار الأصالة

بسم الله الرحمن الرحيم

دار الأصالة

رقم الإصدار	142
الترقيم الدولي	978-625-8336-01-6
اسم الكتاب	**أدلة وجود الله**
اسم المؤلف	**د.علي محمد الصلابي**
رئيس التحرير	**رجب صونگول**
الاخراج الفني	Artsan Ajans info@artsanajans.com
الطبعة	**الأولى**
دار النشر	**Asalet Eğitim Danışmanlık** Yayın Hizmetleri İç ve Dış Ticaret Sertifika No: 40687 Balabanağa Mh. Büyük Reşit Paşa Cd. Yümni İş Merkezi, No: 16B/16 Vezneciler Fatih, İSTANBUL-TÜRKİYE Tel: +90 212 511 85 47 www.asaletyayinlari.com.tr asalet@asaletyayinlari.com.tr
المطبعة	**Step Ajans Matbaa Ltd. Şti.** Sertifika No: 45522 Göztepe Mh. Bosna Cd. No: 11 Bağcılar/İSTANBUL

تصميم الغلاف والإخراج الفني



لا إله إلا الله

أدلة وجود الله وأول المخلوقات

د. علي محمد محمد الصلابي



مقدمة

إنَّ الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

اللَّهم لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيت، ولك الحمد بعد الرضا، وأما بعد:

أحمد الله عَزَّوَجَلَّ أن هداني للاهتمام بهذا الميدان المعرفي الغزير في رحاب سور وآيات القرآن الكريم، وأمدني بالهمة والعزيمة والصبر، والمتابعة في البحث، والوصول إلى حقائق، ما كنت لأعلمها لولا فضل الله وتوفيقه.

وكنت كل يوم أكتشف جهلي وقصور علمي، وكذلك حسرتي على السنوات التي ضاعت في غير محلها من العلوم النافعة، وتبين لي أن خير الأوقات التي تمضي في تعلم العلم والمعارف الهادفة والتي تستمد معينها من القرآن، واستقصاء قصة نشأة الخلق وسير الأنبياء والمرسلين قادة الحضارة الإنسانية (عَلَيْهِمُ السَّلَامُ).



هذا الكتاب من الناحية المعرفية هو محاولة جادة لجمع وتفسير ما يقدمه القرآن الكريم بشأن بدء الخلق، وخلق آدم عليه السلام من خلال مطالعة ما ورد في كتاب الله العزيز، وكتابات العلماء، والمفكرين، وأهل التخصص.

تناول هذا الكتاب في الفصل الأول الحديث عن معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفضلها، وشروطها، وأدلة إثبات وجود الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

أما الفصل الثاني، تناول قصة بدء الخلق وقدرة الخالق على خلق المخلوقات، حيث بينتُ فيه أن بداية الخلق لم تكن غامضة، وأن الله هو الأول والآخر والظاهر والباطن، وهو رب العالمين، وأنَّه سبحانه تحدى الملحدين.

ووضحت كيفية القضاء على وسوسة الشيطان في مسألة الخلق كما بين رسول الله (صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ).

وقد فصلت في إثبات صفات الكمال لله عَزَّوَجَلَّ، وكيف عَرَّف الله نفسه لخلقه في كتابه، وتحدثت عن آية الكرسي كأعظم آيات القرآن الكريم.

ومن ثم تناولت ثنائية الخلق دليلاً على وحدانية الخالق، وأشرت إلى مظاهر الحكمة في الخلق، وأجبت في المبحث الثاني من هذا الفصل على سؤال مركزي وهو: أيُّ المخلوقات خُلِقَت أولاً!؟

وتحدثت عن خلق الله عَزَّوَجَلَّ للعرش، وأنه أكبر المخلوقات وعن خلق الله للماء، وخلقه اللوح المحفوظ، وخلق الزمان، وخلق الأرض، وخلق الجبال، وأنها خُلقت بعد الأرض وعن عبوديتها لله عَزَّوَجَلَّ، وسجودها، وتسبيحها، وخشيتها، وفوائدها، وزوالها، وفنائها.

وتحدثت عن خلق السماوات وأن السماء والأرض كانتا ملتصقتين، وأن السماء سقف الأرض، وعن رفعِها بغير عمد، وعن امتناع سقوط السماء على

الأرض، وعن خلق الشمس والقمر، وأنهما تابعان للسماء والأرض، وعن ضياء الشمس ونور القمر، وتسخير الشمس والقمر، وأنهما آيتان لحساب الأيام، والشهور، والأعوام، وعن خلق الليل والنهار، والنجوم وماهيتها، وعن المجرات، وأسباب قسم الله عَزَّوَجَلَّ بمواقع النجوم، وخلق الرياح وأنواعها وفوائدها، وعن السحب البسيطة والركامية، وعن الرعد والبرق والصواعق، وعن الشجر والنبات ومنافعها وأنواعها وثمارها وألوانها، وعن خلق الظلال.

هذا الكتاب هو جزء من كتاب موسوعي، تناول قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، والذي انتهيت من كتابته في مدينة إستانبول يوم الخميس بتاريخ ١٩ شوال ١٤٤١هـ/ ١١ يونيو ٢٠٢٠م. والجدير بالذكر، ومن باب الأمانة العلمية والمقاربة الموضوعية التي نحاول انتهاجها في مسيرة البحث والكتابة في التاريخ وتفسير القصص القرآني والفكر الإسلامي، فإن هذا الكتاب استمد مادته العلمية من مناهل مختلفة ومصادر أساسية في هذا السياق، ففي الفصل الأول من الكتاب الذي تحدثت فيه عن "وحدانية الله وأدلة وجوده سبحانه وتعالى"، استفدت من كُتبي السابقة، وتحديداً كتابي "الإيمان بالله" وكتابي "قصة بدء الخلق وخلق آدم عليه السلام". وكتاب "مع الله" لفضيلة الشيخ الدكتور سلمان العودة (حفظه الله)، وكما استفدت في هذا الفصل بشكل أساسي من كتاب الدكتور محمد سعيد القحطاني وعنوانه "الولاء والبراء في الإسلام"، والذي نُشر عن دار طيبة السعودية عام ١٩٩٢م.

أما في الفصل الثاني من هذا الكتاب "قصة بدء الخلق"، فكان كتابي "المعجزة الخالدة... الإعجاز العلمي في القرآن الكريم؛ براهين ساطعة وأدلة قاطعة" مرجعًا تأسيسيًا، وكذلك كتاب "مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم" للدكتور زغلول محمد النجار. ولكن المصدر الأساس الذي استفدت منه استفادة كبيرة في هذا الكتاب هو كتاب "قصة الخلق" للمفكر والأكاديمي

السعودي محمد عبد الله الخرعان، وهو صادر عن دار كنوز إشبيليا بالسعودية عام ٢٠٠٨م، وقد نهلت من معين كتابه، واطلعت على جميع محاوره، ولخصت من أفكاره، واستفدت من مصادره التي رجعت إلى معظمها. ولعل هذا التذكير هو أقل الواجب، في سبيل إرجاع الفضل لأهله، والفضل لله من قبل ومن بعد، وجزى الله خيراً كل من ساهم خدمة العلم، وتنوير الفكر وتوضيح المقاصد الإيمانية، والدعوة إلى الحق والهداية بين أبناء الإنسانية في كل زمان ومكان.

اللهم اجعل هذا العمل لوجهك الكريم خالصاً ولعبادك نافعاً، واطرح فيه البركة والقَبول والنفع العظيم.

رب اغفر لي ولوالدي ولجميع المؤمنين.

نرجو من كل من يطلع على هذا الكتاب ألا ينسى العبد الفقير إلى عفو ربه ومغفرته من دعائه، قال تعالى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ [النمل:١٩].

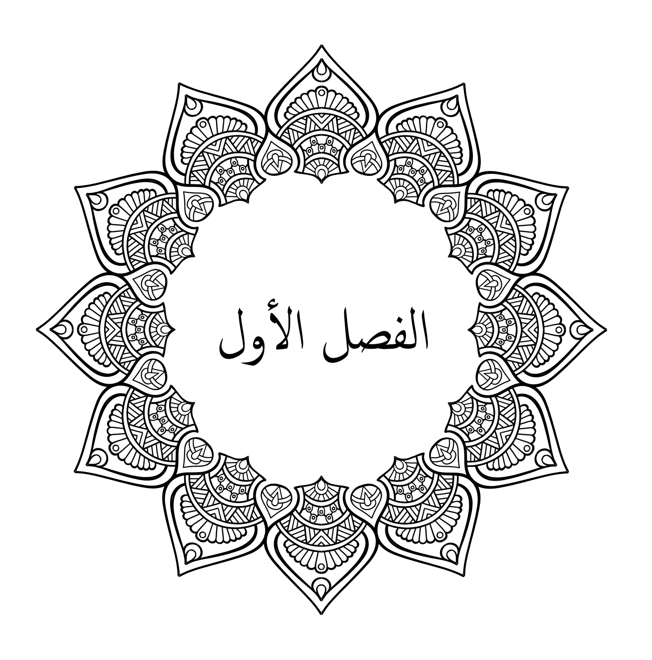
والحمد لله رب العالمين

الفقير إلى عفو ربه ومغفرته ورحمته ورضوانه

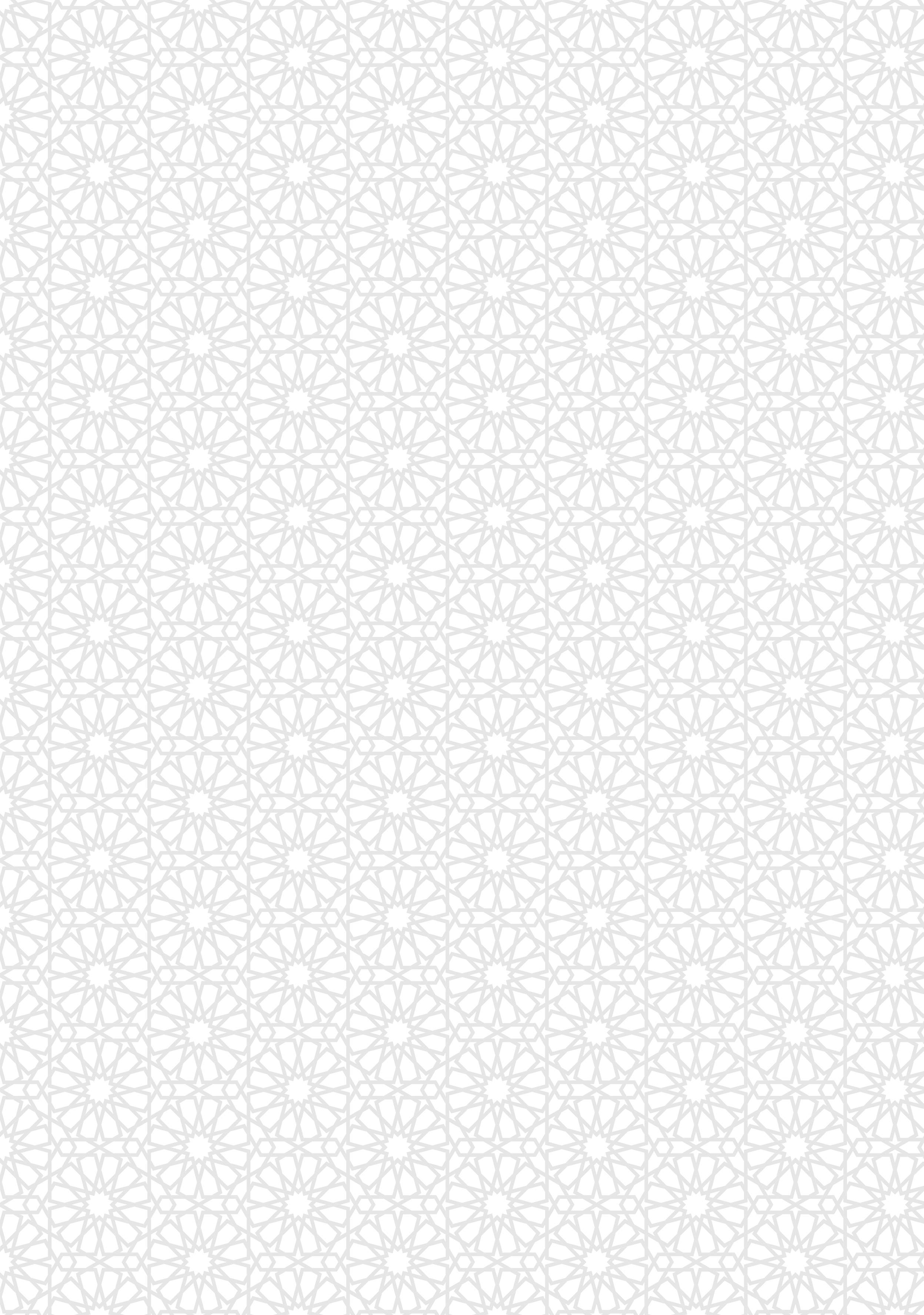
د. علي محمّد محمّد الصّلّابي

إستانبول/ ١٦ ربيع الأول ١٤٤٣هـ

/ ٢٢ أكتوبر ٢٠٢١م



وحدانية الله تعالى وأدلة وجوده جل جلاله



المبحث الأول: معنى لا إله إلا الله محمد رسول الله؛ فضلُها وشروطُها[١]

أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسان بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ (لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله)، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالرسالةِ.

أنْ يشهدَ العبدُ أنَّ الله هوَ المستحقُّ للعبادةِ، وأنْ تنصَرفَ قواه -قوى عقلِهِ وقلبِهِ وبدنهِ وجوارحِه- في التسبيح، والتهليلِ، والتمجيد، والعبودية لهذا الإله العظيم، -الذي أنتَ أيُّها الإنسان من بعضِ فضلِه، ومن بعضِ خلقِه- فكلُّ ذرَّاتِ كيانك الداخلية تعترفُ به، وتمجِّده، وتسبِّحه، شئتَ أم أبيتَ، غفلتَ أم انتبهت، حَيِيْتَ أم مِتَّ، آمنتَ أم كفرتَ، فيبقى اختيارُ الإنسان أن يعبدَ ربَّه سبحانه وتعالى طَوْعًا بما أمره الله تعالى، وبما جاء على ألسنةِ رسلِهِ المكرّمين عليهم الصلاة والسلام[٢]، وأن يشهدَ أنَّ محمَّداً صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ الخاتمَ للرسل هو عبدُ اللهِ ورسولُه، أرسلَه ربُّنا إلى الخَلْقِ أجمعين، من الإنس والجن، وذلك إقرارًا باللسانِ، وإيمانًا بالقلب، بأنَّه رحمةٌ مهداةٌ للعالمين.

أولاً: معنى: لا إله إلا الله محمد رسول الله:

إن معنى كلمة لا إله إلا الله أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سبحانه المستحقُّ بأنْ تصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة: ١٦٣].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا

---

(١) إن هذا الفصل اعتمد في جزء من مادته المرجعية على كتاب الدكتور محمد سعيد القحطاني وعنوانه "الولاء والبراء في الإسلام"، والذي نُشر عن دار طيبة السعودية عام ١٩٩٢م.

(٢) مع الله، سلمان بن فهد العودة، دار الإسلام اليوم، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م، ص ٣٩.

﴿الَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۞ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٨]. وقال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَىُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة آل عمران: ٢].

ومعنى شهادةِ (أنَّ محمداً رسول الله): الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّد بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ إلى جميعِ الخلقِ من الجنِّ والإنسِ، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِى يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٥٨].

وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ١].

فكلمة لا إله إلا الله تشمل جزأين؛ النفي والإثبات:

- أما «لا إله»: فنافيةٌ لجميعِ ما يُعْبَدُ منْ دونِ الله تعالى، فلا يستحقُّ أنْ يُعْبَدَ أحدٌ سواه، و«النكرةُ في سياق النفي تفيدُ العمومَ»؛ فهي تشملُ كلَّ ما يمكِنُ أنْ يُتوجَّه إليه بالعبادةِ، وكلَّ مَنْ تُصْرَفُ إليه غير الله تعالى[1].

- أما «إلا الله»: فَمُثْبِتَةٌ العبادةَ للهِ تعالى، فهو الإله الحقُّ، المستحقُّ للعبادة، فإنَّ خبر «لا» المحذوفَ «بحق» هو الذي جاءت به نصوصُ الكتاب المبين، فمعنى «لا إله بحق إلا الله»: أي لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فكما تفرَّد سبحانه وتعالى بالخَلْقِ، والرزق، والإحياءِ، والإماتةِ، والإيجاد والإعدامِ، والنفعِ، والضّرِ، وغير ذلك من معاني ربوبيته، ولم يشارِكْه أحدٌ في خلقِ المخلوقات، ولا في التصرّفِ في شيءٍ منها، فكذلك تفرُّدُه سبحانه بالألوهيةِ حقٌّ لا شريكَ له، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سورة لقمان: ٣٠].

(١) العقيدة الصافية، سيد سعيد عبد الغني، دار طيبة الخضراء، ١٤٣٤ هـ، ص ٢٦٠.

-أما لفظ الجلالة في كلمة الشهادة «الله» عَزَّوَجَلَّ:

- فهو اسمٌ من أسمائه جلَّ وعلا، وهو اسمه الأعظم عندَ قومٍ.

- وهو أكثرُ الأسماءِ تردُّداً في القرآن والسنة.

- و«الله» هو أكثرُ الأسماءِ اشتهاراً وترديداً على ألسنةِ المخلوقين كلّهم بمختلف ألسنتهم.

- و«الله» هو الاسم الدالُّ على الذاتِ العظيمةِ الجامعةِ لصفاتِ الألوهية والربوبية.

- وهو اسمٌ له وحدَه، لا يتعلّق به أحدٌ سواه، ولا يُطْلَقُ على غيره، ولا يدّعيه أحدٌ مِنْ خلقه.

- و«الله» هو الربُّ الذي تألَهُهُ القلوبُ، وتحنُّ إليه النفوسُ، وتتطلَّعُ إليه الأشواقُ، وتحِبُّ وتأنَسُ بذكره وقربِهِ، وتشتاقُ إليه، وتفتقر إليه المخلوقاتُ كلُّها في كلِّ لحظةٍ وومضةٍ، وخطرةٍ وفكرةٍ، في أمورِها الخاصّةِ والعامّةِ، والكبيرةِ والصغيرةِ، والحاضرةِ والمستقبليةِ، فهو مبديها ومعيدُها، ومُنْشئُها وباريها، وهي تدينُ له سبحانه وتُقِرُّ، وتفتقِرُ إليه في كلِّ شؤونها وأمورِها، فما مِنْ مخلوق إلا ويشعرُ بأنَّ الله تعالى طوّقه مِنَنًا ونعمـًا، وأفاضَ عليه من آلائه وكرمه وإفضاله وإنعامه الشيء الكثير، فجديرٌ إذاً أنْ يتوجَّه قلبُ الإنسان إلى الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى بالحبِّ والتعظيم والحنين.

- «الله» عظيمٌ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، وجلاله، ومجده، لا تحيطُ به العقولُ، ولا تدرِكُه الأفهام، ولا تَصِلُ إلى عظمته الظُّنون، فالعقولُ تحارُ في عظمته، وإن كانت تستطيع بما مُنِحَتْ من الطّوْقِ والقدرةِ أن تدرِكَ جانبـًا من هذه العظمةِ يمنحُها محبةَ اللهِ، والخوفَ منه، والرجاءَ فيه، والتعبُّدَ له بكلِّ ما تستطيع.

لقد عُرِفَتْ لا إله إلا الله لدى المسلمين «بكلمة التوحيد»، و«كلمة الإخلاص»، و«كلمة التقوى»، وكانت لا إله إلا الله إعلانَ ثورةٍ على جبابرةِ الأرض وطواغيتِ الجاهلية، ثورة على كل الأصنام والآلهة المزعومة من دون الله، سواء كانت شجراً أم حجراً أم بشراً.

وكانت لا إله إلا الله نداءً عالمياً لتحريرِ الإنسان من عبوديةِ الإنسان والطبيعة وكلّ مَنْ خُلِق، وكانت لا إله إلا الله عنوانَ منهجِ اللهِ الذي لا تعنو الوجوهُ إلا له، ولا تنقادُ القلوبُ إلَّا لحكمه، ولا تخضعُ إلَّا لسلطانه[١].

ثانيـًا: فضل كلمة «لا إله إلا الله»:

لقد ورد في كتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ من الفضائل الجمّة لهذه الكلمة، والخصالِ العديدة، والأوصافِ الحميدةِ، ما يَصْعبُ استقصاؤه في هذا الموضع، فهي كلمةٌ قامت بها الأرضُ والسماوات، وخُلِقَتْ لأجلها جميعُ المخلوقاتِ، وبها أَرسلَ الله تعالى رسلَه، وأنزلَ كتبَه، وشرعَ شرائعَه، ولأجلِها نُصِبَتِ الموازينُ، ووضعت الدواوينُ، وقام سوقُ الجنّة والنار، وبها انقسمتِ الخليقةُ إلى المؤمنين والكفار، والأبرار والفجّار، فهي منشأُ الخلقِ والأمر، والثوابِ والعقابِ، وهي الحقُّ الذي خُلِقَتْ له الخليقةُ، وعنها وعن حقوقها السؤالُ والحسابُ، وعليها يقعُ الثوابُ والعقابُ، وعليها نُصِبَتِ القِبلةُ، وعليها أُسِّسَتِ الملّةُ، ولأجلِها جُرِّدتْ سيوفُ الجهادِ، وهي حقُّ اللهِ على جميعِ العبادِ، فهي كلمةُ الإسلام، ومفتاحُ دارِ السلامِ، وعنها يُسْأَلُ الأولون والآخرون، فلا تزولُ قدما العبد بين يدي الله حتى يُسْأَل عن مسألتين: ماذا كنتم تعبدون؟ وماذا أجبتم المرسلين؟ فجوابُ الأولى: بتحقيق لا إله إلا الله معرفةً، وإقراراً، وعملاً.

(١) الإيمان والحياة، يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، ط٤، ١٣٩٩هـ، ص ٣١.

وجواب الثانية: بتحقيق «أن محمداً رسول الله» معرفةً، وإقراراً، وانقياداً وطاعةً[١].

ومما ورد في فضل هذه الكلمة في القرآن الكريم أنّها وُصِفَتْ بالكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ۝٢٤ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥]. وأنها العروة الوثقى، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [سورة البقرة: ٢٥٦]. ومن فضائلها أنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشِّرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٥]. إلى غير ذلك من الفضائل التي ذُكِرتْ في القرآن الكريم.

وأما ما ورد في فضلها في السنة المشرفة فكثيرٌ جدّاً؛ نذكرُ منه بعضها:

فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، فقد ورد عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (الإيمانُ بِضْعٌ وسبعونَ، أو بِضْعٌ وستون شُعْبَةً، أفضلُها: قولُ لا إله إلا الله، وأَدْناها: إمَاطَةُ الأذى عن الطريق)[٢].

ومن فضائلها أن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، كما قال الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أُمِرْتُ أنْ أُقاتِلَ النَّاسَ حتّى يَشْهَدوا أنْ لا إله إلا الله، وأنَّ محمَّداً رسولُ اللهِ،

(١) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط١، ١٩٩٧، ص ١/ ٣٤.

(٢) صحيح مسلم، الإمام مسلم بن الحجاج، كتاب الإيمان، باب: بيان عدد شعب الإيمان، وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم: (٣٥)، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

ويقيموا الصلاةَ، ويؤتوا الزكاةَ، فإذا فعلوا ذلك عَصَمُوا منّي دماءَهم وأموالَهم، إلَّا بحقِّ الإسلامِ، وحسابُهم على اللهِ)[١].

ومن فضائلها أنّها ترجَحُ بصحائفِ الذنوب، كما جاء في حديث البطاقة، فعن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنَّ اللهَ سَيُخَلِّصُ رجلاً مِنْ أُمَّتي على رؤوس الخلائق يومَ القيامةِ، فَيَنْشُرُ عليه تسعةً وتسعينَ سِجِلًّا، كُلُّ سِجِلٍّ مِثْلُ مَدِّ البَصَرِ، ثُمَّ يقولُ: أَتُنْكِرُ مِنْ هذا شيئًا، أظلَمَك كَتَبتي الحافظونَ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ، فيقولُ: أَفَلَكَ عُذْرٌ؟ فيقولُ: لا يا ربِّ. فيقولُ: بلى إنَّ لك عِنْدَنَا حسنةً، فإنه لا ظُلمَ عليكَ اليومَ، فتُخْرَجُ بطاقةٌ فيها: أشهدُ أنْ لا إلهَ إلا الله، وأشهدُ أنَّ محمّداً عبدُه ورسولُه، فيقول: احْضُرْ وزنَكَ. فيقول: يا ربِّ ما هذهِ البطاقةُ مَعَ هذهِ السجّلاتِ؟ فقال: إنّك لا تُظْلَمُ، قال: فتوضع السجّلاتُ في كِفّةٍ، والبطاقةُ في كِفّةٍ، فطاشتِ السجلّاتُ، وَثَقُلَتِ البطاقةُ، فلا يَثْقُلُ مَعَ اسمِ اللهِ شيءٌ)[٢].

ثالثًا: أفضلُ الذكرِ «لا إله إلا الله»:

إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِه على مَنْ يسرّهُ الله عليه. هذا وإنّ أفضل أنواعِ الذكر بعد القرآن العظيم هو قولُ المرء: لا إله إلا الله، وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: (أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله)[٣].

---

(١) صحيح البخاري، الإمام محمد بن إسماعيل البخاري، كتاب الإيمان، باب: (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم)، رقم: (٢٥)، تحقيق محمد زهير بن ناصر، دار طوق النجاة، ط ١، ١٤٢٢.

(٢) سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، كتاب الإيمان عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ما جاء فيمن يموت وهو يشهد أن لا إله إلا الله، رقم: (٢٦٣٩). وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٦.

(٣) سنن الترمذي، أبو عيسى الترمذي، كتاب دعوات الرسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ما جاء =

وهذه الكلمةُ الجليلةُ واجبٌ على كلِّ مسلم أنْ يتعلَّمَها، ويعلمَ مضمونَها ومعناها، وشروطها وأركانها، وكلَّ ما يتعلّق بها؛ لأنّها الكلمةُ التي يصيرُ بها المرءُ مسلمـًا، فهي الفيصلُ بين الكفر والإسلام، ولأنَّ الله جَلَّجَلَالُهُ أمر أفضلَ خلقِهِ وخاتمَ رسلِهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنْ يَعْلمَ كلَّ ما يتعلَّقُ بها ويعتقدَه في قوله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة محمد: ١٩].

وقد ذمّ الله سبحانه من استكبرَ عنها، وأعرضَ عنها، وتركَ العمل بها، في قوله: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ۝٣٥ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [سورة الصافات: ٣٥-٣٦]. ووصف الله سبحانه نفسَه بما تضمنته هذه الكلمةُ في غير موضع من كتابه فقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]. وقال سبحانه: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة غافر: ٦٥]. وحققها إبراهيمُ عَلَيۡهِٱلسَّلَامُ كما حكى الله عنه بقوله: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٨].

رابعـًا: شروط «لا إله إلا الله»:

لما كان معنى لا إله إلا الله هو أنّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، ولما كان كثيرٌ من الناس يدرِكُ معنى لا إله إلا الله وأهميتها، كان لا بدّ لنا أن نتحدّث عن شروطِ هذه الكلمة.

ورحم الله وهب بن منبه حين سُئِلَ: أليستْ لا إله إلا الله مفتاح الجنّة؟

قال: بلى، ولكنْ ليس مفتاحٌ إلا له أسنان فإن جئتَ بمفتاحٍ له أسنانٌ فتَحَ لك، وإلّا لم يفتحْ لكَ[1]، وهذه الأسنانُ هي شروطُ هذه الكلمةِ العظيمة، والتي

= أن دعوة المسلم مستجابة، رقم: (٣٣٨٣)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقـًا، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في الجنائز، ومن كان آخر =

عددُها سبعة عند العلماء، وليس المرادُ مِنْ هذا عدَّ ألفاظِها، وحفظَها، فكم مِنْ عامّيٍّ اجتمعت فيه والتزمَها، ولو قيل له عدِّدها لم يُحْسِنْ ذلك.

وكم حافظٍ لألفاظِها يجري فيها كالسهمِ، وتراهُ يقعُ كثيراً فيما يناقِضُها، والتوفيق بيد الله [(١)].

إليك هذه الشروطَ وأدلّتها من كتاب الله وسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مع الاختصار:

١- العلم بمعناها نفياً وإثباتاً، علماً ينافي الجهل بها:

قال الله تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة محمد: ١٩]، وقال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ١٨]. وفي الصحيح قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَنْ ماتَ وَهُوَ يَعْلَمُ أنّه لا إله إلا الله دَخَل الجنّة) [(٢)].

٢- اليقين المُنافي للشك:

وذلك بأن يكونَ قائِلُها مستيقناً بمدلولِ هذه الكلمة يقيناً جازماً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [سورة الحجرات: ١٥]. وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أشهدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ، وأنِّي رسولُ اللهِ، لا يَلْقَى اللهَ بهما عبدٌ غيرَ شاكٍّ فيهما إلَّا دخلَ الجنَّة) [(٣)]. وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي هريرةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ:

= كلامه لا إله إلا الله، (١/ ٤١٧). مسائل هامة في توحيد العبادة، محمد القحطاني، ص ٢١.

(١) معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط ١، ١٩٩٠، ١/ ٣٧٧.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (٢٦).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة=

(اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هاتَينِ فَمَنْ لقيتَ من وراءِ هذا الحائطِ يَشْهَدُ أَنْ لا إلهَ إلا اللهُ مستيقناً بها قلبُه فبشّره بالجنة) [١].

٣- القبول لما اقتضته هذه الكلمة بالقلب واللسان:

وقد قصّ الله علينا من أنباء ما قد سَبق مِنْ إنجاءِ مَنْ قَبِلَها وانتقامه ممَّن ردّها وأباها، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الروم: ٤٧].

وقال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنْجِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ١٠٣]. وقال تعالى عن الذين كذبوا بهذه الكلمة ورفضوها ولم يقبلوها: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَثَلُ ما بَعَثَنِي اللهُ بهِ مِنَ الهُدى والعِلْمِ كَمَثَلِ الغَيْثِ الكثيرِ أصابَ أرضاً، فكانَ مِنْها نقيَّةٌ قَبِلتِ الماء فَأَنْبَتَتِ الكلأَ والعُشْبَ الكثيرَ، وكانتْ منها أجادِبُ أمسكتِ الماءَ فنفعَ اللهُ بها الناسَ فشربوا وسَقَوا وزَرَعُوْا، وأصابتْ منها طائفةً أُخرى إنَّما هيَ قِيعانٌ لا تمسِكُ ماءً ولا تُنْبتُ كلأً، فذلك مَثَلُ مَنْ فَقِهَ في دينِ اللهِ ونَفَعَهُ ما بعثني اللهُ بهِ فَعَلِمَ وعَلَّم، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بذلكَ رَأْساً ولم يَقْبَلْ هُدْى اللهِ الذي أُرْسِلتُ به) [٢].

= قطعاً، رقم: (٢٧).

(١) صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعاً، رقم: (٣١).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: فضل من عَلِم وعَلَّم، رقم: (٧٩). صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: بيان مثل ما بعث به النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الهدى والعلم، رقم: (٢٢٨٢).



٤- الانقياد لما دلّت عليه، المُنافي لترك ذلك:

قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [سورة الزمر: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ [سورة النساء: ١٢٥].

٥- الصّدق المنافي للكذب:

وذلك بأنْ يقولَها صدقـاً من قلبه، يواطِئُ قلبُه لسانهَ، قال تعالى: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ١-٣]، وقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ما مِنْ أحدٍ يَشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلَّا اللهُ وأنَّ محمَّداً رسول الله صِدْقـاً مِنْ قلبهِ إلَّا حَرّمهُ اللهُ على النَّارِ)(١).

٦-الإخلاص:

وهو تصفيةُ النية في العملِ الصالحِ من جميعِ شوائبِ الشرك، قال تعالى: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر: ٣]، وقال تعالى: ﴿فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة الزمر: ٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة: ٥]، وقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أسْعَدُ النَّاسِ بشفاعتي مَنْ قالَ لا إلهَ إلَّا اللهُ خالِصـاً مِنْ قَلْبِهِ أَوْ نَفْسِه)(٢)، وقال رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إنَّ الله حَرّمَ على النَّارِ مَنْ قالَ: لا إلهَ إلاَّ اللهَ يبتغي بذلكَ وَجْهَ الله)(٣).

---

(١) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: من خص بالعلم قومـاً دون قوم كراهية أن لا يفهموا، رقم: (١٢٨)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة قطعـاً، رقم: (٣٢).

(٢) صحيح البخاري، كتاب العلم، باب: الحرص على الحديث، رقم: (٩٩).

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب: المساجد في البيوت، رقم: (٤١٥). صحيح مسلم، =

٧-المحبةُ:

لهذه الكلمة ولما اقتضته ودلّت عليه، ولأهلها العاملين بها الملتزمين بشروطها، وبُغض ما ناقض ذلك: قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ﴾ [سورة البقرة: ١٦٥].

وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ثلاثٌ مَنْ كُنَّ فيه وَجَدَ بهنَّ حلاوةَ الإيمان: مَنْ كانَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليهِ ممّا سواهما، وأنْ يحبَّ المرءَ لا يحبه إلا للهِ، وأنْ يكرَهَ أنْ يَعُودَ في الكُفْرِ بَعْدَ أنْ أنقذَهُ اللهُ مِنْهُ كما يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ في النَّار)[١]. وقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (لا يؤمنُ أحدُكُم حتّى أكونَ أحبَّ إليهِ مِنْ ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين)[٢].

ومحبةُ اللهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لا تحصُلُ إلا بمحبَّةِ ما يحبُّه، وكره ما يكرهه، وطريقُ معرفةِ ذلك هو اتباعُ الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ومحبتُه، فمحبةُ اللهِ تستلزمُ محبَّة الرسولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واتباعَه وطاعتَه [٣]، فهذه الشروطُ مَنْ حقَّقَها وعملَ بها وابتعدَ عمّا يناقِضُها أوجبَت له مغفرةَ الذنوبِ بإذن الله تعالى[٤].

= كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب: الرخصة في التخلف عن الجماعة بعذر، رقم: (٣٣).

(١) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، رقم: (١٦). صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: بيان خصال من اتصف بهنَّ وجد حلاوة الإيمان، رقم: (٤٣).

(٢) صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب حب الرسول من الإيمان، رقم: (١٥)، صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب: وجوب محبة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، وإطلاق عدم الإيمان على من لم يحبه هذه المحبة، رقم: (٤٤).

(٣) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، علي بن عبد الحفيظ الكيلاني، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١، ١٤٢٨، ٢/ ٦٢٣.

(٤) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، ٢/ ٦٢٣.

سابعـًا: ارتباط (لا إله إلا الله) بالولاء والبراء:

ولما كان أصلُ الموالاة الحبَّ، وأصلُ المعاداةِ البغضَ، وينشأُ عنهما من أعمالِ القلوبِ والجوارحِ ما يدخلُ في حقيقةِ الموالاةِ والمعاداةِ؛ كالنُّصْرَةِ، والأُنْسِ، والمعاونة، وكالجهادِ، والهجرة، ونحو ذلك [١]، فإنَّ الولاءَ والبراءَ مِنْ لوازِمِ لا إله إلا الله، قال الله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [سورة آل عمران: ٢٨]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة المائدة: ٥١].

وقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أوثقُ عُرى الإيمانِ الحبُّ في الله والبغضُ في الله) [٢].

ولقد ضرب نبيُّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ نموذجَ الأسوة الحسنة في ولائه لربِّ العالمين؛ حيثُ كان عَلَيْهِ السَّلَامُ أسوةً حسنةً، وقدوةً طيبةً في ولائه لربه ودينه وعباد الله المؤمنين، وبرائه ومعاداته لأعداء الله، ومنهم أبوه.

وقد كانت سيرةُ نبيِّ الله إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ مع قومه كأيِّ نبيٍّ رسول؛ حيث دعاهم بالتي هي أحسن إلى عبادة الله وتوحيده، وإفرادِه بالعبادة، والكفرِ بكلّ طاغوت يُعْبَدُ من دون الله[٣]، قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ

---

(١) الرسائل المفيدة، عبد اللطيف بن عبد الرحمن، ص ٢٩٦.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه، كتاب الإيمان والرؤيا، رقم: (٣٠٤٤٣)، قال الألباني في تخريج أحاديث كتاب الإيمان لابن تيمية، ص ١١٩، صحيح.

(٣) الولاء والبراء في الإسلام، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط ١، ص ١٤٥.

شَيْئًا ﴿٤٢﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ قَالَ أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴿٤٨﴾ فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤١-٤٩]، وتلك هي نقطةُ البَدْءِ في دعوة خليل الرحمن؛ دعوة بالحسنى، مبتدئـًا بأقرب الناسِ إليه، فإنْ لم يكن هناك تجاوبٌ مع هذه الدعوة فالاعتزالُ لهذا الباطل وأصحابه، لعلّ في ذلك ردعـًا وزجراً وتفكّراً في هذا الأمر الجديد، ونجاة للداعي من مشاركة أهل الباطل في باطلهم، إذا كان لا بدّ له من مخالطتهم ومعاشرتهم، وعدم تمكّنه من الهجرة من أرضهم.

ثم يمضي القرآن في بيان دعوة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ، مبيّنـًا أنّه استخدمَ مع قومه كلَّ حجة ودليل، قال تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴿٦٩﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴿٧١﴾ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴿٧٢﴾ أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٧٤﴾ قَالَ أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ تَعْبُدُونَ ﴿٧٥﴾ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الْأَقْدَمُونَ ﴿٧٦﴾ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٦٩-٧٧].

وعقيدة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ هذه هي التي عبّر عنها علماؤنا الأجلاء بقولهم: «لا موالاة إلا بالمعاداة، ولا تصح الموالاةُ إلا بالمعاداة»[١]. وكما قال تعالى عن إمام الحنفاء المحبين أنه قال لقومه: ﴿فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٧٧]،

(١) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص. ص ١٤٦-١٤٧.

فلم تصحَّ لخليل الله هذه الموالاةُ والخُلّةُ إلا بتحقيق هذه المعادلة؛ فإنّه لا ولاءَ إلا لله، ولا ولاءَ إلا بالبراءِ مِنْ كلِّ معبودٍ سواه، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٢٦-٢٨]، أي جعلَ هذه الموالاة للهِ، والبراءةَ من كلِّ معبودٍ سواه، كلمة باقيةً في عقبه، يتوارثها الأنبياءُ بعضُهم عن بعضٍ، وهي كلمة لا إله إلا الله، وهي التي ورَّثها إمام الحنفاء لأتباعه إلى يوم القيامة.

وقد كان من نتيجة هذه المعاداةِ وهذا البراء القويِّ أن أجمعَ الطغاةُ على قتل إبراهيم، كما هو حال كل طاغية على مرّ عصور التاريخ في إبادة الدعاة إلى الله؛ لا لشيء إلا لأنهم يدعونهم إلى عبادة الله وحده، وجمعوا له ناراً عظيمة، فكانت رعايةُ اللهِ وحفظُهُ تحوطان خليله الصادق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فصارت النارُ برداً وسلاماً عليه، قال تعالى: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ۝ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ [سورة الصافات: ٩٧-٩٨].

لقد عدلوا عن الجدال والمناظرة لما انقطعوا وغُلِبوا، ولم تبقَ لهم حجةٌ ولا شبهةٌ إلى استعمال قوتهم وسلطانهم لينصروا ما هم عليه من سفههم وطغيانهم، فكادهم الربُّ جَلَّجَلَالُهُ، وأعلى كلمته ودينه وبرهانه، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانْصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ ۝ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ ۝ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٦٨-٧٠]. وجاءت التوجيهاتُ الربانيّة لخاتم الأنبياء محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ باتباع ملّة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل: ١٢٣]، وقال تعالى: ﴿مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٩٥]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة: ١٣٥].

وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران: ٦٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ [النساء: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [سورة الحج: ٧٨]. وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ [سورة البقرة: ١٣٠]، فهذه الأخبار مِنَ اللهِ لأُمّة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ فعلِ إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ من أجلِ الاقتداءِ به في الإخلاص والتوكل على الله وحده، وعبادةِ الله وحدَه، والبراءِ من الشركِ وأهلِهِ، ومعاداةِ الباطلِ وحزبه [١].

والأمثلة كثيرة على أنَّ مِن لوازمِ لا إله إلا الله الولاءَ والبراء؛ كقصة نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ مع زوجه، وغيرها من القصص [٢].

لقد جمعت لا إله إلا الله صُهيباً الرومي، وبلالاً الحبشي، وسلمانَ الفارسي، وأبا بكر العربي القرشي، وتوارت عصبيةُ القبيلةِ والجنسِ والأرض، وقال لهم رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (دعوها فإنّها مُنتنةٌ) [٣]، وقال: (ليسَ مِنّا مَنْ دعا إلى عصبيةٍ، وليسَ منّا مَنْ قاتلَ على عصبيةٍ، وليس مِنّا مَنْ ماتَ على عصبيةٍ)[٤].

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص ١٤٨-١٤٩.

(٢) القحطاني، المرجع نفسه، ص ١٥٠.

(٣) صحيح البخاري، كتاب تفسير القرآن، باب: قوله: (سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ اللهُ لَهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ)، رقم: (٤٩٠٥). صحيح مسلم، كتاب: البر والصلة والآداب، باب: نصرُ الأخ ظالماً أو مظلوماً، رقم: (٢٥٨٤).

(٤) أخرجه أبو داوُد في سننه، كتاب الأدب، باب: في العصبية، رقم: (٥١٢١)، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، بيروت.

وتبقى سيرة المصطفى صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وسيرة صحابته الأخيار رضوان الله عليهم منارَ هدى وإصلاحٍ لمن سلكَ ذلك السبيل، ورضي بذلك النهجِ القويم[١].

ثامنـًا: آثار الإقرار بـ «لا إله إلا الله»:

إن لكلمة لا إله إلا الله آثاراً عظيمةً في حياةِ المؤمنِ؛ منها:

١- أنَّ المؤمن بهذه الكلمة لا يكون ضيّقَ النظر، بخلاف من يقول بآلهةٍ متعددةٍ، أو من يجحدُها.

٢-أن الإيمان بهذه الكلمة يُنشئ في النفس من الأنفة وعزّة النفس ما لا يقوم دونه شيء؛ لأنّه لا نافعَ إلا الله، ولا ضارَّ إلا الله، وهو المحيي المميت، وهو الحكيم القوي، مالك الملك، ومن ثَمَّ يُنْزَعُ من القلبِ كلُّ خوفٍ إلا منه سبحانه، فلا يطأطِئُ الرأسَ أمامَ أحد من الخلق، ولا يتضرّعُ إلا لله، ولا يتكفّف إلا له، ولا يرهب إلا من كبريائه وعظمته؛ لأن لله وحده الكبرياء والعظمة والقدرة، وهذا بخلاف المشرك والكافر والملحد.

٣-ينشأ من هذه الكلمة تواضعٌ من غير ذلٍّ، وترفُّعٌ من غير كِبْرٍ.

٤-المؤمن بهذه الكلمة يعلم علم اليقين أنَّه لا سبيل إلى النجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح، أما المشركون والكفار فإنَّهم يقضون حياتهم في آمال كاذبة؛ فمنهم من يقول: إنَّ ابنَ الله قُتِلَ وصُلِبَ كفّارةً لذنوبنا عند أبيه، ومنهم من يقول: نحن أبناءُ اللهِ وأحباؤه فلن يعذّبنا بذنوبنا، ومنهم من يقول: إنّا سنتشفع عند الله بكبرائنا وأتقيائنا، ومنهم من يقدّمُ النذورَ والقرابينَ إلى آلهته زاعماً أنّه قد نالَ بذلك رخصة في العمل بما يشاء.

---

(١) الولاء والبراء في الإسلام، القحطاني، مرجع سابق، ص ١٥٨.

أما الملحدُ الذي لا يؤمِنُ بالله فيعتقدُ أنّه حرٌّ في هذه الدنيا غيرُ مقيَّدٍ بشرعِ اللهِ، وإنّما إلهه هواه وشهوته وهو عبدٌ لهما.

٥-قائل هذه الكلمة لا يتسرّب إليه اليأس، ولا يقعد به القنوط؛ لأنَّه يؤمنُ أنَّ الله له خزائنُ السماوات والأرض، ومِنْ ثَمَّ فهو على طمأنينةٍ وسكينةٍ وأملٍ، حتى لو طُرِدَ وأهينَ، وضاقت عليه سُبُل العيش.

٦-الإيمان بهذه الكلمة يربّي الإنسان على قوة عظيمة من العزم والإقدام، والصّبر والثبات والتوكّل، حينما ينهض بمعالي الأمور ابتغاءَ مرضاة الله، إنَّه يشعر أنَّ وراءه قوة مالك السماء والأرض، فيكونُ ثباتُهُ ورسوخُه وصلابتُه التي يستمدّها من هذا التصور كالجبال الراسية، فأنّى للشرك والكفر بمثل هذه القوة والثبات؟

٧-هذه الكلمة تشجعُ الإنسان وتملأ قلبه جرأةً؛ لأن الذي يجبِّنُ الإنسان ويوهنُ عزمه شيئان:

- حبه للنفس والمال والأهل.
- واعتقاده أنَّ أحداً غيرَ الله يميتُ الإنسان.

فإيمانُ المرء بـ«لا إله إلا الله» يَنْزِعُ من قلبه الأولَ وهو «حبّه للنفس والمال والأهل»، فيجعله موقناً أنَّ الله هو المالك الوحيد لنفسه وماله، فعندئذٍ يضحّي في سبيل مرضاة ربه بكلِّ غالٍ ونفيس عنده، كما يَنْزِعُ الثاني وهو «اعتقادُه أنَّ أحداً غير الله يميت الإنسان»، بأن يلقِي في روعهِ أنّه لا يقدِرُ على سلبِ الحياة منه إنسانٌ ولا حيوانٌ ولا غيرُه إلا إذا جاء أَجَلُه، من أجلِ ذلك لا يكونُ في الدنيا أشجعُ ولا أجرأُ ممّنْ يؤمِنُ بالله تعالى، فلا يكادُ يخيفه أو يثبتُ في وجهه زحَفُ الجيوش، ولا السيوف المسلولة، ولا مطرُ الرّصاص، ولا وابلُ القنابل.

٨-الإيمان بـ «لا إله إلا الله» يرفع قدر الإنسان، وينشئ فيه الترفُّعَ والقناعةَ والاستغناء، ويطهِّرُ قلبَه من أوساخ الطمع، والشّره، والحسد، والدناءة، واللؤم، وغيرها من الصفات القبيحة.

٩-الإيمان بـ «لا إله إلا الله» يجعل الإنسان متقيداً بشرع الله، ومحافظـًا عليه، فإنَّ المؤمن يعتِقدُ بيقينٍ أنَّ الله خبيرٌ بكلِّ شيءٍ، وهو أقربُ إليه مِنْ حبلِ الوريد، وأنَّه إنْ كان يستطيعُ أن يفلتَ مِنْ بطشِ أيٍّ كانَ فإنَّه لا يستطيعُ أن يفلتَ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ، وعلى قَدْرِ ما يكونُ هذا الإيمانُ راسخـًا في ذهن الإنسان يكونُ متّبعـًا لأحكام الله، قائمـًا عند حدودهِ، لا يجرؤ على اقترافِ ما حَرَّم الله، ويسارعُ إلى الخيراتِ والعمل بما أمر الله.

لذا فالعبدُ الذي ملأ اللهُ قلبه إيمانـًا بـ «لا إله إلا الله» هو في الحقيقة عبدٌ مطيعٌ منقادٌ لربه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وهذا هو أصلُ الإسلام، وهو مصدرُ قوته، وكلُّ ما عداه من معتقداتِ الإسلامِ وأحكامِهِ إنّما هي مبنيةٌ عليه، ولا تستمدّ قوتها إلا منه، والإسلامُ لا يبقى منه شيءٌ لو زال هذا الأساس[1].

---

(١) مبادئ الإسلام، أبو الأعلى المودودي، مكتبة الشباب المسلم، دمشق، ط ٣، ١٩٦١، ص ٨٧.

المبحث الثاني: إثبات وجود الخالق

رغم أنّه لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق فإنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثِّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً -أيَّ أثرٍ- من غيرِ مؤثّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهـاً، فكيف بهذا الكون العظيم؟! ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٣]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [سورة القصص: ٣٨]، ﴿يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ [سورة غافر: ٣٦-٣٧].

فكان موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ لا يعيرُ اهتمامـاً لهذه الإنكارات، وتعامل مع فرعونَ على أساسِ أنَّه مؤمنٌ بوجودِ الخالقِ، فتراه يقولُ له مثلاً: ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٢].

إن البيئة التي أنزل فيها القرآن الكريمُ كانت وثنيةً في الغالب، وكتابيةً في بعض القرى، أو بعض الأشخاص، والكتابيون لا ينكرون الخالق، وأمّا الوثنيون فمع عبادتهم للأوثان فإنّهم كانوا يؤمنون بالخالق سبحانه، وسجَّل القرآن هذا لهم في أكثر من موضع [1]، قال تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة لقمان: ٢٥]. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [سورة لقمان: ٣٢]، ولهذا لم يَحْتَج القرآن الكريم أن يفتحَ الموضوع

(١) المحكم في العقيدة، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط ١، ص ٦٥-٦٦.

مع هؤلاء الناس، بل حتّى خارج هذه البيئة لم يُعرف هناك منكِرٌ للخالق، يقول الشهرستاني: أمّا تعطيلُ العالَم عن الصانعِ العليمِ القادرِ الحكيم فلستُ أراها مقالةً لأحدٍ، ولا أعرفُ عليها صاحبَ مقالةٍ، إلا ما نُقِلَ عن شرذمة قليلةٍ من الدهريّة، ولستُ أرى صاحبَ هذه المقالة ممّن ينكرُ الصانع، بل هو معترفٌ بالصانع، فما عُدَّتْ هذه المسألةُ من النظريات التي قام عليها دليل [1]، ومع خلَو القرآن الكريم من مناقشةٍ صريحةٍ لمنكري الخالق فإنّه تضمّن أدلةً كثيرةً لإثبات وجوده، غير أنها جاءت في الغالبِ لإثبات مسائلَ أخرى: كالوحدانية، والنبوة، والبعث[2]، ومن هذه الأدلة التي ذكرت في القرآن الكريم:

أولاً: دليل الخلق:

وخلاصةُ هذا الدليل: أنَّ هذا الخلقَ بكلِّ ما فيه شاهدٌ على وجودِ خالقه العليِّ القدير سبحانه، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٦]، يقول لهم: أنتم موجودون، هذه حقيقةٌ لا تنكرونها، وكذلك السماواتُ والأرضُ موجودتان، وقد تقرّر في بداهةِ العقول أنَّ الموجودَ لا بدَّ من سببٍ لوجودِهِ، وهذا يدركُه راعي الإبل، فيقول: البعرةُ تدل على البعيرِ، والأثرُ يدلُّ على المسير، فسماءٌ ذاتُ أبراجٍ، وأرضٌ ذاتُ فجاجٍ، وبحارٌ ذاتُ أمواجٍ، أفلا يدلُّ ذلك على العليمِ الخبيرِ؟! ويدركه كبارُ العلماء الباحثين في الحياة والأحياء، يقول أحدهم: إنَّ الله الأزلي الكبير، العالم بكل شيء، والمقتدر على كل شيء، قد تجلّى لي ببدائع صنعه، حتى صرتُ دَهِشاً متحيّراً؛

(١) نهاية الإقدام في علم الكلام، محمد بن عبد الكريم الشهرستاني، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٥هـ، ص ١٢٣-١٢٤.

(٢) المحكم في العقيدة، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط ١، ص ٦٦.

فأيُّ قدرةٍ، وأيُّ حكمةٍ، وأيُّ إبداعٍ أودعه مصنوعاتٍ يده صغيرِها وكبيرِها!؟ (١).

وبهذا الدليل كان علماءُ الإسلام -ولا يزالون- يواجِهون الجاحدين؛ فهذا الإمام أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ يعرِضُ له بعضُ الزنادقة المنكرين للخالق فيقول لهم: ما تقولون في رجلٍ يقولُ لكم: رأيتُ سفينةً مشحونةً بالأحمالِ، مملوءةً من الأنفال، قد احتوشتها في لُجَّةِ البحرِ أمواجٌ متلاطمة، ورياحٌ مختلفة، وهي مِنْ بينها تجري مستويةً، ليس لها ملّاح يجريها، ولا متعهِّدٌ يدفعُها، هل يجوزُ ذلك في العقل؟

قالوا: هذا شيءٌ لا يقبلُه العقلُ.

فقال أبو حنيفة: يا سبحان الله! إذا لم يجز في العقلِ سفينة تجري في البحرِ مستوية من غيرِ متعهِّدٍ ولا مُجْرٍ، فكيف يجوزُ قيامُ هذه الدنيا على اختلافِ أحوالها، وتغيرُّ أعمالها، وسَعَةِ أطرافها، وتباين أكنافها، من غير صانعٍ ولا حافظٍ؟! فبكوا جميعـًا، وقالوا: صدقتَ وتابوا (٢).

لقد تناولَ القرآن الكريمُ قضيةَ الخَلْقِ والتدبير تناولاً فريداً، وعُني بتوجيه العقولِ إلى النظرِ في آفاقِ الكونِ وآيات اللهِ الكثيرة، وأهابَ بالعقلِ أنْ يستيقظَ من سُباته، ليتفكَّرَ في ملكوتِ السماواتِ والأرضِ، وما أُودعَ فيها من الآيات. ويكرِّرُ القرآن الكريم ذلك في أساليب متنوعة، ليرى هذا الإنسانُ ويسمعَ في آفاقِ الكونِ ما يقودُهُ إلى الإيمانِ بخالقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ويعلمَ أنَّ هذا الكونَ هو مِنْ صُنعِ اللهِ الخالق المدبر المستحقّ للعبادة وحدَه لا شريك له(٣).

---

(١) مع الله، حسن أيوب، ص ٦٧.

(٢) حسن أيوب، مرجع سابق، ص ٦٨. وانظر: العقيدة في الله، الأشقر، مرجع سابق، ص ٧٠.

(٣) حماية الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حمى التوحيد، محمد بن عبد الله الغامدي، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ص ٢١٦.



ثانيـًا: دليل الفطرة والعهد:

إنّ معرفة الخالق والإقرارَ بوجودِه تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ وربوبيته أمرٌ بدهي مغروسٌ في نفوس الناس وفطرهم، إذ لو تُرِكَ الإنسانُ في مكانٍ خالٍ لا يوجدُ فيه أحدٌ، بعيداً عن كل المؤثّرات الخارجية، وعن كلِّ الشوائب العقدية، لاستطاعَ بفطرته أن يعرفَ أنَّ لهذا الكونِ خالقـاً مدبِّراً ومتصرِّفـاً، ثم بفطرته يتوجَّه لمحبّةِ خالقِهِ.

ومن هنا نعلمُ أنَّ مَنْ أنكرَ وجودَ الخالقَ جَلَّجَلَالُهُ من الملحدين إنّما أُتوا من انحرافِ فطرهم، ومن تأثيرِ الشياطين فيهم، وتلاعبهم بهم.

ودليلُ الفطرة هذا دلَّ عليه القرآن الكريمُ والسنةُ النبويةُ المطهرة، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الروم: ٣٠]. فالمقصود بالفطرة هنا الإسلام، فالله جَلَّجَلَالُهُ فطر الناسَ على دين الإسلامِ والتوحيد[١].

قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: (ما مِنْ مولودٍ إلا يولدُ على الِفْطَرِة، فأبواه يهوّدانِهِ، أو ينصّرانِهِ أو يمجّسانِهِ، كما تُنْتِجُ البهيمةُ بهيمةً جمعاء، هل تحسّون فيها مِنْ جَدْعاء؟) [٢]، وفي الحديث القدسي: (يقول تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: إنّي خَلَقتُ عبادِي حنفاء كلَّهم، وإنّهم أتتهم الشياطينُ فاجْتالَتهُم عن دينهم)[٣].

ومعنى «حنفاء» أي: مائلينَ عن الأديانِ كلِّها إلى دين الإسلام [٤]، ومعنى

---

(١) المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار، الكيلاني، مرجع سابق، ١/ ٣٦٨.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب: إذا أسلم الصبيُّ فمات هل يصلى عليه؟ رقم: (١٢٩٢)، صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: معنى كل مولود يولد على الفطرة، رقم: (٢٦٥٨).

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب: الصفات التي يعرف الجنة وأهل النار، رقم: (٢٨٦٥).

(٤) الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني=

«اجتالتهم»: استخفّتهم، فجالوا معهم في الضلال [(١)].

وهذه الفطرةُ التي فطرَ الله عليها عبادَه لها صلةٌ وارتباطٌ وثيق بالعهد الذي أخذه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ على بني آدم وهم في عالم الذَّرِّ، كما أشار الله بقوله: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٧٢ - ١٧٣].

فهذا العهدُ والميثاقُ الذي أخذه الله جَلَّجَلَالُهُ على الناس مضمونُه الاعترافُ والإقرارُ بربوبيته، وأشهدَهم على أنفسِهم فشهدوا.

فمِنَ الناس مَنْ حافظ على ذلك العهد، وقام بمقتضاه ولازِمه؛ من عبادة ربه وحده لا شريك له، وتوحيده، وصَدّقَ رسلَ اللهِ، وآمن بهم وبما جاؤوا به.

ومِن الناس من تغيَّرتْ فطرتُه وانحرفت، واجتالته الشياطين -والعياذ بالله- فنسيَ ما شهدَ عليه، وما جُبِلَ عليه من الإقرار بربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، فوقع في الكفر والإلحاد، مع أنَّ الله سبحانه لم يتركْ عبادَه سدىً، بل أرسل لهم الرسلَ، وأنزل معهم الكتبَ، ليُذكِّروا الناس بهذا الإشهاد وهذا العهد والميثاق، ولكي يبقى المسلمُ متذكِّراً هذا العهد الذي أخذه الله عليه في عالم الذَّرِّ، فقد علّم رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أصحابه ذِكْراً يقولونه في الصباحِ والمساءِ، ففي الحديث الصحيح عنه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: «سيّدُ الاستغفارِ أنْ يقولَ العبدُ: اللهمَّ أنتَ ربي لا إلهَ إلاّ أنتَ، خلقتَني وأنا عبدُكَ، وأنا على عهدِكَ ووعدِكَ ما استطعتُ، أعوذُ بكَ مِنْ شَرِّ ما صنعتُ، أبوءُ لك بنعمكَ عليَّ، وأبوءُ بذنبي، فاغفر لي إنَّه لا يغفرُ الذنوبَ إلا أنت» [(٢)].

= وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤، ٢٠/ ١٤٤.

(١) النهاية في غريب الحديث، مجد الدين أبو السعادات ابن الأثير، (جول)، المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٧٩، ١/ ٣١٧.

(٢) صحيح البخاري، كتاب الدعوات، باب: أفضل الاستغفار، رقم: ٦٣٠٦.

ثالثـًا: دليل الآفاق:

قال تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: ٥٣]. فقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ أي: علامات وحدانيَّتنا وقدرتنا [١]، وقوله: «في الآفاق»، يعني: أقطار السماوات والأرض؛ من الشمس، والقمر، والنجوم، والليل، والنهار، والرياح، والأمطار، والرعد، والبرق، والصواعق، والنبات [٢]، وغير ذلك مما فيها من عجائب خلق الله.

رابعـًا: دليل الأنفس:

قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٢١] ولما كان أقربُ الأشياء إلى الإنسان نفسَه دعاه خالقُه وبارئُه ومصوِّرُهُ وفاطرُه مِنْ قطرةِ ماءٍ إلى التبصُّرِ والتفكّرِ في نفسِه، فإذا تفكّرَ الإنسانُ في نفسِه استنارت له آيات الربوبيّةِ، وسطعتْ له أنوارُ اليقينِ، واضمحلّتْ عنه غمراتُ الشكَّ والريب، وانقشعتْ عنه ظلماتُ الجهلِ، فإنّه إذا نظر في نفسِهِ وجد آثارَ التدبيرِ فيه قائماتٍ، وأدلّةَ التوحيدِ على ربِّه ناطقاتٍ، شاهدةً لمدبّره، دالةً عليه، مرشدةً إليه [٣].

وإليك بعضَ البراهين العلمية المتعلّقة بالإنسان وخلقه:

١ -الإحساس والجلد:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٥/ ٣٧٤.

(٢) القرطبي، المرجع نفسه، ١٥/ ٣٧٤.

(٣) التبيان في أقسام القرآن، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت، ١/ ١٩٠.

جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ [سورة النساء: ٥٦] وهذه حقيقةٌ كونيةٌ؛ وهي أنَّ موطنَ الإحساس والألم في الإنسان هو الجلدُ، فالكافرون يعذَّبون عن طريق تبديل الجلد أو تغييره، وذلك ليذوقوا العذابَ، فالإذاقةُ -حسب القرآن الكريم- محلُّها الجلدُ، وقد بيّنَ التشريح المجهري للجلد أنّه عضوٌ غني بالألياف العصبيّةِ التي تستقبل وتنقل جميعَ أنواعِ الحسِّ من المحيط الخارجي، وذلك عن طريق طبقاتِ الجلدِ «البشرة، والأدمة، والنسيج تحت الأدمة»، وهي تنقلُ حِسَّ الألم، والحرارةَ والبرودةَ، والضغطَ، وحِسَّ اللّمس، فالقرآن ينبّهنا إلى هذه الحقيقة، ويقول: إن الله سبحانه كلّما أرادَ أن يذيقَ الكفارَ مزيداً من العذاب استبدلَ بجلودِهم التي احترقت وماتت فيها الأليافُ العصبيّةُ جلوداً سليمة لم تحترقْ، ليذوقوا العذابَ مرّةً أُخرى، وعندما يأتي التشريحُ المجهري ليقول: إنَّ الأليافَ العصبيَّة تكمنُ في الجلدِ نقول: إنَّ الله سُبْحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ قد أخبرنا بهذه الحقيقة في القرآن الكريم منذ أربعة عشر قرنـاً [1].

٢-البصمات وتحديدها لهوية الإنسان:

قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ ۝٣ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [سورة القيامة: ٣-٤]، لقد توصَّل العلمُ إلى سرِّ البصمةِ في القرن التاسع عشر، وبيّنَ أنَّ البصمةَ تتكوَّن من خطوطٍ بارزةٍ في بَشرَةِ الجلدِ، تجاورها منخفضاتٌ، وتعلو الخطوطَ البارزةَ فتحاتُ المسامِّ العرقية، تتمايل هذه الخطوطُ وتتلوّى، وتتفرّعُ عنها تَغَضُّناتٌ وفروع، لتأخذَ في النهاية في كلِّ شخص شكلاً مميّزاً، وقد ثبتَ أنّه لا يمكِنُ للبصمة أن تتطابقَ وتتماثَل في شخصين في العالم، حتّى في التوائمِ المتماثلةِ التي أصلُها مِنْ بويضةٍ واحدةٍ، يتكوّن البنان في الجنين في الشهر الرابع، ويظلُّ ثابتـاً ومميّزاً له طوالَ حياته، ويمكن أن تتقاربَ بصمتان في الشكل تقاربـاً

(١) تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص ١٨٠.

شديداً، ولكنّهما لا تتطابقان البتَّةَ، ولذلك فإنَّ البصمةَ تعدُّ دليلاً قاطعـاً ومميزاً لشخصية الإنسان، معمول بها في كلِّ بلاد العالم، ويعتمدُ عليها في تحقيق القضايا الجنائية لكشف المجرمين واللصوص، وقد يكونُ هذا هو السرُّ في أنَّ الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ خصَّ البنانَ بالذكر، ليبيّن للإنسان هذين الأمرين:

- السرَّ المختفي في البنان، الذي لم يُعْلَمْ أمرُه إلا في عصر الكشوف العلمية.

- القدرةَ الفائقةَ على إعادةِ خلق الإنسان وبعثه بصورته وخِلقته التي كان عليها[1].

والدعوة مفتوحةٌ للإنسان إلى التفكّر في أجهزته العضوية؛ كالجهاز الهضمي، والتنفسي، والدموي، وغيرها في جسمه، وإلى التأمل في عالم المشاعر والأحاسيس والأفكار والعقائد.

خامساً: دليل الهداية:

قال تعالى: ﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ۝١ الَّذِى خَلَقَ فَسَوَّى ۝٢ وَالَّذِى قَدَّرَ فَهَدَى﴾ [سورة الأعلى: ١-٣]. وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [سورة طه: ٥٠]، والمقصودُ بالهداية المرادةِ في هذه الآيات إعطاءُ كلِّ مخلوقٍ من الخلق والتصوير ما يصلحُ به لما خُلِقَ له، وإرشادُه إلى ما يُصْلِحُه في معيشته، ومطعمه، ومشربه، ومنكحه، وتقلبه، وتصرفه[2].

ومن أسماء الله الحسنى «الهادي» سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ، الذي يُبصِّرُ عبادَه ويعرّفهم طريقَ الإيمان به، والإقرار بألوهيته، ومعرفة طريق بناء الحياة، ومعرفة نواميسها

(١) تأملات في العلم والإيمان، مرجع سابق، ص ١٨٠ - ١٨٢.

(٢) مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة، دار الكتب العلمية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، بيروت، ص ١٠٩. شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧٨.

وسننها، حتى هدى الطيورَ، والحيواناتِ، والهوام، والوحوش، إلى ما فيه مصالحها وعيشها، ومحاذرة ما يضرُّها أو يُعْطِبُها.

وقد جاء اسم «الهادي» في القرآن الكريم في قوله سبحانه: ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٣١]، وقوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة الحج: ٥٤].

سادسًا: دليل انتظام الكون وعدم فساده:

وانتظامُ أمرِ العالم، العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَمٍ، لا يختلف ولا يفسد، أدلُّ دليلٍ على أنَّ مدبِّره واحدٌ لا إله غيره [(١)].

قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢]، لو كان في السماواتِ والأرض آلهةٌ تصلحُ لها العبادةُ سوى الله الذي هو خالقُ الأشياءِ، وله العبادةُ والألوهيّةُ التي لا تصلحُ إلا له، أي لفسدَ أهلُ السماواتِ والأرضِ.

وقال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ٩١]، يقول تعالى ذكره: ما للهِ مِنْ ولدٍ، ولا كانَ معه في القديم، أو عندَ خلقِهِ الأشياءَ، مَنْ تصلحُ عبادتُه، إذاً لاعتزلَ كلُّ إلهٍ منهم بما خلقَ مِنْ شيءٍ، فانفردَ به، ولتعالوا، ولعلا بعضهم على بعض، وغلبَ القويُّ منهم الضعيفَ؛ لأنَّ القويَّ لا يرضى أن يعلوه الضعيفُ، والضعيفُ لا يصلحُ أن يكون إلهـًا، فسبحان اللهِ ما أبلغها مِنْ حُجَّةٍ، وما أوجزها لمن عقلَ وتدبّر [(٢)].

---

(١) الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط ١، ١٤٠٨، ٣/ ٤٦٤.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة=

وهكذا؛ فإنَّ دليلَ انتظامِ الكونِ وعدم فسادِهِ دليلٌ عقلي قويٌّ على وحدانيةِ الله، لا تملكُ العقولُ السويّةُ ردَّه، وهي ترى انتظامَ أمرِ السماواتِ والأرض وما فيهنّ، ممّا يدلُّ على وجودِ إلهٍ واحدٍ متفردٍ بالخلقِ والتدبيرِ، مما يستوجبُ صرفَ العبادةَ له دونَ سواه (١).

سابعـًا: دليل التقدير:

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر: ٤٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ [سورة الرعد: ٨]، وظاهرةُ التقديرِ تبدو في كلّ ما خلقَ الله عَزَّوَجَلَّ في الأرض والسماءِ والإنسان والنبات والحيوان، فقد نظّم اللهُ أجزاءَ هذا الوجودِ على أحسنِ نظامٍ، وأدلّه على كمالِ قدرةِ خالقِهِ، وكمالِ عملِهِ، وكمال حكمتِهِ، وكمالِ لطفِه (٢).

ثامنـًا: دليل التسوية:

قال تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ۝٢٧ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا﴾ [سورة النازعات: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل: ٨٨]، وقال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [سورة السجدة: ٧].

والتسوية: إحسانُ الخَلْقِ، وإكمالُ الصنعةِ، بحيث يكونُ المخلوقُ مهيئـًا لأداءِ وظيفته، وبلوغِ كماله، المقدَّر عنه، وجعله مستويـًا معتدلاً متناسبَ الأجزاء،

= الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠، ١٣/ ١٧.

(١) محمد بن جرير الطبري، المرجع نفسه، ١٨/ ٤٩.

(٢) الدلالـة العقلية في القرآن ومكانتهـا في تقرير مسـائل العقيـدة الإسـلامية، عبـد الكريـم عبيدات، دار النفائـس للنشـر والتوزيـع، الأردن، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٣١٤.

بحيث لا يحصلُ تفاوتٌ يخلُّ بالمقصودِ منها [١].

وإذا تأمّلنا مظاهرَ التسوية في الإنسان رأيناها تبدو في كل عضو من أعضائه، فقد أحسنَ اللهُ خلقَه، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [سورة التين: ٤] منتصبَ القامة، سويَّ الأعضاءَ حسنَها [٢]، كما قال سبحانه في موضع آخر: ﴿الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ۝ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [سورة الانفطار: ٧-٨]، وإنَّ الجمالَ والسواءَ والاعتدالَ ليبدو في تكوين الإنسان الجسدي والعقلي والروحي، وكلُّ ذلك يتناسَقُ في كيانه في جمالٍ واستواءٍ.

والأجهزةُ العامةُ لتكوين الإنسان الجسدي؛ كالجهاز العظمي، والجهاز العضلي، والجهاز الهضمي، والجهاز التنفّسي.. إلى غير ذلك من أجهزة الجسم المتعدّدة، كلٌّ منها عجيبةٌ لا تقاسُ إليها كلُّ العجائب الصناعية التي يقفُ الإنسانُ مدهوشاً أمامها، وينسى عجائب ذاته، وهي أضخمُ وأعمقُ وأدقُّ بما لا يقاس [٣]، وخلقُ الإنسانِ على هذه الصورة السويّة المعتدلة أمرٌ يستحقُّ التدبرَ الطويلَ؛ لأنَّه خلقٌ لا يملك العقلُ حيالَه إلا الإقرار بعظمة الله، والشكر له بأنْ أكرمه بهذه الخِلْقة، وقد كان قادراً أن يركّبه في أيِّ صورةٍ أخرى يشاؤها [٤].

إنَّ أدلةَ إثبات وجودِ الخالق جَلَّجَلَالُهُ؛ كدليل الخلق، ودليل الفطرة والعهد، ودليل الآفاق، ودليل الأنفس، ودليل الهداية، ودليلُ انتظام الكونِ وعدم فسادِه،

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٥٩.

(٢) دراسات في الثقافة الإسلامية (المصادر - الأسس - الخصائص - التحديات)، أحمد محمد بن جلي، ٢٠١٦، ص ٧٥.

(٣) تفسير القرآن العظيم، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩، ٤/ ٣٩٦.

(٤) الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية، عبيدات، مرجع سابق، ص ٢٩٤.

ودليل التقدير، ودليل التسوية، تثبت أن هذا الكون لم ينشأ مصادفة ولم يوجد اعتباطًا ولم يكن بدون قصد [١]، إننا ونحن في رحابه نشاهدُ الترابطَ بطريقة يمكن أن تقال في يقين جازم إن الكون كلّه؛ سماواته وأرضه وما بين السماوات والأرض، بِحارُه وأنهارُه، جِبالُه وودِيانُه، نباته وحيوانه، إن جميع أجزاء الكون تُؤلِّف وحدةً متكاملةً مترابطة، هذا التكوين المترابط في ملايين الجزيئات الكونية، بل في بلايين بلايين هذه الجزيئات، ينفي -في تأكيد مطلق- فكرة الطبيعة العمياء، أو فكرة المصادفة، وإذا انتَفَت فكرةُ المصادفة فإن النتيجة التي تترتب على ذلك هي أن يكون للكون مكوِّن، ولعل القارئ يلاحظ مما سبق أننا نبدأ الحديث بمسألة وجود الله والاستدلال على هذا الوجود، وأن ترابط الكون هو من الأدلة على وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، انظر إلى هذا الترابط في قوله تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة عبس: ٢٤-٣٢].

انظر إلى الترابط بين السماء والأرض وبين الماء والنبات في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: ٢١].

هذا الترابط هو ترابط غائي؛ أي: ترابط هادف، فهذا الترابط بين بلايين أجزاء الكون الذي يعتبر دليلاً باهراً على وجود الله إنما هو ترابط غائي على حدِّ تعبير الفلاسفة، أي: ترابط له غاية، إنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٠، ص ١١.

القصد وفيه الغاية، ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سمِّي هذا الدليل أيضـًا «الدليل الغائي»، إذ إن كل شيءٍ له غاية، وسمِّي أيضـًا «دليل القصد»، وذلك أن كل ما في العالم مقصود لا دخل للاعتباط فيه، هادف لا دخل للمصادفة فيه، وانظر إلى القصد والغاية في قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ۝٦ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ۝٩ وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ۝١٠ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ [سورة ق: ٦-١١].

وانظر إلى قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٦٥ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ ۝٦٦ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٦٧ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ۝٦٨ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٦٥-٦٩].

إن الله سبحانه يمسك النظام المترابط في كل لحظة وفي كل ثانية، وإنه سبحانه لو تخلَّف عن شيءٍ منه طرفة عينٍ لتلاشى، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: ٤١].

ويقول سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾ [سورة الملك: ١٩].

والآيات القرآنية -من هذا القبيل كثيرة- يقول سبحانه: ﴿هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران: ٦]، ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الروم: ٤٦]. ويقول سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ۝٤٨ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمُبْلِسِينَ ۝٤٩ فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ ذَلِكَ لَمُحْيِي الْمَوْتَى وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة الروم: ٤٨-٥٠].

وإذا كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أعلن أن علمه عام شامل بقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [سورة الأنعام: ٧٣] -إذ إن عالَم الغيب هو ما وراء الطبيعة، وعالم الشهادة هو الطبيعة- فإن الله قد فصَّل الأجزاء والجزئيات، وبيّن أنه يعلم اليسير والصغير والكبير، يقول سبحانه: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ۝٥٩ وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٥٩-٦٠].

ويقول سبحانه: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ۝٢ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة سبأ: ٢-٣].

تاسعـًا: دليل العناية:

إن الله سبحانه معنيٌّ بالعالم، وعنايته بالكون سارية في جميع أجزائه، وإذا كانت كلمة «العناية» لا تخرج بنا عن جو الترابط الهادف والإمساك والتدبير فإنها تلوّن الحديث عن دليل الترابط على وجود الله بلون آخر، وإذا تلوّن هذا الدليل باللون الرحيم الرقيق سمِّي «دليل العناية».

والقرآن الكريم مليء بتوجيه الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان في رحاب الكون، فمن أجل الإنسان كانت رحمة الله فيَّاضة بالنعم على الإنسان في نفسه، يقول سبحانه: ﴿أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ ۝٨ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ ۝٩ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [سورة البلد: ٨-١٠].

ويقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الروم: ٢١]، ويقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ٧٠].

ويتحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن نعمه العديدة التي أسداها إلى الإنسان، فنعمة الليل والنهار بيّنها الله سبحانه بقوله: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ۝٧١ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٧٢ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص: ٧١-٧٣].



إن دليل العناية من أجمل الأدلة على وجود الله الذي يقول:

- ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [سورة لقمان: ٢٠].

عاشراً: الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى هو الظاهر:

إن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَى -في أعراف المؤمنين-ظاهراً ظهوراً واضحاً، وهو عَزَّوَجَلَّ أظهر من كل ما سواه، إن المؤثِّر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق، والمكوِّن أجلى من الكون، وإن من أسماء الله اسم «الظاهر».

ومن أدق الكلمات وأوضحها أن يقال: الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر أسمائه وصفاته، وعلاماته، كل الكون يدل على الله أبداً، كل الكون بمجراته، بالسموات، والأرض، والنبات، والحيوان، والأطيار، والأسماك، والإنسان، والطعام، والشراب؛ لذلك فإن أكبر وظيفة للكون أن نتعرف على الله من خلاله، ولو لم نستفِد منه، لكن الذي استفاد من هذا الكون ولم يتعرف على الله من خلاله ما حقق الهدف من وجوده (١).

وقيل في الاسم الظاهر هو المتجلي بأنوار هدايته وآياته، المتنزّه بمعاني أسمائه وصفاته، فهدايته واضحة، وآياته واضحة (٢).

قال العلماء لا ترى ذرة في الوجود إلا وهي ناطقة بوحدانية المعبود، ولا ترى فاضلاً متخلّقاً بصفات الرجال إلا وتشهد عليه أنوار صفات الكبير المتعال،

(١) موسوعة أسماء الله الحسنى، محمد راتب النابلسي، دار المكتبي، دمشق، سوريا، ط٣، ١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م، ٢/ ١٠١٠.

(٢) النابلسي، المرجع نفسه، ٢/ ١٠١٠.

كل الخير من الله، كل الكمال من الله، كل الأعمال الصالحة بتوفيق الله، بإلهام الله، مصدر الكمال في الكون هو الظاهر، وقالوا: الظاهر لا يخفى على كل متأمل، أيُّ إنسان أراد الحقيقة فالله يظهر له. قالوا: هو الظاهر فلا يخفى على كل متأمل، الظاهر لعيون الأرواح والكون، محلّى بالكمال، وكل شيء فيه ينادي: أشهد أن خلَّاقي ذو الجلال والإكرام ظاهر [١].

والظاهر: هو الظاهر على كل شيء دونه، وهو العالي فوق كل شيء، فلا شيء أعلى منه [٢]، وقد قال الإمام ابن القيم عن اسم الجلالة (الظاهر) في نونيته:

والظاهر العالي الذي مافوقه فوقه شيء كما قد قال ذو البرهان

حقًا رسول الله ذا تفسيره ولقد رواهُ مسلمٌ بضمانِ

فاقبله لا تقبل سواه من التفا سير التي قيلت بلا برهانِ

والشيء حين يتمُّ منه علوُّه فظهوره في غاية التبيانِ

أَوَما ترى هذي السما وعلوَّها وظهورها وكذلك القمرانِ

والعكس أيضًا ثابتٌ فسُفُولُهُ وخفاؤُهُ إذ ذاك مصطحبانِ

فانظر إلى علو المحيط وأخذِهِ صفةَ الظهور وذاك ذو تبيانِ

وانظر خفاءَ المركز الأدنى ووصـ ووصف السفل فيه وكونه ال تحتاني

وظهوره سبحانه بالذات مثـ ـلُ علوه فهما له صفتانِ

لا تجحدَنَّهما جحودَ الجهم أأأوأو صافَ الكمال تكون ذا بهتان بهتانِ

(١) النابلسي، المرجع نفسه، ٢/ ١٠١٠.

(٢) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٢٧/ ١٢٤.



وظـــهـــوره هـــو مـقـتـضٍ لـعـلـوِّه وعـــلـــوُّه لـــظـــهـــوره بـــبـــيـــانِ[١]

ويقول الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: و«الظاهر» يدل على عظمة صفاته، واضمحلال كل شيء عند عظمته من ذوات وصفات، ويدل على علوِّه [٢].

واسم الله الظاهر مقترن بالباطن، ومن أسرار اقتران أسماء الله الحسنى: الأول، الآخر، الظاهر، الباطن، فمعرفة هذه الأسماء الأربعة؛ الأول والآخر والظاهر والباطن هي أركان العلم والمعرفة، فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث تنتهي به قواه وفهمه [٣].

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة؛ وهي إحاطتان زمانية ومكانية، فإحاطة أَوَّليَّته وآخريَّته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أَوَّليَّته، وكل آخر انتهى إلى آخريَّته، فأحاطت أوليَّته وآخريَّته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريَّته وباطنيَّته بكل ظاهر وباطن، فما ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده؛ فالأولُ قِدمُه، والآخرُ دوامُه وبقاؤُه، والظاهرُ علوُّه وعظمتُه، والباطنُ قربُه ودنوُّه، فسبق كلَّ شيء بأَوَّليَّته، وبقي بعد كل شيء بآخريَّته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضـًا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنـًا، بل الباطنُ له ظاهرٌ، الغيبُ عنده شهادةٌ، والبعيدُ منه قريبٌ، والسرُّ عنده علانيةٌ، فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد؛ فهو «الأولُ» في آخريَّتِهِ، و«الآخرٌ» في أَوَّليَّته،

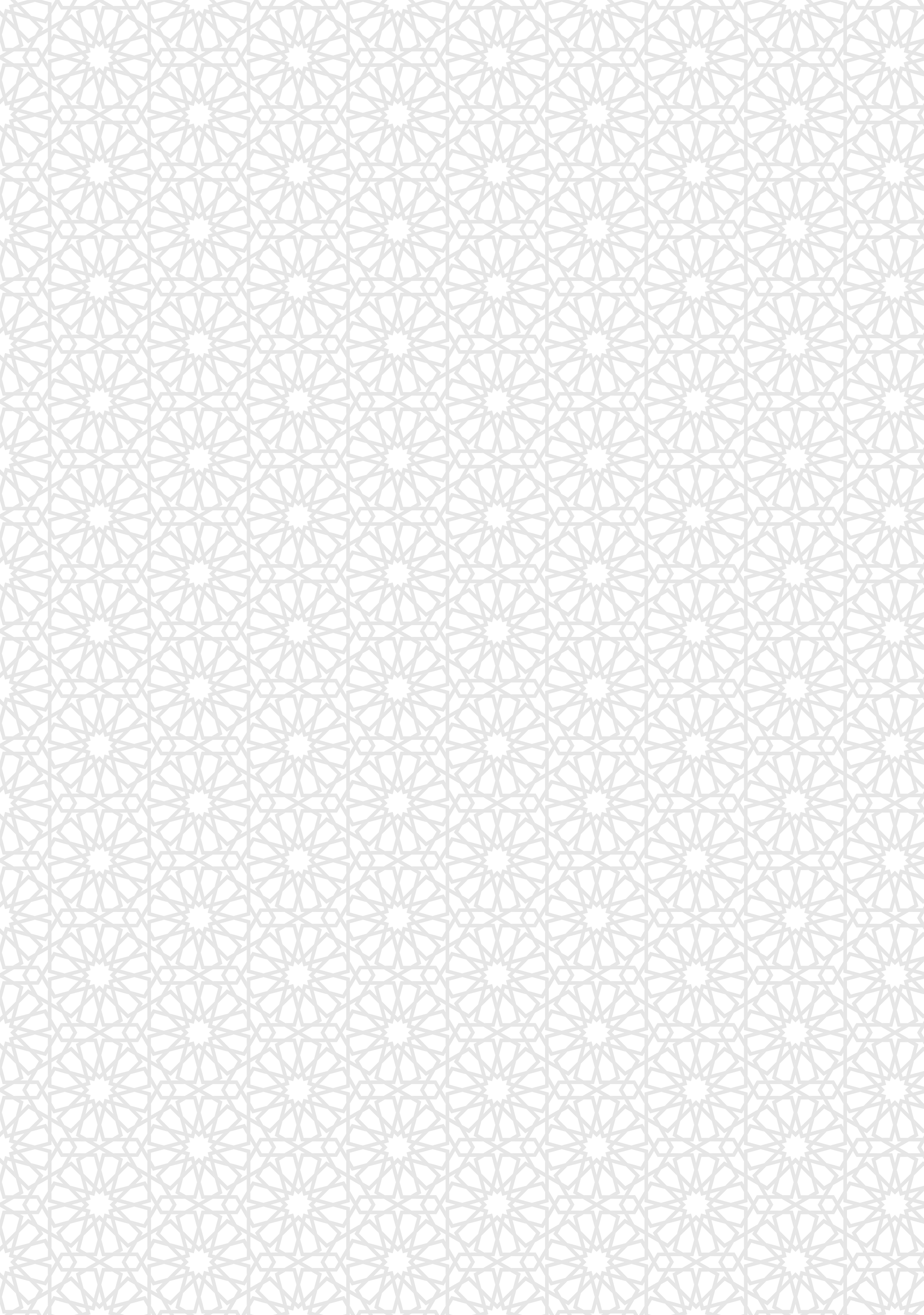
(١) ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها، عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م، ص ١٧٤.
(٢) الجليل، المرجع نفسه، ص ١٧٥.
(٣) الجليل، المرجع نفسه، ص ١٧٨.

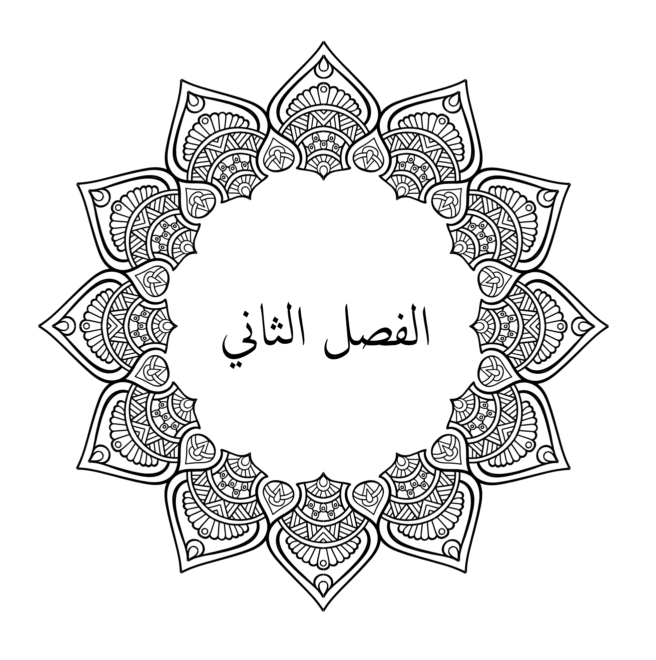
و«الظاهرُ» في بطونه، و«الباطنُ» في ظهوره، لم يزل أولاً، وآخراً، وظاهراً، وباطناً[١].

فالله سبحانه لَمّا كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكرُهُ أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه. وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته[٢].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤، ص ٢٥.

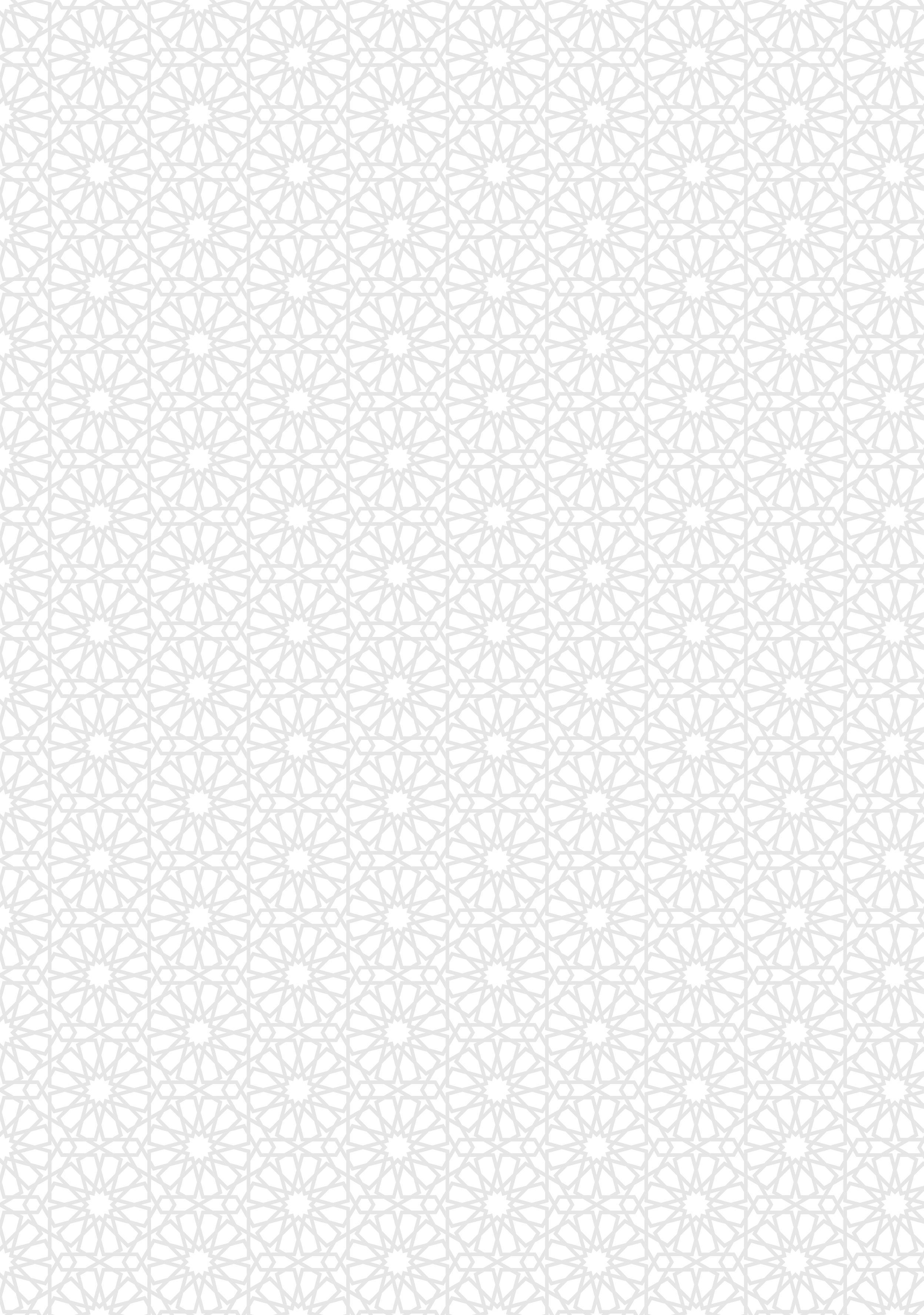
(٢) كلام ابن تيمية نقلًا عن: قصة الخلق، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٣.





قصة بدء الخلق





المبحث الأول: بدء الخلق وقدرة الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ [(١)]

إن الناس -في كل زمان ومكان- يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده... إنهم يريدون ترتيباً يكون فيه التعيين والتحديد.

لقد شغلت هذه المسألة الكثير من الصحابة، فأخذوا يسألون رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عنها، بل إن الوفود كانت تأتيه من بعيد، يدفعها حب الاستطلاع، ويتجشَّمون السفر من أجل المعرفة... ها هم أولاء ناس من أهل اليمن، كما يروي الإمام البخاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، فيقولون جئنا نسألك عن هذا الأمر؛ أي أمر الخلق، خلق الكون، لقد جاؤوا من اليمن يسألون عن متى وكيف؟

وقد روى الإمام البخاري أيضاً عن سيدنا عمر بن الخطاب -رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ- قال: قام فينا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مقاماً، فأخبرنا عن بدء الخلق حتَّى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم، حفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه [(٢)].

ومعنى كلام سيدنا عمر أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أخذ يحدث الصحابة عن بدء الخلق متدرجاً مع الترتيب حتى انتهى إلى نهاية العالم ومصيره، والبعث والحساب، حتى دخل الذين نالتهم رحمة الله الجنة، والذين اكتسبوا السيئات عاقبهم الله بما كسبت أيديهم فأدخلهم النار.

---

(١) إن هذا الفصل اعتمد في جزء من مادته المرجعية على كتاب "قصة الخلق" للمفكر والأكاديمي السعودي محمد عبد الله الخرعان، وهو صادر عن دار كنوز إشبيليا بالسعودية عام ٢٠٠٨م.

(٢) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص ٢٧.

ولقد رُوي عن بعض الصحابة أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطبهم في ذلك من العصر إلى أن غربت الشمس، ويبدو أن رسول الله خطب في ذلك عدة مرات، فقد روى الإمام مسلم عن أبي زيد الأنصاري قال: صلى بنا رسول الله صلاة الصبح فصعد المنبر فخطبنا حتى حضرت الظهر، ثم نزل فصلى بنا الظهر، ثم صعد المنبر فخطبنا، ثم صلى العصر كذلك حتى غابت الشمس، فحدثنا بما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا.

ولقد روت الأحاديثُ الصحيحةُ جملةً من القضايا؛ منها ما رواه الإمام البخاري عن عمران بن حصين -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- وهي إجابة الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن سؤال وفد اليمن؛ والقضية الأولى في ذلك: كان الله ولم يكن شيء غيره. والقضية الثانية: كان عرشه على الماء. والقضية الثالثة: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى كتب في الذِّكر كلَّ شيءٍ «أيّ: في محل الذِّكر؛ أي: اللوح المحفوظ». والقضية الرابعة: أنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى خلق السماوات والأرض [1].

فقد قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأهل اليمن: «كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذِّكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض» [2].

وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٠].

فالقرآن الكريم من طريقته أن يتخذ الكون كله معرضاً لآيات الإيمان ودلائله، وصفحة مفتوحة للحواس والقلوب، تبحث فيها عن آيات الله، وترى دلائل وجوده ووحدانيته، وصدق وعده ووعيده، ومشاهد الكون وظواهره، حاضرة أبداً لا تغيب

---

(١) قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل، عبد الحليم محمود، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) قصة الخلق، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٤.

عن إنسان، ولكنها تفقد جدَّتها في نفوس الناس بطول الألفة، ويضعف إيقاعها على قلوب البشر بطول التكرار، فيردُّهم القرآن الكريم إلى تلك الروعة الغامرة، وإلى تلك الآيات الباهرة، بتوجيه الموحي، المحيي للمشاهد والظواهر في القلوب والضمائر، ويثير تطلُّعَهم وانتباههم إلى أسرارها وآثارها، ويجعل منها دلائله وبراهينه التي تراها الأبصار وتتأثر بها المشاعر، ولا يتخذ طرق الجدل الذهني البارد، والقضايا المنطقية التي لا حياة فيها ولا حركة، التي وفدت على التفكير الإسلامي من خارجه فظلَّت غريبة عليه، وفي القرآن المثل والمنهج والطريق [1].

- ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾: والسير في الأرض يفتح العين والقلب على المشاهد الجديدة التي لم تألفها العين ولم يملَّها القلب، وهي لفتة عميقة إلى حقيقةٍ دقيقةٍ، وهي أنَّ الإنسان ليعيش في المكان الذي ألفه فلا يكاد ينتبه إلى شيءٍ من مشاهده أو عجائبه، حتى إذا سافر وتنقل وساح استيقظ حسُّه وقلبه إلى كل مشهد، وإلى كل مظهر في الأرض الجديدة، مما كان يمرُّ على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفات ولا انتباه، وربما عاد إلى موطنه بحسٍّ جديد وروح جديدٍ ليبحث ويتأمل ويعجب بما لم يكن يهتم به قبل سفره وغيبته، وعادت مشاهد موطنه وعجائبه تنطق له بعدما كان غافلاً عن حديثها، أو كانت لا تفصح له بشيء ولا تناجيه، فسبحان منزل هذا القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النفوس [2].

- ﴿فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾: إن التعبير هنا بلفظ الماضي «كيف بدأ الخلق»، بعد الأمر بالسير في الأرض لينظروا كيف بدأ الخلق، يثير في النفس خاطراً معينـاً؛ ترى هنالك في الأرض ما يدل على نشأة الحياة الأولى وكيفية بدء الخليقة فيها، كالحفريات التي يتتبعها بعض العلماء اليوم ليعرفوا منها خط الحياة؛ كيف

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق، القاهرة، ط ١٧، ١٤١٢، ٥/ ٢٧٢٩.

(٢) سيد قطب، المرجع نفسه، ٥/ ٢٧٣٠.

نشأت؟ وكيف انتشرت؟ وكيف ارتقت؟ وإن كانوا لم يصلوا إلى شيء في معرفة سر الحياة: ما هي؟ ومن أين جاءت إلى الأرض؟ وكيف وجد فيها أول كائن حي؟ ويكون ذلك توجيهاً من الله للبحث عن نشأة الحياة الأولى والاستدلال به عند معرفتها على النشأة الآخرة.

ويقوم بجانب هذا الخاطر خاطر آخر؛ ذلك أن المخاطَبين بهذه الآية أول مرة لم يكونوا مؤهلين لمثل هذا البحث العلمي الذي نشأ حديثاً، فلم يكونوا بمستطيعين يومئذٍ أن يصلوا من ورائه إلى الحقيقة المقصودة به -لو كان ذلك هو المقصود- فلا بد أن القرآن كان يطلب منهم أمراً آخرَ داخلاً في مقدورهم، يحصلون منه على ما ييسر لهم تصور النشأة الآخرة، ويكون المطلوب حينئذ أن ينظروا كيف تبدأ الحياة في النبات والحيوان والإنسان في كل مكان؛ ويكون السير في الأرض -كما أسلفنا- لتنبيه الحواس والمشاعر برؤية المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التأمُّل والتدبُّر في آثار قدرة الله على إنشاء الحياة التي تبرز في كل لحظةٍ من لحظات الليل والنهار.

وهناك احتمال أهم يتماشى مع طبيعة هذا القرآن؛ وهو أنه يوجه توجيهاته التي تناسب حياة الناس في أجيالهم جميعاً، ومستوياتهم جميعاً، وملابسات حياتهم جميعاً، ووسائلهم جميعاً، ليأخذ كل منها بما تؤهله له ظروف حياته ومقدراته، ويبقى فيها امتداد يصلح لقيادة الحياة ونموها أبداً، ومن ثم لا يكون هناك تعارض بين الخاطرين، هذا أقرب وأولى.

-﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾: يبدأ الحياة ويعيدها بهذه القدرة المطلقة التي لا تتقيد بتصورات البشر القاصرة، وما يحسبونه قوانين يقيسون عليها الممكن وغير الممكن بما يعرفونه من تجاربهم المحدودة ومن قدرة الله على كل شيء [١].

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٣٠.

وقال تعالى: ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْدًا عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٤]. وقوله: ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا إِنَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ [سورة يونس: ٤].

أولاً: بداية الخلق ليست غامضة:

بداية الخلق ليس بداية غامضة أو هلامية كما يصوّرها الفكر الغربي المادي الحديث، الذي يتيه في شعاب من التجارب والنظريات المتناقضة في كثير من الأحيان، وما زال المفكرون الغربيون وعلماء الفيزياء والفلك في حيرة من أمرهم في مسألة تحديد بداية الخلق ونشأة الكون، بل لقد أفضت بهم تلك الحيرة إلى الإلحاد في التصور العام الشائع الآن بين المشتغلين بالعلوم الطبيعية -كما يقول جعفر شيخ إدريس- هو مع الأسف تصور مادي إلحادي؛ يفترض أنه لا واقع إلا الواقع المادي، وأن الحقائق إنما هي الحقائق المادية، وأن الكون مكتفٍ بنفسه، غني عن أيِّ شيءٍ خارجي[1].

ولذا جاء تفسير بداية خلق الإنسان بعيداً عن الدين، وجاء تبعاً لذلك الفكر الاجتماعي والتربوي الإنساني منطلقاً من هذه النظرية المادية الملحدة التي ترفض الدين والإيمان بالله وبما جاء عن الله في تفسير سلوك الإنسان، وارتباطه بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر، وهذا يؤكد ما سبق ذكره من أهمية الحديث عن قصة الخلق وارتباطها بكثير من القضايا الكبرى في عقيدة المسلم وحياته[2].

---

(١) الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط ١، ٢٠٠١، ص ١٥.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٥.

- الله هو الأول: فأول تلك العالم حقيقة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الأول، فهو الأول بلا ابتداء، وهو الأول فليس قبله شيء، كما قال سبحانه: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: ٣]. وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: (اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء...) [١].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما الغرض هنا أن الله سبحانه لما كان هو الأول الذي خلق الكائنات، والآخر الذي إليه تصير الحادثات، فهو الأصل الجامع؛ فالعلم به أصل كل علم وجامعه، وذكره أصل كل كلام وجامعه، والعمل له أصل كل عمل وجامعه، وليس للخلق صلاح إلا في معرفة ربهم وعبادته، فهو سبحانه هو الأول دون بداية، فلا يُسأل متى ولا كيف [٢]، ولذلك قال ابن جرير الطبري في تفسيره: هو الأول قبل كل شيء بغير حد [٣].

ويقول الشيخ السعدي: الأول: يدل على أن كل ما سواه حادث كائن بعد أن لم يكن، ويجب على العبد أن يلحظ فضل ربه في كل نعمة دينية أو دنيوية؛ إذ السبب والمسبب منه تعالى [٤].

- وقد اقترن اسم الأول باسمه الآخر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ مرة واحدة في القرآن؛ في قوله تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: ٣].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب: ما يقوله عند النوم، رقم: (٢٧١٣).

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٥.

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٢٧/ ١٢٤.

(٤) شرح أسماء الله الحسنى، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة النورة، العدد ١١٢، السنة ٣٣، ١٤٢١هـ، ص ١٦٩.

- وفي الحديث الشريف عن عائشة أم المؤمنين قول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللهمّ أنتَ الأوّلُ الذي ليسَ قبلكَ شيء، وأنتَ الآخرُ الذي ليسَ بعدكَ شيء، وأنتَ الظاهرُ فليسَ فوقكَ شيء، وأنت الباطنُ فليسَ دونكَ شيء اقْضِ عنّا الديْنَ وأغنِنا من الفقرِ»[1]، قال الخطابي: «الآخر» هو الباقي بعد فناء الخلق، وليس معنى «الآخر» ما له انتهاء، كما ليس معنى «الأول» ما له ابتداء، وقال البيهقي: «الآخر» هو الذي لا انتهاء لوجوده، وقال الطبري: «الآخر» بعد كل شيء بغير نهاية [2].

وأحسن التعريفات وأكملها ما فسّره أعرف البشر بالله عَزَّوَجَلَّ سيدنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ وذلك في قوله: (وأنت الآخر فليس بعدك شيء) [3].

ومن آثار الإيمان بهذين الاسمين؛ يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فعبوديته باسمه «الأَول» تقتضي التجرُّد من مطالعة الأسباب والوقوف عليها والالتفات إِليها، وتجريد النظر إِلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأَنه هو المبتدئ بالإِحسان من غير وسيلة من العبد، إِذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وأَيُّ وسيلة كانت هناك؟! وإنما هو عدمٌ محضٌ، وقد أَتى عليه حينٌ من الدهر لم يكن شيئًا مذكوراً، فمنه سبحانه الإِعداد ومنه الإِمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده.

فمن نزَّل اسمه «الأَول» على هذا المعنى أَوجب له فقراً خاصًا وعبودية خاصة، وعبوديته باسمه «الآخر» تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب والوقوف معها، فإنها تعدم لا محالة وتنقضي بالآخرية، ويبقى الدائم الباقي بعدها، فالتعلُّق بها تعلقٌ بما يُعدَم وينقضي، والتعلق بـ«الآخر» سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ تعلُّقٌ بالحي

(١) تفسير القرآن، ابن كثير، ٨/ ٣١.

(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص ١٦٨.

(٣) تفسير القرآن، ابن كثير، المصدر السابق، ٨/ ٣١.

الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أَن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به، فتأمل عبودية هذين الاسمين وما يوجبانه من صحة الاضطرار إِلى الله وحده ودوام الفقر إِليه دون كل شيءٍ سواه، وأَن الأَمر ابتدأَ منه وإِليه يرجع، فهو المبتدئ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإِليه تنتهي الأَسباب والوسائل فهو أَول كل شيء وآخره، وكما أَنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له، ولا فلاح، ولا كمال، إِلا بأَن يكون وحده غايته، ونهايته، ومقصوده، فهو الأَول الذي ابتدأَت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إِليه عبوديتها وإِرادتها ومحبتها، فليس وراءَ الله شيء يُقصد ويُعبد ويُتأَله، كما أَنه ليس قبله شيء يخلُق ويبرأَ، فكما كان واحداً في إِيجادك فاجعله واحداً في تأَلهك وعبوديتك، وكما ابتدأ وجودك وخلقك منه فاجعله نهاية حبك وإِرادتك وتأَلهك إِليه لتصحّ لك عبوديته باسمه «الأَول والآخر»، وأَكثر الخلق تعبدوا له باسمه «الأَول»، وإِنما الشأْن في التعبد له باسمه «الآخر»؛ فهذه عبودية الرسل وأَتباعهم، فهو رب العالمين وإِله المرسلين سبحانه وبحمده [١].

ومن أسرار اقتران اسمَي الجلالة: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾، فيقول ابن القيم: قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى﴾ [سورة محمد: ١٧]، فهدَاهم أولاً فاهتدوا، فزادهم هدى ثانيـًا، وهذا من سر اسميه: ﴿الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ﴾؛ فهو المعد، وهو الممد، ومنه السبب والمسبَّب، وهو الذي يعيذ من نفسه بنفسه. كما قال أعرف الخلق به: (وأعوذ بك منك) [٢].

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين، ابن القيم، مرجع سابق، ص ٢٠-٢١.

(٢) صحيح مسلم، كتاب الصلاة، باب: ما يقال في الركوع والسجود، رقم: ٤٨٦.

ويقول أيضـًا: منه المبدأ وإليه المعاد، وهو الأول والآخر: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [سورة النجم: ٤٢][1].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: والغايات والنهايات كلها إليه تنتهي: ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [سورة النجم: ٤٢]، فانتهت إليه الغايات والنهايات، وليس له سبحانه غاية ولا نهاية، لا في وجوده ولا في مزيد جوده؛ إذ هو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و»الآخر» الذي ليس بعده شيء، ولا نهاية لحمده وعطائه، بل كلما ازداد له العبد شكراً زاده فضلاً، وكلما ازداد له طاعة زاده لمجده مثوبة، وكلما ازداد منه قربـًا لاح له من جلاله وعظمته ما لم يشاهده قبل ذلك، وهكذا أبداً لا يقف على غاية ولا نهاية، ولهذا جاء أن أهل الجنة في مزيدٍ دائمٍ بلا انتهاء، فإن نعيمهم متصل ممن لا نهاية لفضله ولا لعطائه، ولا لمزيده ولا لأوصافه، فتبارك الله ذو الجلال والإكرام: ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِنْ نَفَادٍ﴾ [سورة ص: ٥٤]. وفي الحديث القدسي: (يا عبادي لو أن أوَّلكم وآخركم وإنسكم وجنَّكم قاموا في صعيد واحد فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته: ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر)[2].

ومن تلك المعالم ما قرَّرته أول آية في سورة الفاتحة، تلك السورة العظيمة التي يكررها المسلم في كل ركعة من صلاته، ركنـًا لا تصح صلاته بدونه، إذ حدد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في قوله: ﴿الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِيْنَ﴾ [سورة الفاتحة: ٢] حدد الوجود في شيئين؛ ذاته الجليلة سبحانه، وخلقه، فهو الربُّ وما سواه مربوب، إذ معنى «العالمين»: ما سوى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العالَمون جمع عالَم، وهو كل موجود سوى الله تعالى.

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٩٩١، ١/ ١٤٣.

(٢) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب: تحريم الظلم، رقم: ٢٥٧٧. وانظر: ابن القيم، مدارج السالكين، ٢/ ٢٦٨.

ورجحه القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: لأنه شامل لكل مخلوق موجود، دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [سورة الشعراء: ٢٣٢٤].

وليس في الوجود شيء غير الخالق والمخلوق، فلا قوة فوق قوة الله، ولا إله بحق غير الله سبحانه: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٢٢]. كما أنه لا شيء في الوجود خارج عن هذه العالمية المربوبة لله عَزَّوَجَلَّ، فالكل تحت تصرُّفه وملكه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس: ٦١][١].

ويبين الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى معنى قوله: «رب العالمين»، فيقول: وربوبيته للعالم تتضمَّن تصرفه فيه، وتدبيره له، ونفاذ أمره كل وقت فيه، وكونه معه كل ساعة في شأن؛ يخلق ويرزق، ويميت ويحيي، ويخفض ويرفع، ويعطي ويمنع، ويعز ويذل، ويصرف الأمور بمشيئته وإرادته، وإنكار ذلك إنكار لربوبيته وإلهيته وملكه[٢].

ويتحدث رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى عما يشاهده العبد من اسمه سبحانه «رب العالمين»، فيقول: وشاهد من ذكر اسمه «رب العالمين» قيوماً قام بنفسه وقام به كل شيء، فهو قائم على كل نفس بخيرها وشرها، قد استوى على عرشه وتفرَّد بتدبير ملكه فالتدبير كله بيديه، ومصير الأمور كلها إليه، فمراسيم التدبيرات نازلة من عنده على أيدي ملائكته؛ بالعطاء والمنع، والخفض والرفع، والإحياء والإماتة، والتوبة

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧.

(٢) الصواعق المرسلة، ابن القيم، مرجع سابق، ٤/ ١٢٢٣.

والعزل، والقبض والبسط، وكشف الكروب وإغاثة الملهوفين وإجابة المضطرين: ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [سورة الرحمن: ٢٩].

لا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، ولا معقب لحكمه، ولا راد لأمره ولا مبدل لكلماته، تعرج الملائكة والروح إليه، وتُعرَض الأعمال أول النهار وآخره عليه، فيقدر المقادير ويوقت المواقيت ثم يسوق المقادير إلى مواقيتها، قائماً بتدبير ذلك كله، وحفظه ومصالحه [١].

وقد امتدح الله عَزَّوَجَلَّ نفسه بأنه ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾. والعالمون جمع عالم، وكل ما سوى الله فهو عالم، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة: ٢] والنصوص المعرّفة بأنه رب العالمين كثيرة جداً، كما مدح نفسه بأن رب كل شيء، كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة الأنعام: ١٦٤]. وإن الله عَزَّوَجَلَّ ربُّ كل شيء، وخالقه، ومليكه، والقادر عليه، والمتصرف في جميع أموره، وبهذا فإنه لا يخرج شيء عن ربوبيته، وكل من في السماوات والأرض عبدٌ له في قبضته وتحت قهره؛ لأن أحداً لا يدّعي أنه أو غيره من المخلوقين هو الخالق البارئ المحيي المميت القادر على كل شيء، والمتصرف في كل شيء [٢]، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس: ٣١].

---

(١) الصلاة وحكم تاركها، أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٤م، ص ١٦٩-١٧٠.

(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص ٩١.

١ - الله (عَزَّوَجَلَّ) يتحدّى الملحدين:

أقام الله عَزَّوَجَلَّ الحجَّة العقلية الدامغة على الملحدين والمشركين، وتحدّى عقولهم وكل قواهم في نفي الإلحاد وفي نفي الشريك؛ وذلك من خلال تقرير مبدأ الخلق في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٧].

وعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [سورة الطور: ٣٥-٣٧] كاد قلبي أن يطير.

فهذه الآية تنفي مبدأ الإلحاد من خلال الإلزام بوجود خالق، إذ إنهم لم يُخلقوا من غير خالق، فكل مخلوق له خالق [١]. ففي قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ بيان واضح بأن وجودهم من غير شيء أمرٌ ينكره منطق الفطرة ابتداءً، ولا يحتاج إلى جدل كثير أو قليل، أما أن يكونوا هم الخالقين لأنفسهم فأمر لم يدَّعوه ولا يدَّعيه مخلوق.

وإذا كان هذا الفرضان لا يقومان بحكم منطق الفطرة فإنه لا تبقى إلا الحقيقة التي يقولها القرآن؛ وهي أنهم جميعاً من خلق الله الواحد الذي لا يشاركه أحد في الخلق والإنشاء، فلا يجوز أن يشاركه أحد في الربوبية والعبادة، وهو منطق واضح وبسيط.

كذلك يواجههم بوجود السماوات والأرض حيالهم فهل هم خلقوها؟ فإنها لم تخلق نفسها بطبيعة الحال كما أنهم لم يخلقوا أنفسهم: ﴿أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧٠.

وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾. وهم -ولا أي عقل يحتكم إلى منطق الفطرة- لا يقولون إن السماوات والأرض خلقت نفسها، أو خُلقت من غير خالق، وهم كذلك لا يدَّعون أنهم خلقوها، وهي قائمة حيالهم سؤالاً حياً يتطلب جواباً على وجوده، قد كانوا إذا سئلوا عمن خلق السماوات والأرض قالوا الله، ولكن هذه الحقيقة لم تكن تتضح في إدراكهم إلى درجة اليقين الذي تنشأ آثاره في القلب، ويحركه إلى اعتقاد واضح دقيق: ﴿بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾.

ثم يهبط بهم درجة عن درجة الخلق والإبداع لأنفسهم أو للسماوات والأرض فيسألهم: هل هم يملكون خزائن الله، ويسيطرون على القبض والبسط، والضر والنفع؟

- ﴿أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾: وإذا لم يكونوا كذلك ولم يدَّعوا هذه الدعوى فمن ذا يملك الخزائن؟ ومن ذا يسيطر على مقاليد الأمور؟ القرآن يقول: إنه الله القابض الباسط، المدبر المتصرف، وهذا هو التفسير الوحيد لما يجري في الكون من قبض وبسط وتصريف وتدبير، بعد انتفاء أن يكونوا هم المالكين للخزائن المسيطرين على تصريف الأمور.

ثم يهبط بهم درجة أخرى فيسألهم إن كانت لهم وسيلة للاستماع إلى مصدر التنزيل: ﴿أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُوْنَ فِيْهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ﴾ [الطور: ٣٨].

إن محمداً صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول لهم إنه رسول يوحى إليه، وإن هذا القرآن يتنزل عليه من الملأ الأعلى، وهم يكذّبونه فيما يقول، فهل لهم سلّم يستمعون فيه فيعلمون أن محمداً لا يوحى إليه، وأن الحق غير ما يقول؟ ﴿فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِيْنٍ﴾: أي ببرهان قوي يحمل في ذاته سلطاناً على النفوس يُلجئها إلى

التصديق، وفي هذا تلميح إلى سلطان القرآن الذي يطالعهم في آياته وحججه، وهم يكابرون فيها ويعاندون [١].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ۝١ الَّذِى لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ۝٢ وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا﴾ [سورة الفرقان: ١-٣].

وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة لقمان: ١١].

كما جعل الله التذكير بمبدأ الخلق باباً من أبواب مقتضيات الإيمان به سبحانه وتوحيده في العبادة، وأنه المستحق لذلك وحده دون ما سواه، وذلك في أكثر من آية في كتاب الله؛ مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١]، وقوله تعالى: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا ۝١٣ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ [سورة نوح: ١٣١٤]، إلى غير ذلك من الآيات المبثوثة في القرآن الكريم [٢].

٢- القضاء على وسوسة الشيطان في مسألة الخلق:

التفكير في مبدأ الخلق دون هديٍ من الوحي مدخل من مداخل الشيطان ووسوسته، والشيطان -لعنه الله- لا يترك سبيلاً للتشويش على ابن آدم إلا سلكه، فمن ذلك ما بيّنه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما يعرض للإنسان في مسألة الخلق من

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٦/ ٣٤٠٠.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٨.

وساوس الشيطان التي تجرُّه للسؤال عمن خلق الله -تعالى الله عن ذلك- وما ينبغي له حينما يعرض له ذلك الأمر. فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله ﷺ: (لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟). قال ابن حجر: وفي رواية بدء الخلق: (من خلق ربك؟)، وزاد: (فإذا بلغه فليستعذ به ولينتهِ)، وفي لفظ لمسلم: (فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله)، وزاد في أخرى: (ورسله)، ولأبي داوُد والنسائي من الزيادة؛ فليقل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ١-٤]، ثم ليتفل عن يساره، ثم ليستعذ، وفي رواية أخرى: (فإذا وجد أحدكم ذلك فليقل: آمنت بالله ورسوله، فإن ذلك يذهب عنه).

وهذه من الشبه التي يلقيها الشيطان على ابن آدم ولا يكاد يسلم من التعرّض لها أحد، ولذا نبه لها النبي ﷺ حتى لا يقع فيها المسلم، وبيّن طريق التخلص منها، وأنها وسوسة من الشيطان للتشويش على إيمانه، وجرِّه إلى دوامة من الوهم [(١)].

روى أبو داوُد عن أبي هريرة قال: جاء ناس إلى النبي ﷺ من أصحابه فقالوا: يا رسول الله إنا نجد في أنفسنا الشيء يعظم أن نتكلم به، ما نحب أن لنا الدنيا وأنّا تكلمنا به فقال: (أوجدتموه؟ ذلك صريح الإيمان)[(٢)].

ولابن أبي شيبة من حديث ابن عباس: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إني أحدث نفسي بالأمر لأن أكون حُمَمَةً أحب إليَّ من أن أتكلم به، فقال: (الحمد لله الذي رد أمره إلى الوسوسة).

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٩.

(٢) سنن أبي داود نقلًا عن قصة الخلق، ص ٢٠.

ثم نقل الخطابي: المراد بصريح الإيمان هو الذي يعظم في نفوسهم إن تكلَّموا به، ويمنعهم من قبول ما يلقي الشيطان، فلولا ذلك لم يتعاظم في أنفسهم حتى أنكروه، وليس المراد أن الوسوسة نفسها صريح الإيمان، بل هي من قبل الشيطان وكيده [١].

وكذلك بيّن ابن عباس كيفية علاج الوسوسة الشيطانية، فعن أبي زميل قال: سألت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فقلت: ما شيء أجده في صدري؟ قال ما هو؟ قال: قلت: والله لا أتكلم به، قال: فقال لي: أشيء من شك؟ قلت: بلى. فقال لي: ما نجا من ذلك أحد حتى أنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ﴾ [سورة يونس: ٩٤]. قال: فقال لي: فإذا وجدت في نفسك شيئًا فقل: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الحديد: ٣][٢].

ويُعلِّق ابن القيم على هذا الأثر فيقول: فأرشدهم بهذه الآية إلى بطلان التسلسل الباطل ببديهة العقل، وأن سلسلة المخلوقات في ابتدائها تنتهي إلى أول ليس قبله شيء، كما تنتهي في آخرها إلى آخر ليس بعده شيء، كما أن ظهوره هو العلو الذي ليس فوقه شيء، وبطونه هو الإحاطة التي لا يكون دونه فيها شيء، ولو كان قبله شيء يكون مؤثراً فيه لكان ذلك هو «الرب» الخلاق، ولا بد أن ينتهي الأمر إلى خالقٍ غير مخلوقٍ، وغني عن غيره، وكل شيء فقير إليه، قائم بنفسه وكل شيء قائم به، موجود بذاته وكل شيء موجود به، قديم لا أول له، فوجوده بعد عدمه باقٍ بذاته، وبقاء كل شيء به، فهو «الأول» الذي ليس قبله شيء، و»الآخر» الذي ليس بعده شيء، «الظاهر» الذي ليس فوقه شيء، «الباطن» الذي ليس دونه شيء [٣].

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٠.

(٢) ولله الأسماء الحسنى، الجليل، مرجع سابق، ص ١٨٠.

(٣) الجليل، مرجع سابق، ص ١٨١.

٣-الله عَزَّوَجَلَّ لم يزل خلّاقـًا وخلقه دليل على المعاد:

ومن معالم هذه القصة الكبرى أن الله سبحانه لم يزل خلاقـًا، فصفة الخلق لله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ صفة ذاتية أزلية، فهو لم يزل خالقـًا عليمـًا، وليس الخلق مرحلة انتهت أطوارها وتوقف سيرها، فما يحدث في الكون من فعل أو تقدير أو تدبير أو تغيير أو تبديل، أوتصريف لشأن من شؤونه؛ من ليل ونهار، أو صيف أو شتاء، أو حياة أو موت، أو عز أو ذل، أو نصر أو هزيمة، فهو بأمر الله وتدبيره، قال ابن السعدي في تفسير قوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٠]: فإنكم ستجدون أممـًا من الآدميين لا تزال توجد شيئـًا فشيئـًا، وتجدون النبات والأشجار كيف تحدث، وقتـًا بعد وقت، وتجدون السحاب والرياح ونحوها، مستمرة في تجددها، بل الخلق دائمـًا في بدء وإعادة (١).

كما جعل سبحانه مبدأ الخلق دليلاً على قدرته تعالى على إعادته فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم: ٢٧]. وقال: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة العنكبوت: ٢٠].

فالقادر على البداية أقدر على الإعادة، والإعادة على مثال سابق أيسر من البداية بغير مثال (٢)، وفي حديث أبي هريرة قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: (ويقول الله تعالى كذّبني ابن آدم وما ينبغي له أن يكذبني، وشتمني وما ينبغي له أن يشتمني، فأما تكذيبه إياي فقوله: لن يعيدني كما بدأني، وليس أول الخلق بأهون

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢١. تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مؤسسة الرسالة، ط ١، ٢٠٠٠، ص ٥٦٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٢.

عليَّ من إعادته، وأما شتمه إياي فقوله: اتخذ الله ولداً، وأنا الله الأحد الصمد، لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد) [(١)].

ثانيـًا: إثبات صفات الكمال لله تعالى:

ورد في القرآن الكريم وصف الله بصفات الكمال، وأنه المنفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ۝١ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص: ١-٤]، إذ وصف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في هذه السورة نفسه بأنه أحد صمد، فهذان الوصفان يدلان على اتصاف الله بغاية الكمال المطلق[(٢)].

وجاء معنى الصمد: أنه المستغني عن كل أحد، والمحتاج إليه كل أحد [(٣)].

ويدل هذا المعنى للصمد على الإثبات والتنزيه؛ فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يُعمَد إليه، أي: يَرجِع إليه كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فهو القادر على كل شيء، والفعال لما يريد، والذي بيده الخلق والأمر والجزاء، وما من قوة لغيره تعالى إلا بهيمنة منه، إذا شاء أبقاها ومتى شاء سلبها، فالمرجع والمرد إليه سبحانه [(٤)].

وأما التنزيه: فوصفه تعالى بأنه غنيٌّ عن كل شيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه؛ لا في وجوده فإنه الأول الذي ليس مثله شيء، وهو الذي لم يلد ولم يولد،

---

(١) البخاري نقلًا عن قصة الخلق، ص ٢٢.

(٢) إثبات علو الله على خلقه، أبو الحسن خوجلي إبراهيم، ص ٢٨. بتصرف. لا تتوفر معلومات أخرى.

(٣) تقريب التهذيب، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط ١، ١٩٨٦، ٢٠/ ٢٤٥.

(٤) إثبات علو الله على خلقه، إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٩.

ولا في بقائه فإنه الذي يُطعِم ولا يُطعَم، ولا في أفعاله فلا شريك له ولا ظهير [١]. ويدل وصفه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بأنه أحد صمد على اتصافه بالكمال المطلق، كما أن «أحد صمد» يدلَّان على معنى آخر هو نفي الولادة والتولُّد عن الله سبحانه، فإن الصمد جاء في بعض الأقوال بأنه الذي لا جوف له، ولا أحشاء، فلا يأكل ولا يشرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤].

وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ ۝ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦- ٥٨]. فإن الأحد هو الذي لا كُفُؤ له ولا نظير، فيمتنع أن تكون له صاحبة، والتولد إنما يكون من شيئين:

قال تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة الأنعام: ١٠١]، وفي قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [سورة الإخلاص: ٤]، وفي هذا نفي عن المخلوق مكافأته أو مماثلته للخالق، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١]، أي: يعدلون به غيره، فيجعلون له من خلقه عدلاً ونظيراً، ومثال هذا قوله تعالى: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَاعْبُدْهُ وَاصْطَبِرْ لِعِبَادَتِهِ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: ٦٥]، أي: لا شيء يساميه، لا ندَّ ولا عدل، ولا نظير له يساويه، فأنكر

---

(١) إبراهيم، المرجع نفسه، ص. ص ٢٨-٢٩.

التشبيه والتمثيل، وبهذا يتبين لنا أن تنزيهه سبحانه عن العيوب والنقائص واجب لذاته، كما دلت على ذلك سورة الإخلاص [١].

﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الصافات: ١٨٠-١٨٢].

ثالثًا: الله يُعرّفُ نفسه لخلقه في آية الكرسي:

تعد آية الكرسي أفضل آية في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّة، وناطق بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه [٢].

وهذه الآية تملأ القلب مهابةً من الله وعظمته وجلاله وكماله، فهي تدل على أن الله تعالى منفرد بالألوهية والسلطان والقدرة، قائم على تدبير الكائنات في كل لحظة، لا يغفل عن شيء في السماوات والأرض [٣].

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥].

وإليك شرحَ هذه الآية العظيمة التي تحدَّث الله فيها عن نفسه عَزَّوَجَلَّ.

---

(١) إثبات علو الله على خلقه، إبراهيم، مرجع سابق، ص ٢٩، بتصرف.

(٢) أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥، ٢٠٠٣، ١/ ٢٤٥.

(٣) التفسير المنير، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨، ٣/ ١٨.

- «اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ»:

أي: لا خالق ولا معبود بحق وصدق إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وكل ما سواه باطل أصلاً، وهذه الآية أصل في التوحيد؛ واحد ليس له شريك، ولا نظير، ولا وزير، ولا مشير، ومعناه: النهي على أن يعبد شيء غير الله [١].

فهو الإله الحق الذي نتمنى أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأليه له تعالى، لكماله وكمال صفاته، وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقاً أن يكون عبداً لربه ممتثلاً أوامره، متجنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبَّراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة [٢].

- «اللَّهُ»: هو اسم دال على ذات الله تعالى، رب العالمين، الإله المعبود حقاً، المتّصف بجميع الكمالات المطلقة التي لا تعد ولا تحصى ولا تحد ولا تستنقص، والمتنزه عن جميع العيوب والآفات، ولم يتسمَّ بهذا الاسم غيره سبحانه [٣].

- «اللَّهُ»: هذا الاسم الجليل، تعلّقت به جميع العوالم بذاتها وبأنواعها قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: ١٥]. فجميع العباد يقولون: يا الله، دعاءً أو سؤالاً، نداءً أو ذكراً أو مناجاة [٤].

- «اللَّهُ»: هذا الاسم هو جامع الأسماء الإلهية، الظاهرة والباطنة على الوجه الذي لا نهاية له كما هو أهله سبحانه، لأن أسماءه تعالى هي على حسب صفات

---

(١) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٧٨.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٤/ ١٨١٠.

(٣) المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، محمد علي الصلابي، ط ١، ٢٠١٩، ص ٤٣٦.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٤/ ١٨١٠.

كماله، وصفات كماله ما لها نهاية، فأسماؤه ما لها نهاية، ولهذا الاسم الجليل خصائص وفضائل كثيرة مذكورة في كتب المطولات [(١)].

إن معرفة الله تعالى أجلُّ المعارف، وإرادة وجهه أجلُّ المقاصد، وعبادته أشرف الأعمال، والثناء عليه بأسمائه وصفاته ومدحه وتمجيده أشرف الأقوال [(٢)].

- «الْحَيُّ الْقَيّومُ»:

مدَح الله نفسه بصفتين جليلتين جميلتين فقال: «الحي القيّوم»؛ «الحي»: الذي لا يموت، الحي من صفة الله تعالى، وهو الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفًا، لم تحدث له الحياة بعد موت، ولا يعتريه الموت بعد حياة، وسائر الأحياء سواء؛ يعتريهم الموت والعدم، فكل شيء هالك إلا وجهه سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ [(٣)].
«الحي»: من له الحياة الكاملة المستلزمة لجميع «صفات الذات»؛ كالسمع والبصر والعلم والقدرة، ونحو ذلك [(٤)].

والحياة التي وُصِف بها الإله الواحد هي «الحياة الذاتية» التي لم تأتِ من مصدر آخر كحياة الخلائق المكسوبة الموهوبة لها من الخالق، ومن ثم يتفرد الله سبحانه بالحياة على هذا المعنى، كما أنها هي الحياة الأزلية الأبدية التي لا تبدأ من مبدأ ولا تنتهي إلى نهاية [(٥)].

---

(١) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٩، ص ٧٩.

(٢) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد عزيز شمس، دار عالم الفوائد، مكة المكرمة، ط ١، ١٤٣٢.

(٣) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العودة، مرجع سابق، ص ٨٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٣/ ١١٢.

(٥) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ١/ ٢٦٦.

«القيوم» أي: دائم القيام بجميع شؤون الخلق، وهو القائم على كل شيء، فالله عَزَّوَجَلَّ قائم بتدبير خلقه في إيجادهم وأرزاقهم وجميع ما يحتاجون إليه، و»القيوم»: هو الذي قام بنفسه وقام بغيره، وذلك مستلزم لجميع الأفعال التي اتصف بها رب العالمين من فعله ما يشاء؛ من الاستواء والنزول والكلام والقول والخلق والرزق والإماتة والإحياء، وسائر أنواع التدبير، كل ذلك داخل في قيومية الباري (١).

إن صفة «الحياة» متضمنة لجميع صفات الكمال مستلزمة لها، وصفة «القيومية» متضمنة لجميع صفات الأفعال، ولهذا كان اسم الله الأعظم الذي إذا دُعي به أجاب وإذا سُئل به أعطى هو اسم «الحي القيوم»، ويكون التوسّل إلى الرب تعالى بأحب الأشياء؛ وهي أسماؤه وصفاته، ومن أجمعها لمعاني الأسماء والصفات «الحي القيوم»، والمقصود أن لاسم «الحي القيوم» تأثيراً خاصاً في إجابة الدعوات وكشف الكربات، ولهذا كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا اجتهد في الدعاء قال: يا حيُّ يا قيوم (٢).

- «لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ»:

هذا من تمام حياته وقيوميّته، أنه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ «لا تأخذه سنة ولا نوم». أي: لا يعتريه نعاس ولا نوم؛ لأنه من أعراض البشرية، والله بخلاف ذلك.

- «السِّنة»: ابتداء النعاس، يصير نومـًا، و»النوم» أقوى من السِّنة، وإذا كان ذلك كذلك فإن نفي استيلاء السِّنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال «الحياة» ودوام التدابير، وإثبات لكمال «العلم»، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى لا يدركه خلل ولا يلحقه ملل بحال من الأحوال (٣).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٣/ ١١٢.

(٢) المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٣٨.

(٣) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص ٨٦.

والخلاصة: هذه الجملة مؤكِّدة لما قبلها، مقرِّرة لمعنى الحياة والقيوميَّة على أتم وجه، إذ إنَّ مَن تأخذه السِّنة والنوم يكون ضعيف الحياة، ضعيف القيام بشؤون نفسه وشؤون غيره [١].

- «لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ»:

لما كان الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ دائم القيام في ملكه، وليس لأحد معه فيه شركة، ولا لأحد عليه سلطان، قرَّر عَزَّوَجَلَّ قيوميّته هذه بقوله: «له ما في السماوات وما في الأرض»، أي: جميع من فيهما ملكه، يتصرف وحده بحكمته وقدرته وعنايته [٢]، وجميع عبيده وملكه تحت قهره وسلطانه [٣].

- «مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ»:

أي: ليس لمخلوق -كائناً من كان؛ لا مَلَك مقرَّب ولا نبي مرسل- شفاعة ولا ضراعة عند الله عَزَّوَجَلَّ إلا برضاه وبعد إذنه، فإن «الشفاعة» كلها لله وحده، وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عَزَّوَجَلَّ، وأنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع عنده إلا بإذنٍ له من الله في الشفاعة [٤].

إن الله تعالى لا يشفع عنده أحد بحق ولا إدلال؛ لأن المخلوقات كلها ملكه، ولكن يشفع عنده من أراد هو أن يُظهر كرامته عنده، فيأذن له بأن يشفع فيمن أراد[٥].

---

(١) الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٢) الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٣) المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٣٩.

(٤) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق ص ٩١.

(٥) التحرير والتنوير، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤، ٣/ ٢١.

- «يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ»:

أي: إن الله عَزَّوَجَلَّ عليم بكل ما في السماوات وما في الأرض من شؤون خلقه؛ ماضيها وحاضرها ومستقبلها، ومن أمر الدنيا والآخرة، والمقصود من ذلك: عموم العلم بسائر الكائنات في الأرض وفي السماوات [١].

وإن الله عَزَّوَجَلَّ عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه، حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء، وحركة الذرة في جو السماء، والطير في الهواء والسمك في الماء [٢].

فلا تخفى عليه غائبة في الأرض ولا في السماء ولا ما بينهما، فهو عالم بخفايا وأسرار ملكه ومخلوقاته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ [٣].

- «وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ»:

أي: لا يدركون من العلم أو المعرفة إلا بقدر ما عرَّفهم به أو منه رب العالمين، الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم [٤].

فآتاهم الله من علمه ما شاء، وكما شاء، لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب [٥].

لا يطّلع أحد على شيء من علم الله إلا بمشيئة الله وتعليمه، فما عرفه الإنسان من عالم الغيب، وما عرفه الإنسان من عالم الشهادة وقوانين هذا الكون، وكيفية

---

(١) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص ٩٤.

(٢) المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٣) الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٤٠.

(٤) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص ٩٦.

(٥) الرسالة، محمد بن إدريس الشافعي، المحقق: أحمد شاكر، ١٩٤٠، مكتبة الحلبي، القاهرة، ص ٤٨٥.

تسخيره، لم يكن إلا بمشيئة الله وتعليمه، فهو الذي علّم الإنسان ما لم يعلم، وهو الذي علّم كل شيء ما علم [١].

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدل على سعة علم الله عَزَّوَجَلَّ، وأنه محيط بكل شيء؛ قلَّ أو كثر، صغر أو عظم، كما جاء تحديداً في سورة يونس: ﴿وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس: ٦١].

إن علم الله تعالى محيط بتفاصيل الأمور، متقدمها ومتأخرها، بالظواهر والبواطن، بالغيب والشهادة، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا من العلم مثقال ذرة؛ إلّا ما علّمهم الله تعالى [٢].

- «وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ»:

إن الكرسي هو كناية في الآية عن عظم العلم وشموله واتساعه، وتفسيره بعظم السلطات يتناسب مع قوله تعالى قبل ذلك: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ﴾، ولذلك يصح أن نقول: إن قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ كناية عن عظم قدرته ونفوذ إرادته وواسع علمه وكمال إحاطته، وقد فسر ذلك عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بأن ﴿كُرْسِيُّهُ﴾ علمه؛ هو كناية عن سعة الملك وسعة العلم [٣].

وهذه الصورة هنا تمنح الحقيقة المراد تمثيلها للقلب قوة وعمقاً وثباتاً، فالكرسي يستخدم عادة في معنى الملك، فإذا وسع كرسيه السماوات والأرض فقد

(١) الأساس في التفسير، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط ٦، ١٤٢٤، ١/ ٥٩٦.

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ١/ ١١٢.

(٣) زهرة التفاسير، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي، ٢/ ٩٤٠-٩٤١.

وسعهما سلطانه، وهذه هي الحقيقة من الناحية الذهنية، ولكن الصورة التي ترتسم في الحسِّ من التعبير بالمحسوس أثبت وأمكن [(١)].

تأتي: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ لتقرير ما تضمّنته «الجمل» كلها من عظمة وكبرياء وعلم وقدرة في حق الله عَزَّوَجَلَّ في علاه، ولبيان عظمة خلقه في مخلوقاته المستلزمة عظمة شأنه، أو إظهار سعة ملكه [(٢)].

- «وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا»:

أي: إن الذي خلق ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات كثيرة لا يشق عليه عَزَّوَجَلَّ حفظهما، ولا يعجز عن رعاية ما أوجده فيهما، ولا يثقله تعالى تسيير شؤونهما حسبما قضاه وقدَّره فيهما [(٣)]، فسبحان من تقوم السماء بأمره، وتدور الأرض بوحيه، رفع الجبال وأجرى الأنهار، وحرّك الهواء وشق الحَب وأخرج الثمار، والوجود في قبضته وكل ما فيه إنما إرادته، لا تعصيه سماء، ولا تخرج عن طاعته أرض ولا سحاب[(٤)].

- «وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ»:

أي: الله تعالى فوق خلقه، فلا يعلو إلى مقامه الرفيع أحد، وهو أيضـًا الكبير ذو الهيبة والجلال، المتعالي بعظمته جَلَّجَلَالُهُ على كل عظيم. «العلي»: يفسر بأنه أعلى من غيره قدراً، فهو أحق بصفات الكمال، ويفسر بأنه العالي عليهم بالقهر والغلبة، فيعود إلى أنه القادر عليهم وهم المقدورون، وكان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ١/ ٢٩٠.

(٢) التحرير والتنوير، ابن عاشور، مرجع سابق، ٥/ ١١.

(٣) السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي، العود، مرجع سابق، ص ١١١.

(٤) العود، المرجع نفسه، ص ١٠٢.

يستفتح دعاءه: سبحان ربي العلي الوهاب، فكان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا سجد -أي في صلاته-قال: سبحان ربي الأعلى «ثلاثـًا».

«الْعَظِيمُ»: الذي قد كمل في عظمته[١]، فهو عظيم في ذاته وصفاته، فذاته العليَّة جلَّت عن المشابهة، وهو الخالق القاهر القادر، وهو وحده الإله المعبود بحق، وهو الذي يسبّح كل شيء في الوجود بحمده، فهو العظيم وحده، والمعبود وحده، والمعظَّم وحده، وإذا كانت غواشي الحياة قد أضلت الأكثرين فلم يدروا عظمته في الفانية فستنجلي لهم عظمة ذي الجلال في الباقية [٢].

هذان هما الوصفان الشاملان: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ لكل الأوصاف السابقة، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو العلي العظيم. إذن هذه آية الكرسي، أعظم آية في كتاب الله، كما ورد في بعض الآثار المثبتة في الصحاح، وإنها لتدل على وحدانية الله تعالى بكل شعبها، فقد دلت على وحدانية الألوهية؛ لقوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ووحدانية الخلق والتكوين، فلا خالق مع الله تعالى، ولا إرادة تمنع إرادته، وقد دل على ذلك بأكثر ما في الآية الكريمة؛ كقوله سبحانه: ﴿الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾، وقوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾.

وحدانية الذات والصفات، بمعنى أن الله لا يشبهه شيء أو أحد من خلقه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الشورى: ١١]. وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾، تعالى الله رب العالمين علواً كبيراً، تولانا سبحانه بعنايته وتوفيقه وهدايته [٣].

---

(١) العود، المرجع نفسه، ص ١٠٣.

(٢) زهرة التفاسير، أبو زهرة، مرجع سابق، ٢/ ٩٤٢.

(٣) أبو زهرة، المرجع نفسه، ٢/ ٩٤٢.

رابعـًا: الله غني عن خلقه:

ومن أهم المعالم في هذه القصة العظيمة أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لم يخلق الخلق ليأنس بهم من وحشة، ولا ليستكثر بهم من قلة، ولا ليقوى بهم من ضعف، فهو الغني عن خلقه وهم المفتقرون إليه في كل أحوالهم وهو العزيز الحميد [(١)].

ومن أسماء الله الحسنى «الغني» وقد ذكر في القرآن ثماني عشرة مرة؛ تارة مفرداً، كما قال تعالى: ﴿قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ﴾ [سورة يونس: ٦٨]. وتارة مقرونـًا باسمه «الحميد» -وهو أكثرها-كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: ١٥]، وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة الحديد: ٢٤]. ومرة مقرونـًا باسمه سبحانه «الكريم»، كما في قوله سبحانه: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [سورة النمل: ٤٠]. ومرة مقرونـًا باسمه سبحانه «الحليم»، كما في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٣].

وقد قال الخطابي: «الغني» هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم وهم إليه فقراء محتاجون، كما وصف نفسه تعالى فقال عز من قائل: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ﴾ [سورة محمد: ٣٨].

وقال الشيخ السعدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: ١٥]؛ فهو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق من جميع الوجوه والاعتبارات، لكماله وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيـًا؛ لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقـًا، قادراً، رازقـًا، محسنـًا، فلا يحتاج إلى أحد بوجه من

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٢.

الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاماً، والمغني لخواص خلقه بما أفاض على قلوبهم من المعارف الربانية والحقائق الإيمانية [(١)]، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ذو الغنى المطلق الذي لا يحتاج إلى أحد، وكل أحد محتاج إليه [(٢)].

خامساً: خلق الله الخلق في أوقات متفاوتة:

من معالم قصة الخلق أن الله سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد، ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ٩-١١].

فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ قادر على أن يخلق ذلك كله في أقل من هذه المدة، بل في أقل من طرفة عين، لكن حكمته اقتضت أن يكون الخلق على هذا النسق المتميز في هيئته، المرتب على كيفيته، وفي ذلك من الحكم -لمن تأملها- الشيء الكثير، كما أن خلق الإنسان يمر بأطوار ومراحل؛ النطفة، ثم العلقة، ثم المضغة، ثم تأتي مراحل أخرى في البطن، وبعد خروج الطفل من بطن أمه يمر بمراحل نمو مختلفة، تظهر فيها قدرة الله على الخلق والتدبير، وتظهر فيها حكم كثيرة في حياة الإنسان، وتكوين تجاربه وبنائها، لا يُتَصَّور حصولها بغير ذلك [(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٥/ ٦٢٩.

(٢) الجليل، مرجع سابق، ص ٦٧٧.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٦.

سادسًا: ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق:

من المعالم أن الله سبحانه خلق كل نوع وجنس من الخلق من زوجين، قال سبحانه: ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٤٩]، أيّ جميع المخلوقات أزواج: سماء وأرض، ليل ونهار، شمس وقمر، برٌّ وبحر، ضياء وظلام، إيمان وكفر، موت وحياة، شقاء وسعادة، جنة ونار، حتى الحيوانات والنبات، ولهذا قال تعالى: «لعلكم تذكّرون»، أي لتعلموا أن الخالق واحد لا شريك له [١].

فجعل ثنائية الخلق دلالة على وحدانية الخالق سبحانه، يقول القرطبي: لتعلموا أن خالق الأزواج فرد، فلا يقدر في صفته حركة ولا سكون، ولا ضياء ولا ظلام، ولا قعود ولا قيام، ولا ابتداء ولا انتهاء، إذ هو عَزَّوَجَلَّ وتر «ليس كمثله شيء»[٢].

وقال سبحانه: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يس: ٣٦]، فضرب المثال لذلك بأزواج النبات والبشر، وهذا مما يعلم الناس، ثم ثنَّى بأنه سبحانه جعل الزوجية في الخلق عامة، منه ما يعلمه الناس وما لا يعلمونه، ومن يدري؛ فربما كانت هذه قاعدة الكون كله حتى الجماد، وقد أصبح من المعلومات المتداولة أن الذرة -أصغر ما عرف من أجزاء المادة- مؤلفة من زوجين مختلفين من الإشعاع الكهربائي سالب وموجب يتزاوجان ويتحدان كما شوهد في عالم الفلك والكائنات الأخرى [٣].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٢٣٧.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ٥٣.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٧.

سابعـًا: مظاهر الحكمة في الخلق:

إن الله عَزَّوَجَلَّ ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، فلم يخلق الله الخلق عبثًا ولا لعبـًا، وإنما خلق الخلق جميعه لحكمة، وخلق تفاصيل الخلق لحكم عظيمة يدركها الإنسان في خلقته، وفيما حوله من المخلوقات التي يمتلأ بها الكون؛ من حيوانات، وحشرات، وشجر، ونبات، ومن بحار، وأنهار، وجبال، وسهول، ورياح، وأمطار، وهي حكم متعددة ومتداخلة يؤكد بعضها بعضـًا، ويسوق بعضها بعضـًا في صور من الجلال والإبداع والكمال، وغايتها وحقيقتها تحقيق العبودية لله دون ما سواه، يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الدخان: ٣٨-٣٩].

يخبر سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كمال قدرته، وتمام حكمته، وأنه ما خلق السماوات والأرض لعبـًا ولا لهوًا، ولا سدىً من غير فائدة، وأنه ما خلقهما إلا بالحق، وخلقُهما مشتمل على الحق، وأنه أوجدهما ليعبدوه وحده لا شريك له، وليأمر عباده وينهاهم ويثيبهم ويعاقبهم [١].

وإن الحكمة من أعظم معالم حديث القرآن الكريم والسنة النبوية عن قصة الخلق، فالخلق صفة من صفات الله سبحانه، كما أن أثر هذه الصفة فعل من أفعال الله المنزهة عن العبث واللعب، وإذا تقرر أن كل ما في الكون مخلوق لله سبحانه، من كائنات وما يصدر عنها من أفعال -كما سيأتي مزيد توضيح له في ثنايا هذا الكتاب بإذن الله تعالى- فإن من استقر في نفسه ذلك، وترسَّخ في قرارة قلبه، تنفتح له آفاق عظيمة في تلمُّس أسرار الخلق العظيم، وما يجري فيه من حركة وسكون، وسعادة وبؤس، ورخاء وشدة، وعز وذل، وخيرٍ وشر، وحرب وسلم، وحياة وموت، ونصر وهزيمة.

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، ص ٧١٩.

ولقد قال الله سبحانه في قصة من أكثر القصص إيلاماً وأشدها أذى، تلكم هي قصة الإفك الأثيم الذي افتُري على الطاهرة المصون أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وعن أبيها، قال الله فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [سورة النور: ١١].

قال ابن كثير: أي يا آل أبي بكر ﴿بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ أي: في الدنيا والآخرة، لسان صدق في الدنيا ورفعة منازل في الآخرة، وإظهار شرف لهم باعتناء الله تعالى بعائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، حيث أنزل الله براءتها في القرآن العظيم ﴿الَّذِى لَا يَأْتِيْهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾ [سورة فصلت: ٤٢] الآية، ولهذا لما دخل عليها ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وعنها وهي في سياق الموت قال لها: أبشري فإنك زوجة رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وكان يحبك، ولم يتزوج بكراً غيرك، وأنزل براءتك من السماء[1].

لقد كان هذا الأمر -الذي هو في ظاهره شر-خيراً لآل أبي بكر وللمسلمين من بعدهم، فقد كان شهادة من الله بمنزلة هذه الأسرة الطاهرة، التي تعرضت لكثير من الأذى والتهم الباطلة.

إذ تولى الله الدفاع والذبَّ عنها والشهادة لها بالخيرية، ودفع السوء عنها؛ بما لم يكن للأمة أن تدفعه بقدر ما دفعه القرآن ونافح عنها به، ليس في وقت تنزّل القرآن ووقوع هذه الحادثة الآثمة فحسب، وإنما إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها [2].

وقد تكلم ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ تعالى في موضوع الحكمة كلاماً نفيساً أوضح فيه معالمها وبيَّن فيه أدلتها وأثرها في إيمان العبد بربه، ومعرفته به سبحانه، وأنها من لوازم الإيمان، وردَّ على شُبه نفي الحكمة بأسلوب علمي، استوفى فيه الموضوع من

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٢٨٢.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٤٣.

جوانبه كلها، يقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى: قد دلت أدلة العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة؛ أنه سبحانه حكيم لا يفعل شيئًا عبثًا، ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة لأجلها فعل، كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل، وقد دل كلامه وكلام رسوله على هذا في مواضع لا تكاد تحصى، ولا سبيل إلى استيعاب أفرادها فنذكر بعض أنواعها [(١)].

ومن ثم ذكر -رَحِمَهُ ٱللَّهُ- اثنين وعشرين نوعًا من أنواع الأدلة على إثبات الحكمة؛ من الخلق والأمر، وعقّب على ذلك مبينًا أهمية إثبات الحكمة والإيمان بها في خلق الله وأمره، وخطر إنكارها أو تجاهلها على إيمان العبد وعبوديته لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فيقول في ذلك: وكيف يتوهم ذو فطرة صحيحة خلاف ذلك وهذا الوجود شاهد بحكمته وعنايته بخلقه أتمَّ عناية، وما في مخلوقاته من الحكم والمصالح والمنافع والغايات المطلوبة، والعواقب الحميدة، أعظم من أن يحصره عقل، ويكفي الإنسان بفكره وخلقه وأعضائه ومنافعها وقواه وصفاته وهيأته، فإنه لو استنفد عمره لم يحط علمًا بجميع ما تضمّنه خلقه من الحكم والمنافع على التفصيل، والعالم كله علويه وسفليه بهذه المثابة [(٢)].

ثم قال: وسبحان الله كيف يستجيز أحد أن يظن برب العالمين وأحكم الحاكمين أنه يعذب كثيراً من خلقه بأشد العذاب الأبدي لغير غاية ولا حكمة ولا سبب، وإنما هو محض مشيئة مجردة عن الحكمة والسبب، فلا سبب هناك ولا حكمة ولا غاية، وهل هذا إلا من أسوأ الظن بالرب تعالى؟ ثم بيّن رَحِمَهُ ٱللَّهُ خطر إنكار الحكمة في الخلق في الصد عن دين الله عَزَّوَجَلَّ، فيقول: وجناية هذا القول

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٤٤.

(٢) الخرعان، المرجع السابق، ص ٤٤.

على الشرائع من أعظم الجنايات، فإن العقلاء لا يمكنهم إنكار الأسباب والحكم والمصالح والعلل الغائية، فإذا رأوا أن هذا لا يمكن القول به مع موافقة الشرائع، ولا يمكنهم دفعه عن نفوسهم، خلَّوا الشرائع وراء ظهورهم، وأساؤوا بها الظن، وقالوا: لا يمكننا الجمع بينها وبين عقولنا [(١)].

والنظر في الحكمة من الخلق لا يقتصر على النظر في المخلوقات الظاهرة؛ كالجسم والسماء والأرض والكواكب والنبات والحيوان، وإنما يتعدى ذلك ليشمل كل ما يجري في هذا الكون من أحداث وأفعال للعباد؛ من حياة وموت، ومن صحة ومرض، ومن تسلط للأعداء وإيذاء لعباد الله الصالحين، أو من نصر للمؤمنين، وهزيمة للكافرين والفاسقين، فكل ما في الكون من أفعال وتصرفات مخلوقة لله سبحانه، ولا يجري في ملكه إلا ما أذن بإجرائه، ووراء كل شيء من ذلك حكم وغايات وعبر وعظات لمن تأملها وتدبّرها، وقد قال الله سبحانه: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٢٢﴾ لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [سورة الحديد: ٢٢٢٣].

أي: لتعلموا أن ما أصابكم لم يكن ليخطئكم، وما أخطأكم لم يكن ليصيبكم، فلا تأسوا على ما فاتكم؛ لأنه لو قدر شيء لكان، ولا تفرحوا بما آتاكم، أي لا تفخروا على الناس بما أنعم الله به عليكم، فإن ذلك ليس بسعيكم ولا كدّكم، وإنما هو عن قدر الله ورزقه لكم، فلا تتخذوا نعم الله أشراً وبطراً تفخرون بها على الناس، قال عكرمة: ليس أحد إلا هو يفرح ويحزن، ولكن اجعلوا الفرح شكراً والحزن صبراً [(٢)]. والحديث عن الحكمة من الخلق بحر لا ساحل له ولا يمكن حصره.

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٤٥.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٤٦.

وفِـــي كـــلِّ شـــيءٍ لَـــهُ آيـــةٌ　　تَـــدُلُّ عـلـى أنّـــهُ الـواحِـدُ

سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ وتقدس في علوّه وعظمة سلطانه، وعز ملكوته [١].

(١) الخرعان، مرجع نفسه، ص ٤٦.

المبحث الثاني: أي المخلوقات خُلق أولاً؟

إن مصدر معرفة أول المخلوقات وكيفية الخلق هو الخبر عن الله تعالى وعن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما فَهمه أهل العلم منهما، إذ لا مصدر لذلك غير الوحي المعصوم والفهم المهتدي بهديه، وما عدا ذلك فهو فرضيات وتوقعات، ولا تلبث في كثير من الأحيان أن يتراجع عنها القائلون بها ويكتشفون ما ينقضها مما يطلعهم الله عليه من علمه، وقد قال ابن كثير رحمه الله تعالى، في مقدمة كتابه البداية والنهاية: وكان من أعظم نعمه عليهم -أي على بني آدم- وإحسانه إليهم بعد أن خلقهم ورزقهم ويسر لهم السبيل، وأنطقهم، أن أرسل رسله إليهم، وأنزل كتبه عليهم؛ مبينة حلاله وحرامه، وأخباره وأحكامه، وتفصيل كل شيء في المبدأ والمعاد إلى يوم القيامة، فالسعيد من قابل الأخبار بالتصديق والتسليم، والأوامر بالانقياد، والنواهي بالتعظيم[1].

إن الحقيقة المجردة تقول إنه لا مصدر حقيقيًا لمعرفة بداية الخلق غير الوحي المعصوم، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤].

هذا وقد تعددت أقوال العلماء في أي المخلوقات خلق أولاً؟ فمنهم من قال بأن الماء أول المخلوقات، ومنهم من قال بأن أول المخلوقات هو العرش، ومنهم من قال بأن القلم هو الأول، ومأخذهم في ذلك من فهمهم للنصوص التي تحدثت عن هذا الموضوع، قال ابن كثير في تاريخه: وقد أجمع علماء الإسلام قاطبة -لا يشك في ذلك مسلم- أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما دل عليه القرآن الكريم.

---

(١) البداية والنهاية، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١، ١٩٩٧، ١/ ٥.

ثم قال: واختلفوا هل كان قبل خلق السماوات والأرض شيء مخلوق قبلهما؟ فذهب طوائف من المتكلمين إلى أنه لم يكن قبلهما شيء، وأنهما خلقتا من العدم المحض، وقال آخرون: بل كان قبل السماوات والأرض مخلوقات أخر، لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [سورة هود: ٧][1].

وقال في التفسير: قال مجاهد: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قبل أن يخلق شيئًا، وكذا قال وهب بن منبه، وضمرة وقتادة وابن جرير، وغير واحد، وقال قتادة في قوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ ينبّئكم كيف كان بدء خلقه قبل أن يخلق السماوات والأرض.

وأما الاختلاف: هل خلق العرش أولاً أم الماء أم القلم؟ فقد اختار ابن جرير وابن الجوزي رحمهما الله تعالى أن القلم أول المخلوقات، وهو القلم الذي كتبت به مقادير الخلق، واستدلوا بحديث عبادة بن الصامت الذي رواه الإمام أحمد وأبو داوُد والترمذي، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (إن أول ما خلق الله القلم، ثم قال له اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة) [2].

قال ابن كثير: والذي عليه الجمهور -فيما نقله الحافظ أبو العلاء الهمداني وغيره- أن العرش مخلوق قبل ذلك، كما في صحيح مسلم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء)، قالوا: فهذا التقدير هو كتابته بالقلم المقادير، وقد دل هذا الحديث على أن ذلك بعد خلق العرش، فثبت تقديم العرش على القلم الذي كُتبت به المقادير، ويحمل

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٨.

(٢) رواه أحمد وأبو داوُد والترمذي، انظر: قصة الخلق، ص ٥٦.

حديث القلم على أنه أول المخلوقات من هذا العالم، أيّ ما عدا العرش والماء [١].

وقال ابن حجر في الفتح: وأما ما رواه أحمد والترمذي وصححه من حديث عبادة بن الصامت مرفوعـاً: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة)، فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أوليّة القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش، أو بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أيّ إنه قيل له: اكتب أول ما خلق، وأما حديث: أول ما خلق الله العقل: فليس له طريق ثبت [٢].

وقال آخرون: بل أول ما خلق الله الماء قبل العرش وقبل القلم، واستدلوا بحديث أبي رزين العقيلي مرفوعـاً: (أن الماء خلق قبل العرش)، وروى السدي في تفسيره بأسانيد متعددة أن الله لم يخلق شيئـاً مما خلق قبل الماء.

وعلى أيٍّ من هذه الأقوال فما يرجحه كثير من أهل العلم أن العرش والماء هما أول المخلوقات، قال ابن حجر في الفتح: أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم، لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء[٣].

أولاً: خلق العرش والكرسي:

عرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجمـاً وكيفية وأعلاها مكانـاً، فهو سقف الكون، وعليه ذو الجلال والإكرام، ولا يدانيه في عظمته شيء من خلق الله، وقد أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم؛ فيقال: «عرش الرحمن»، ونسبه إلى نفسه كما نسب عظائم مخلوقاته، فقال سبحانه: ﴿رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٥٧.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٥٧.

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي ابن حجر، دار المعرفة، بيروت، ١٣٧٩، ٦/ ٣٣٤.

الْعَرْشِ﴾ [سورة غافر: ١٥]، وقال سبحانه: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [سورة التكوير: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [سورة الزخرف: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ﴾ [سورة البروج: ١٥]، وصفه بالكريم في قوله تعالى: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ [سورة المؤمنون: ١١٦]، كما وصفه بالعظيم في قوله تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النمل: ٢٦].

والعرش: قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [سورة طه: ٥]، وقال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة الحديد: ٤] في غير ما آية من القرآن، وقال تعالى: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٧]، وقال تعالى: ﴿وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الزمر: ٧٥].

والعرش، كما قال القرطبي: لفظ مشترك يطلق على أكثر من واحد؛ قال الجوهري وغيره: العرش سرير الملك، وفي التنزيل: ﴿قَالَ نَكِّرُوا لَهَا عَرْشَهَا﴾ [سورة النمل: ٤١]، وقال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ﴾ [سورة يوسف: ١٠٠]، والعرش سقف البيت. وعرش القدم: ما نتأ في ظهرها وفيه الأصابع، والجمع عروش.

والعرش: الملك والسلطان، يقال: ثُلَّ عرش فلان: إذا ذهب ملكه وسلطانه وعزُّه [(١)].

ولا مجال للخوض في كيفية العرش وحجمه وخلقه إلا عن طريق الوحي المعصوم، مما ثبت عن الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه، وثبت عن رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في سنّته،

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص: ٦٠.

إذ هو من الأمور الغيبية التي لا مجال للحس والعقل بالخوض فيها، ولذا فالمعوّل عليه النص الثابت [(١)].

وقال ابن عباس: إنما سمي العرش عرشـًا لارتفاعه، وقال محمد بن إسحاق في ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ فكان كما وصف نفسه تعالى، إذ ليس إلا الماء وعليه العرش، وعلى العرش ذو الجلال والإكرام، والعزة والسلطان، والملك والقدرة، والحلم والعلم، والرحمة والنعمة، الفعال لما يريد، وخلق الله العرش بيده سبحانه وتقدّس من بين أربعة أشياء، كما قال مجاهد: قال عبد الله بن عمر: خلق الله أربعة أشياء بيده؛ العرش، والقلم، وآدم، وجنة عدن، ثم قال لسائر الخلق: كن فكان.

أخرجه الدارمي وأبو الشيخ واللالكائي بسند صحيح على شرط مسلم [(٢)].

ومما ثبت عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذلك قوله: (فإذا سألتم اللهَ فَسَلُوهُ الفردوس، فإنَّه أوسط الجنَّة وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّرُ أنهار الجنة) [(٣)].

ففي هذا الحديث إثبات علو العرش على جميع المخلوقات، وأن الله عز وعلا وجل فوقه مستوٍ عليه، على الوجه الذي يليق به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، بعيداً عن خوض الخائضين، وإفك الأفاكين، وتخرّصات الظانين.

كما صح عنه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن للعرش قوائم، فقد جاء عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يُصعقون يوم القيامة فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش)[(٤)].

---

(١) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٦٠.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٦١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، رقم: (٧٤٢٣). ابن حجر: فتح الباري، ١٣/ ٤١٥.

(٤) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾، ﴿وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾، رقم: (٧٤٢٧). ابن حجر، فتح الباري، ١٣/ ٤١٦.

قال ابن حجر: قوله: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾: إشارة إلى أن العرش مربوب، وكل مربوب مخلوق، وختم الباب -يعني البخاري- بالحديث الذي فيه (فإذا أنا بموسى آخذٌ بقائمةٍ من قوائم العرش)، فإن في إثبات القوائم للعرش دلالة على أنه جسم مركب له أبعاض وأجزاء، والجسم المؤلف محدث مخلوق، وقال البيهقي في «الأسماء والصفات»: اتفقت أقاويل هذا التفسير على أن العرش هو السرير، وأنه جسم خلقه الله وأمر ملائكته بحمله وتعبّدهم بتعظيمه والطواف به، كما خلق في الأرض بيتاً وأمر بني آدم بالطواف به واستقباله في الصلاة [1].

وقد أوكل الله تعالى بهذا العرش ملائكة عظاماً يحملونه، كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: ٧].

وفي آية أخرى تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة يقول سبحانه: ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٧].

وجاء في وصف عظمة خلق هؤلاء الملائكة ما رواه أبو داوُد عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (أُذن لي أن أحدّث عن ملك من ملائكة الله عَزَّوَجَلَّ من حملة العرش؛ إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام) [2]. صححه الألباني، ورواه ابن أبي حاتم، ولفظه: (تخفق الطير سبعمائة عام) [3].

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ١٣/ ٤١٦.

(٢) أبو داود، كتاب: السنة، باب: في الجهمية. صححه الألباني.

(٣) مختصر شرح العقيدة الطحاوية، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠١، ص ١٣٩.

فسبحان الله العظيم! إذا كان هذا ما بين شحمة أذن هذا الملك وعاتقه، فما صفة بقية خلقته؟ إنه خلق عظيم لا يحيط به وصف، ولا يحده حس، ولا يخضع لحسابات الحاسبين، وتوقعات الخارصين، وإذا كانت هذه صفة بعض خلق الله سبحانه من حملة العرش، فما صفة العرش؟ والله أعلى وأعظم من كل عظيم، وأكبر وأجل من كل كبير: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الشورى: ١١].

وقد رأينا ورأى الناس في بعض صور الفلك التقريبية أحجام المجرات والأفلاك، مما يذهل الرائي، ويجعله خاضعاً ذليلاً أمام عظمة الله العظيم، والذي تبدو فيه الأرض كذرة متلاشية وسط الأفق، لا تساوي في ملك الله ولا خلقه شيئاً يذكر، والعرش لا يقدّر قدرَه إلا الله تعالى.

والكرسي، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (الكرسي موضع القدمين، والعرش لا يقدّر قدره إلا الله تعالى).

وفي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، قال ابن عباس: أي: علمه، كما مرّ معنا في رواية، وفي قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾، فالسماوات السبع والأرضون السبع -على عظم خلقها وسعة حجمها- قد وسعها الكرسي، وغطت سعته على سعتها، بل لقد جاء عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (يا أبا ذر، ما السماوات عند الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، وفضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على الحلقة)، وفي رواية: (كحلقة من حديد).

وقال الضحاك عن ابن عباس: لو أن السماوات السبع والأرضين السبع بُسطن، ثم وصلن بعضهن إلى بعض، ما كنَّ في سعة الكرسي إلا بمنزلة الحلقة في المفازة.

فيا سبحان الله ماذا تساوي حلقة من حديد لا تتجاوز ثلاث بوصات بالنسبة لفلاة مثل الربع الخالي، أو مثل الصحراء الكبرى!؟

إن النتيجة هي نسبة حجم السماوات والأرض إلى الكرسي، وهي كذلك نسبة حجم الكرسي إلى العرش العظيم، فسبحان من لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء، وسبحان الله العظيم في ذاته، العظيم في صفاته، العظيم في خلقه وعِلمه[١].

١. الله غني عن عرشه:

إن ما ينبغي التنبيه له في مسألة خلق العرش أنه لا يعني وصف العرش بأنه عرش الرحمن، وأنه بمنزلة السرير للملك، أن الله محتاج إليه، فالله أعظم من ذلك، والخلق كلهم مفتقرون إلى الله، يحتاجون إليه، لا قيام لهم إلا به، والله هو الغني الحميد.

قال ابن أبي العز في العقيدة الطحاوية: أما قوله: وهو مستغنٍ عن العرش وما دونه فليبيّن أن خلقه للعرش لاستوائه عليه ليس لحاجته إليه؛ بل له في ذلك حكمة اقتضته، وكون العالي فوق السافل لا يلزم أن يكون السافل حاويـًا للعالي محيطـًا به حاملاً له، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه، فانظر إلى السماء كيف هي فوق الأرض وليست مفتقرة إليها.

فالرب تعالى أعظم شأنـًا وأجلّ من أن يلزم من علوه ذلك، بل لوازم علوه من خصائصه؛ وهي حمله بقدرته للسافل، وفقر السافل، وغناه هو سبحانه عن السافل، وإحاطته عَزَّوَجَلَّ به، فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه [٢].

ومثل ذلك خلق الله العباد لعبادته لا يعني حاجته وافتقاره إليهم وعبادتهم، فهو سبحانه مستغنٍ عنهم وهم الفقراء إليه المحتاجون إليه، وما عبادتهم له إلا دليل فقرهم إليه، وضعفهم بين يديه، فالعرش والسماوات والأرض والملائكة والجن كلهم عباد لله [٣].

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق ص ٦٤.

(٢) مختصر شرح العقيدة الطحاوية، الألباني، المرجع السابق، ص٥١.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٦٥.

٢. اهتزاز العرش لسعد بن معاذ ومأوى أرواح الشهداء في الجنة

والعرش العظيم حبيب لعباد الله الصالحين، محبّ لهم، متودّد إليهم، فكما أنه اهتزّ لموت سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ فرحـًا وسروراً بقدوم روح هذا الصحابي الجليل -كما ثبت ذلك في الحديث الصحيح- فإن العرش العظيم موئل ومستراح عباد الله الصالحين، ومستظلّهم ومكان اجتماعهم عند ربهم يوم القيامة، فإليه تأوي أرواح الشهداء في الجنة حينما يروحون ويغدون بين خمائلها وبساتينها، قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [سورة آل عمران: ١٦٩].

قال: أما إنّا قد سألنا عن ذلك رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: (أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلّقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع إليهم ربهم اطلاعة، فقال: هل تشتهون شيئـًا؟ قالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح من الجنة حيث شئنا؟ ففَعل ذلك بهم ثلاث مرات، فلما رأوا أنهم لن يُتركوا من أن يُسألوا، قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نُقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تُركوا) [١].

٣. العرش مستظَل عباد الله الصالحين

حينما تذهل المرضعات وتتلاشى الصدقات والقربات، وتدنو الشمس فلا يحول دونها شيء، ويزول كل ظل إلا ظل العرش، كما ثبت ذلك في حديث السبعة الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله؛ الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات

---

(١) رواه مسلم نقلًا عن قصة الخلق، ص ٦٦.

منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدق أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليـًا ففاضت عيناه) [١].

وفي رواية عند سعيد بن منصور: (سبعة يظلهم الله في ظل عرشه[٢]... الحديث)، وقال في الفتح: حديث حسن.

٤. العرش ملتقى المتحابين بجلال الله:

والعرش ملتقى المتحابين بجلال الله ومستظَلهم، كما روى أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعـًا: (إن الله تعالى يقول: أين المتحابون بجلالي؟ اليوم أظلهم في ظل عرشي يوم لا ظل إلا ظلي)[٣].

٥. هو مستظل الرحماء:

الذين يتجاوزون عن عباد الله عند الاقتضاء، كما في حديث أبي قتادة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (من ترك لغريمه أو تجاوز عنه كان في ظل العرش يوم القيامة) [٤].

٦. هو مستقر كتاب رحمة الله:

التي كتبها على نفسه لعباده، كما ثبت في الحديث الصحيح عند البخاري عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (إن الله لما قضى الخلق كتب عنده فوق عرشه: إن رحمتي سبقت غضبي) [٥].

---

(١) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٢/ ١٦٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٦٦.

(٣) مسند أحمد، باب: مسند أبي هريرة، رقم: ٧٢٣١.

(٤) إسناده صحيح أخرجه أحمد وغيره، شمس الدين الذهبي، مختصر العلو للعلي العظيم، ص ٢٥.

(٥) صحيح البخاري، كتاب التوحيد، باب: وكان عرشه على الماء، رقم: (٧٤٢٢).

٧. تحته موضع السجود الكريم

للنبي محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حينما تستشفع البشرية به يوم القيامة إلى ربها ليشفع لهم في فصل القضاء، كما في حديث الشفاعة عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: أتي بلحم فرفع إليه الذراع، وكانت تعجبه، فنهش منها، ثم قال: (أنا سيد الناس يوم القيامة)... وذكر الحديث إلى أن قال: (فأنطلق فآتي تحت العرش فأقع ساجداً لربي، ثم يقال: يا محمد، ارفع رأسك، وسل تعطَ، واشفع تشفع، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمتي)[1].

٨. حملة العرش أحباب الصالحين

حملة العرش ومن حولهم من الملائكة هم أحباب عباد الله الصالحين، الذين يغمرونهم باستغفارهم ودعائهم لهم عند الله، رحمة بهم وتحقيقاً للحميمية التي تجمعهم بهم في طاعتهم لله عَزَّوَجَلَّ، وقربهم منه -سبحانه- بأعمالهم الصالحة وحبهم له[2].

كما قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ۝٧ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٨ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة غافر: ٧-٩].

إن حَمَلة العرش ومن حوله -وهم من بين القوى المؤمنة في هذه الوجود- يَذكُرون المؤمنين من البشر عند ربهم، ويستغفرون لهم، ويستنجزون وعد الله إياهم؛ بحكم رابطة الإيمان بينهم وبين المؤمنين.

---

(١) البخاري ومسلم وغيرهما. قصة الخلق، الخرعان، ص ٦٧.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٦٨.

وهؤلاء العباد المقربون يتوجهون بعد تسبيح الله إلى الدعاء للمؤمنين من الناس بخير ما يدعو به مؤمن لمؤمن.

وهم يبدؤون دعاءهم بأدب يعلّمنا كيف يكون أدب الدعاء والسؤال، يقولون: ﴿رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾ [سورة غافر: ٧]، يقدمون بين يدي الدعاء بأنهم -في طلب الرحمة للناس- إنما يستمدون من رحمة الله التي وسعت كل شيء، ويحيلون إلى علم الله الذي وسع كل شيء، وأنهم لا يقدمون بين يدي الله بشيء، إنما هي رحمته وعلمه، منهما يستمدون وإليهما يلجؤون [1].

قال تعالى: ﴿فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ﴾ [سورة غافر: ٧]، وتلتقي هذه الإشارة إلى المغفرة والتوبة بمطلع السورة، وبصفة الله هناك: ﴿غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ﴾ [سورة غافر: ٣]، كما تلتقي الإشارة إلى عذاب الجحيم، بصفة الله «شديد العقاب» في سورة غافر، ثم يرتقون في الدعاء من الغفران والوقاية من العذاب إلى سؤال الجنة واستنجاز وعد الله لعباده الصالحين: ﴿رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة غافر: ٨].

ودخول الجنة نعيم وفوز تضاف إليه صحبة من صلح من الآباء والأزواج والذريات، وهي نعيم آخر مستقل، ثم هي مظهر من مظاهر الوحدة بين المؤمنين أجمعين، فعند عقدة الإيمان يلتقي الآباء والأبناء والأزواج، ولولا هذه العقدة لتقطّعت بينهم الأسباب.

والتعقيب على هذه الفقرة من الدعاء: ﴿إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ﴾ يشير إلى القوة كما يشير إلى الحكمة، وبها يكون الحكم في أمر العباد.

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٣٠٧١.

﴿ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، وهذه الدعوة -بعد الدعاء بإدخالهم جنات عدن- لفتة إلى الركيزة الأولى في الموقف العصيب، فالسيئات هي التي توبق أصحابها في الآخرة، وتوردهم مورد التهلكة، فإذا وقى الله عباده المؤمنين منها وقاهم نتائجها وعواقبها، وكانت هذه الرحمة هي الرحمة في ذلك الموقف، وكانت كذلك أولى خطوات السعادة «وذلك هو الفوز العظيم»، فمجرد الوقاية من السيئات هو أمر عظيم [(١)].

فالعرش والملائكة من حملته والذين من حوله خلق من خلق الله الذين تربطهم بعباد الله الصالحين وشائج الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ والعبودية الخالصة له سبحانه، إنها العلاقة الحميمة بين عباد الله الصالحين وبين بقية خلق الله؛ علاقة الانسجام والود والتكريم.

فالعرش يهتز لموت سعد بن معاذ الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والعرش مأوى أرواح الشهداء، ومستظل المتقين، ومستقر رحمة الله الرحمن الرحيم، والإنسان العابد لله يستشعر هذه المودة مع هذا المخلوق العظيم الذي جعل الله فيه من المنافع لخلقه ما لا توازيه منفعة، حينما تذهل كل مرضعة عما أرضعت، وتضع كل ذات حمل حملها، وهو أثر عن القرب من الله العلي الكبير، والإيمان به والتصديق بما جاء عنه وعن رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الوحي المعصوم [(٢)].

ثانيًا: خلق الماء:

الماء هو سر الحياة ومنبعها، وهو من أول المخلوقات وجوداً، بل هناك من أهل العلم من قال بأن الماء أول المخلوقات، حتى قيل إنه خلق قبل العرش،

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٣٠٧١.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٦٩.

ثم خلق العرش بعد ذلك، وحجتهم في ذلك قوله الله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [سورة هود: ٧].

كما روى ابن جرير قال: وقال آخرون: بل خلق الله عَزَّوَجَلَّ الماء قبل العرش، رواه السدي عن أبي مالك وعن ابن عباس وابن مسعود وناس من أصحاب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قالوا: إن الله كان عرشه على الماء، ولم يخلق شيئًا غير ما خلق قبل الماء [١].

وقد قرن الله ذكر خلق الماء بخلق العرش، كما في الآية السابقة، باعتبارهما أول المخلوقات، قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أشار بقوله: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء.

وعن مجاهد قال: بدءُ الخلق العرش والماء والهواء، وخلقت الأرض من الماء [٢]. وقال القرطبي في قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾: بيّن أن خلق العرش والماء قبل خلق الأرض والسماء، ولا يلزم من الماء الذي عليه العرش أنه هو الماء الموجود في الأرض، فخلق الله لا يحيط به إلا هو سبحانه، كما قاله بعض العلماء، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس: إنه سئل عن قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ قال: على أي شيء كان الماء؟ قال: على متن الريح [٣].

---

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ٩.

(٢) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٦/ ٣٣٤.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ٩/ ٨.

١. الماء أساس المخلوقات:

الماء من أعظم مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ ومن أولها في الوجود، وقد جعله الله أساس الحياة وعنصرها الذي تقوم عليه وتبدأ منه، قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

وروى أبو حاتم البستي في المسند الصحيح له من حديث أبي هريرة قال: قلت: يا رسول الله إذا رأيتك طابت نفسي وقرَّت عيني؛ أنبئني عن كل شيء، قال: «كل شيء خلق من الماء» (١).

وقال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة النور: ٤٥].

وقد ورد ذكر كلمتي «ماء، والماء» في القرآن الكريم «٥٩» مرة، وورد ذكر الماء في كلمات أخرى «ماءك، ماءها، ماؤكم، ماؤها» أربع مرات، وبذلك يكون الماء ورد ذكره في القرآن الكريم «٦٣» مرة، **وبقراءة الآيات القرآنية التي ورد ذكر الماء فيها يمكن إدراجها تحت المواضيع التالية:**

٢. نزول ماء السماء بقدر:

قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٨]، ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ﴾ بحكمة وتدبير؛ لا أكثر فيغرق ويفسد، ولا أقل فيكون الجدب والمحل، ولا في غير أوانه فيذهب بدداً بلا فائدة.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١١/ ٢٨٤.

« فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ» وما أشبهه وهو مستكن في الأرض بماء النطفة، وهو مستقر في الرحم.

« فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ» كلاهما مستقر هنالك بتدبير الله لتنشأ عنه الحياة، وهذا من تنسيق المشاهد على طريقة القرآن في التصوير.

« وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ «؛ فيغور في طبقات الأرض البعيدة بكسر أو شق في الطبقات الصخرية التي استقر عليها فحفظته، أو بغير هذا من الأسباب، فالذي أمسكه بقدرته قادر على تبديده وإضاعته، إنما هو فضل الله على الناس ونعمته [(١)].

٣. «أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون؟»:

قال تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ ﴿٦٩﴾ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الواقعة: ٦٨٧٠]، وهذا الماء أصل الحياة وعنصرها الذي لا تنشأ إلا به كما قدر الله فما دور الإنسان؟ دوره أن يشربه، أما الذي أنشأه من عناصره، وأما الذي أنزله من سحائبه؛ فهو الله سبحانه، وهو الذي قدر أن يكون عذباً فكان، ولو شاء الله لجعله أجاجاً مالحاً لا يستساغ، أو لا ينشئ حياة، فهلا يشكرون فضل الله الذي أجرى مشيئته بما كان [(٢)]؟

٤. نزول الغيث من مفاتيح الغيب:

عن سالم بن عبد الله عن أبيه، أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٤٦١.

(٢) المعجزة الخالدة الإعجاز العلمي في القرآن الكريم براهين ساطعة وأدلة قاطعة، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، ٢٠١٦، ص ١١٢.

الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: ٣٤]) [١].

﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ الله﴾ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قد جعل الساعة غيباً لا يعلمه سواه؛ ليبقى الناس على حذر دائم، وتوقّع دائم، ومحاولة دائمة أن يقدموا لها، وهم لا يعلمون متى تأتي، فقد تأتيهم بغتة في أي لحظة ولا مجال للتأجيل في اتخاذ الزاد وكنز الرصيد.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ والله ينزل الغيث وفق حكمته بالقدر الذي يريده، وقد يعرف الناس بالتجارب والمقاييس قرب نزوله، ولكنهم لا يقدرون على خلق الأسباب التي تنشئه.

والنص يقرر أن الله هو الذي ينزل الغيث، لأنه سبحانه هو المنشئ للأسباب الكونية التي تكوّنه والتي تنظّمه، فاختصاص الله في الغيث هو اختصاص القدرة كما هو ظاهر من النص، مع علم الله الشامل المحيط بكل شيء، فعلم الله وحده هو العلم الصحيح الكامل الشامل الدائم الذي لا تلحق به زيادة ولا نقصان.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ اختصاص بالعلم كالاختصاص في أمر الساعة، فهو سبحانه الذي يعلم وحده علمَ يقينٍ ماذا في الأرحام في كل لحظة وفي كل طور، من فيض وغيض، ومن حمل، حتى حين لا يكون للحمل حجم ولا جرم، ونوع هذا الحمل ذكراً أم أنثى، حين لا يملك أحد أن يعرف عن ذلك شيئاً في اللحظة الأولى لاتحاد الخلية والبويضة، وملامح الجنين، وخواصه، وحالته واستعداداته، فكل أولئك مما يختص به علم الله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذا تَكْسِبُ غَدًا﴾؛

---

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب: ﴿وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾، رقم: (٤٦٢٧). ابن حجر، فتح الباري، مرجع سابق، ٨/ ٥١٤.

ماذا تكسب من خير وشر، ومن نفع وضر، ومن يسر وعسر، ومن صحة ومرض، ومن طاعة ومعصية، فالكسب أعمّ من الربح المالي وما في معناه؛ وهو كل ما تصيبه النفس في الغداة، وهو غيب مغلق عليه الأستار، والنفس الإنسانية تقف أمام سدف الغيب لا تملك أن ترى شيئاً مما وراء الستار.

﴿وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾ [سورة لقمان: ٣٤]، فذلك أمر وراء الأستار المسبلة السميكة التي لا تنفذ منها الأسماع والأبصار. وإن النفس البشرية لتقف أمام هذه الأستار عاجزة خاشعة، تدرك بالمواجهة حقيقة علمها المحدود، وعجزها الواضح، ويتساقط عنها غرور العلم والمعرفة المدَّعاة، وتعرف أمام ستر الغيب المسدل أن الناس لم يؤتوا من العلم إلا قليلاً، وأن وراء الستر الكثيرَ مما لم يعلمه الناس، ولو علموا كل شيء آخر فسيظلون واقفين أمام تلك الأستار لا يدرون ماذا يكون غداً، بل ماذا يكون اللحظة التالية، وعندئذٍ تطامن النفس البشرية من كبريائها وتخشع لله.

والسياق القرآني يعرض هذه المؤثرات العميقة التأثير في القلب البشري في رقعة فسيحة هائلة، رقعة فسيحة في الزمان والمكان، وفي الحاضر الواقع، والمستقبل المنظور، والغيب السحيق، وفي خواطر النفس، ووثبات الخيال: ما بين الساعة البعيدة المدى، والغيث البعيد المصدر، وما في الأرحام الخافي عن العيان، والكسب في الغد، وهو قريب في الزمان، ومغيّب في المجهول، وموضع الموت والدفن.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ خَبِيْرٌ﴾، وليس غيره بالعليم ولا بالخبير [(١)].

٥. المطر مصدر جميع مياه الأرض:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٩٩.

ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [سورة الزمر: ٢١].

٦. ماء المطر يتوقف عليه كيان الزراعة:

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩٩].

٧. دورة المياه في الأرض ثابتة:

قال تعالى: ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٧].

شبّه تعالى الهدى الذي أنزله على رسوله لحياة القلوب والأرواح بالماء الذي أنزله لحياة الأشباح، وشبّه ما في الهدى من النفع العام الكثير الذي يضطر إليه العباد بما في المطر من النفع العام الضروري، وشبه القلوب الحاملة للهدى وتفاوتها بالأودية التي تسيل فيها السيول؛ فوادٍ كبير يسع ماء كثيراً، كقلب كبيرٍ يسع علمـاً كثيراً، ووادٍ صغير يأخذ ماء قليلاً كقلب صغير يسع علمـاً قليلاً، وهكذا.

وشبه ما يكون في القلوب من الشهوات والشبهات عند وصول الحق إليها بالزبد الذي يعلو الماء، ويعلو ما يوقد عليه النار من الحلية التي يراد تخليصها وسبكها، وأنها لا تزال فوق الماء طافية مكدِّرة له حتى تذهب وتضمحل، ويبقى ما ينفع الناس من الماء الصافي، والحلية الخالصة، كذلك الشبهات والشهوات؛

لا يزال القلب يكرهها ويجاهدها بالبراهين الصادقة، والإرادات الجازمة، حتى تذهب وتضمحل، ويبقى القلب خالصاً صافياً، ليس فيه إلا ما ينفع الناس من العلم بالحق وإيثاره، والرغبة فيه، فالباطل يذهب ويمحقه الحق ﴿إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [سورة الإسراء: ٨١].

وقال هنا: ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة الرعد: ١٧] [(١)]. ففي الآية السابقة مثل الحق والباطل في هذا الحياة، فالباطل يطفو ويعلو وينتفخ ويبدو رابياً طافياً، ولكنه بعد زبد أو خبث ما يلبث أن يذهب جفاء مطروحاً لا حقيقة له ولا تماسك فيه، والحق يظل هادئاً ساكناً، وربما يحسبه بعضهم قد انزوى أو غار أو ضاع أو مات، ولكنه هو الباقي في الأرض، كالماء المحيي والمعدن الصريح ينفع الناس؛ ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الأَمْثَالَ﴾.

وكذلك يقرر مصائر الدعوات، ومصائر الاعتقادات، ومصائر الأعمال والأقوال، وهو الله الواحد القهار، المدبّر للكون والحياة، العليم بالظاهر والباطن، والحق والباطل والباقي والزائل [(٢)].

هذا كما أن في الآية حقيقة علمية تقول: إن دورة المياه الأرضية ثابتة ما دامت قد وجدت الحياة، وإنه لا سبيل إلى زيادة الماء قطرة ولا أن تنقص منه قطرة، فالماء يتبخر من الزرع والنبات، وما تستهلكه كل الأحياء من ماء إنما يعود إلى الأرض ثانية كاملاً غير منقوص في مخلفاتها، أو في بقايا أجسامها، وإن جبال الجليد والثلوج عندما تسيل فإنها لا تضيف جديداً على الماء لأنها أصلاً من ماء الأرض، وهذه الدورة المائية الثابتة والمقدَّرة قد سبقت بها وإليها آيات القرآن الكريم [(٣)].

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص ٤٧١.

(٢) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٠٥٤.

(٣) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ص ١٦٨.

ومن رحمته سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن جعل الماء على كيفية وهيئة تمكّن من الانتفاع به على الوجه الأكمل، فينزل المطر من السماء، فيغسل به الأرض ويطهرها، وينقي الهواء من الدخان والغبار والتلوث، فتتجدد الأرض، وتصفو السماء، ويطيب الهواء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم تأمل الحكمة البالغة في نزول المطر على الأرض من علوٍّ ليعمّ بسقيه وِهادها، وتلولها، وظرابها، وآكامها، ومنخفضها، ومرتفعها، ولو كان ربُّها تعالى إنما يسقيها من ناحية من نواحيها لما أتى الماء على الناحية المرتفعة إلا إذا اجتمع في السفلى وكثر، وفي ذلك فساد، فاقتضت حكمته أن سقاها من فوقها، فينشئ سبحانه السحاب وهي روايا الأرض، ثم يرسل الرياح فتحمل الماء من البحر وتلقحها به كما يلقح الفحل الأنثى [1].

ومن حكمته سبحانه في خلق الماء أن منه ما يجري على وجه الأرض كالأنهار، ومنه ما هو مستقر فوق ظهرها كالبحار، ومنه ما يستقر في باطن الأرض كمياه الآبار، ومن رحمته سبحانه أن جعل فيه العذب والمالح الأُجاج، وجعل العذب –وهو مياه الأنهار– يجري حتى لا يتعفّن كذلك، ولا يتعفن ما يموت فيه من الحيوانات البرية، وجعل الماء المخزن في الأرض قريباً يمكن تناوله والوصول إليه، كما قال سبحانه: ﴿وَإِنَّا عَلَىٰ ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون: ١٨].

قال القرطبي: يعني الماء المختزن، وهذا تهديد ووعيد؛ أي في قدرتنا إذهابه وتغويره، ويهلك الناس بالعطش وتهلك مواشيهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا﴾ [سورة الملك: ٣٠] أي: غائراً ﴿فَمَنْ يَأْتِيكُمْ بِمَاءٍ مَعِينٍ﴾ [سورة الملك: ٣٠] [2]. والآيات القرآنية كثيرة في بيان الحديث عن الماء وأهميته ومواضيعه، فكم هو ثمين هذا الماء؟ وكم من نعم لا نشعر بأهميتها

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ص ٢٢٣.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٧٦.

إلا بعد ضياعها؟ وصدق رب العزة حيث قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠]. ولولا الله ثم الماء الذي خلقه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما كان الإنبات ولا النبات ولا الحياة.

ثالثًا: خلق القلم

المقصود بالقلم هنا القلم الذي أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بدء الخليقة بأن يكتب مقادير الأشياء وما هو كائن من مخلوقات، وأحداث، وحياة وموت، إلى يوم القيامة، وذلك بمقتضى علم الله بخلقه، ومقتضى كماله وجلاله، فخلق بعلم، وقدّر بعلم، فلا يحدث شيء في ملكه إلا بعلمه، ولا يخرج شيء مما يقع عن علمه وإحاطته سبحانه، في قوله تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤].

فكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة؛ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يومـًا، فقال: (يا غلام إني أعلمك كلمات؛ احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء، لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء، لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف) [١].

وقد سبق ذكر أقوال العلماء في أي المخلوقات خلق أولاً؛ فمنهم من قال القلم، ومنهم من قال العرش، ومنهم من قال الماء، ورجح بعضهم [٢] أن أول المخلوقات هو العرش، وهو ما سرنا عليه في ترتيب المخلوقات في هذا الكتاب،

---

(١) مسند أحمد، رقم: ٢٦٧٠. وفي سنن الترمذي، رقم ٢٥١٦.

(٢) مختصر شرح العقيدة الطحاوية، الألباني، المصدر السابق، ص ٣٣٣.

وقد خرج العلماء من حديث عبادة بن الصامت مرفوعـًا: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة)، بأن المقصود بذلك -يقول ابن كثير- أنه أول المخلوقات من هذا العالم [١]، أي: عدا العرش، أو أن الله قال له: اكتب أول ما خلقه، واستدلوا بعدم أسبقية خلق القلم بالحديث الذي رواه مسلم في صحيحه عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء) [٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شفاء العليل بعد أن ذكر حديث عبد الله بن عمرو السابق: وفيه دليل على أن خلق العرش سابق على خلق القلم، وهذا أصح القولين، لما روى أبو داوُد في سننه، عن أبي حفص الشامي، قال عبادة بن الصامت لابنه: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. سمعت رسول الله ﷺ يقول: (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له اكتب، قال: رب وماذا أكتب؟ قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة).

يابني سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من مات على غير هذا فليس مني)[٣].

- القلم وكتابة المقادير

وكتابة القلم للقدر كانت في الساعة التي خُلق فيها، لما رواه أحمد في مسنده من حديث عبادة بن الوليد، قال: حدثني أبي، قال: دخلت على عبادة وهو

(١) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق: ١/ ٩. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٧٨-٧٩.

(٢) صحيح مسلم، كتاب القدر، باب: حجاج آدم وموسى عليهما السلام، رقم: (٢٦٥٣).

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٧٩.

مريض أتخايل فيه الموت، فقلت: يا أبتاه، أوصني واجتهد لي، فقال: أجلسوني، فلما أجلسوه قال: يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان ولن تبلغ حقيقة العلم بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حتى تؤمن بالقضاء والقدر خيره وشره، قلت: يا أبتاه وكيف لي أن أعلم ما خير القدر وشره؟ قال: تعلم أن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك، يا بني إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (إن أول ما خلق الله تعالى القلم، ثم قال اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة)، يا بني إن متَّ ولست على ذلك دخلتَ النار [(١)].

رابعـًا: خلق اللوح المحفوظ

اللوح المحفوظ أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظـًا لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين، فهو محفوظ من كل تغيير وتبديل، محفوظ من أن ينفُذ إليه أو يغير ما فيه من حكم أو قضاء أو قدر [(٢)]. قال ابن كثير: هو في الملأ الأعلى محفوظ من الزيادة والنقصان، والتحريف والتبديل [(٣)]، ومكانه على ما روي عن مقاتل عن يمين العرش[(٤)]، واللوح المحفوظ هو الكتاب الذي لم يفرط فيه الله من شيء، فكل ما جرى ويجري فهو مكتوب عند الله تعالى، وأدلة هذه المرتبة في القرآن الكريم كثيرة، نذكر منها قوله تعالى: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٣٨]، على أحد الوجهين؛ وهو أن المقصود بالكتاب هنا اللوح المحفوظ، فالله أثبت فيه جميع الحوادث، فكل ما يجري مكتوب عند

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٥٥-٥٦.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٨٤.

(٣) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٤٩٦-٤٩٧.

(٤) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٨٤.

الله في اللوح المحفوظ[١]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٥].

فأخبر تعالى أن هذا مكتوب مسطور في الكتب الشرعية والقدرية، فهو كائن لا محالة [٢]، والآية دالة على مرتبة الكتابة عند من فسّر الزبور بالكتاب بعد الذكر، والذكر أمّ الكتاب عند الله، وهو اللوح المحفوظ [٣].

وقال تعالى في قصة أسرى بدر: ﴿لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة الأنفال: ٦٨]، أي: لولا كتاب سبق به القضاء عند الله أنه قد أحلّ لكم الغنائم، وأن الله رفع عن أمة محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ العذاب، لمسّكم عذاب عظيم [٤]، فالآية دليل على الكتاب السابق، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٧٠]، وهذه الآية من أوضح الأدلة على علمه المحيط بكل شيء، وأنه علّم الكائنات كلها قبل وجودها، وكتب الله ذلك في كتابه اللوح المحفوظ، فالآية جمعت بين المرتبتين [٥].

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة النمل: ٧٥]، أي: خفية أو سر من أسرار العالم العلوي والسفلي ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ

---

(١) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط ٢، ١٩٩٧، ص ٦٠.

(٢) صحيح تفسير القرآن العظيم، مصطفى العدوي، دار ابن رجب، ط ١، ٢٠١٠، ٣/ ١٧٧.

(٣) القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، المحمود، مرجع سابق، ص ٦٠.

(٤) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٣/ ١٩١.

(٥) الإيمان بالقدر، محمد علي الصلابي، دار المعرفة، ط ٢، ٢٠١١، ص ٤٨.

مُبِينٍ﴾، فقد أحاط ذلك الكتاب بجميع ما كان ويكون إلى أن تقوم الساعة، فما من حادث جليّ أو خفيّ، إلا وهو مطابق لما كتب في اللوح المحفوظ (١).

وقال تعالى في آية جمعت بين مرتبتي العلم والكتابة: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يونس: ٦١]، «وما يعزب عن ربك» أي: ما يغيب عن علمه وبصره وسمعه ومشاهدته أي شيء؛ حتى مثاقيل الذر، بل ما هو أصغر منها، وهذه مرتبة العلم، وقوله: «إلا في كتاب مبين» مرتبة الكتابة، وكثيراً ما يقرن الله سبحانه بين هاتين المرتبتين (٢).

وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس: ١٢]. أي: جميع الكائنات مكتوبةٌ في كتاب مسطور، مضبوط في لوح محفوظ، والإمام المبين ها هنا هو أم الكتاب (٣)، وقال تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ ۝٥٢ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ﴾ [سورة القمر: ٥٢-٥٣].

أي: مكتوب عليهم في الكتب التي بأيدي الملائكة عليهم السلام، «وكل صغير وكبير» أي: من أعمالهم «مستطر» أيّ: مجموع عليهم، ومسطّر في صحائفهم، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها (٤).

---

(١) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، السعدي، مرجع سابق، ٥/ ٥٩٨.

(٢) السعدي، المرجع نفسه، ٣/ ٣٦٦.

(٣) صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، ٣/ ٦٥٤.

(٤) صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، ٤/ ٣٣٥.

وقال تعالى عن موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حين قال له فرعون: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى ۝٥١ قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه: ٥١-٥٢].

إن فرعون لما أخبره موسى بأن ربه الذي أرسله هو الذي خلق ورزق وقدّر وهدى شَرَعَ يحتج بالقرون الأولى؛ أي الذين لم يعبدوا الله، أي: فما بالهم إذا كان الأمر كما تقول: لم يعبدوه بل عبدوا غيره؟ فقال له موسى في جواب ذلك: هم وإن لم يعبدوه فإن عملهم عند الله مضبوط عليهم، وسيجزيهم بعملهم في كتاب الله، وهو اللوح المحفوظ وكتاب الأعمال، «لا يضل ربي ولا ينسى» أي: لا يشذّ عنه شيء، ولا يفوته صغير ولا كبير، ولا ينسى شيئًا، يصف علمه تعالى بأنه بكل شيء محيط، وأنه لا ينسى شيئًا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وتقدس وتنزه، فإن علم المخلوقات يعتريه نقصانان؛ أحدهما: عدم الإحاطة بالشيء. والآخر: نسيانه بعد علمه، فنزّه نفسه عن ذلك [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة فاطر: ١١].

١. وظيفة اللوح المحفوظ

إن وظيفة اللوح المحفوظ -كما في الآيات والأحاديث- محل كتابة القدر، فقد أمر الله القلم فكتب فيه ما هو كائن إلى يوم القيامة، قال القرطبي: اللوح المحفوظ الذي فيه أصناف الخلق والخليقة، وبيان أمورهم، وذكر آجالهم وأرزاقهم وأعمالهم، والأقضية النافذة فيهم، ومآل عواقب أمورهم، وهو أم الكتاب، وقال ابن أبي العز في شرح الطحاوية: اللوح المذكور هو الذي كُتِبَ مقادير الخلائق فيه [(٢)].

---

(١) العدوي، المرجع نفسه، ٣/ ١١٥.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٨٥.

٢. القرآن محفوظ في اللوح منذ الأزل

كتب الله فيه القرآن وحفظه فيه منذ الأزل، وهذا معنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [سورة البروج: ٢١-٢٢]، وقوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾ [سورة الزخرف: ٤]، قال القرطبي: قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ﴾ يعني: القرآن في اللوح المحفوظ، وقال ابن القيم في شفاء العليل: والقرآن كتبه الله في اللوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض، كما قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [سورة البروج: ٢٢].

وأجمع الصحابة والتابعون وجميع أهل السنة على أن كل كائن إلى يوم القيامة فهو مكتوب في أم الكتاب، وقد دل القرآن على أن الرب تبارك تعالى كتب في أم الكتاب ما يفعله وما يقوله، فكتب في اللوح أفعاله وكلامه؛ فتبت يدا أبي لهب، في اللوح المحفوظ قبل وجود أبي لهب [(١)].

وقال ابن كثير: في قوله سبحانه: ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٠٦]، معنى فرقناه: فصَّلناه من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة من السماء الدنيا، ثم نزل مفرَّقـاً منجَّمـاً على الوقائع إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ثلاث وعشرين سنة، قاله عكرمة عن ابن عباس [(٢)].

واللوح المحفوظ في خلقه ووظيفته مظهر من مظاهر قدرة الله الباهرة، والعظمة التي لا تدانيها عظمة، والجلال الذي يقصّر دونه كل جلال، وهو في ذاته كمال وأي كمال، وآية على علم الله المحيط بكل شيء، وإرادته التي لا يحول دونها حائل، ولا يندّ عنها أو يتجاوزها ذو قدرة أو سلطان، وهو معبّر عن عدل الله

---

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٦٦-١٦٧.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٦٨.

المطلق الذي لا يتطرق إليه ظلم ولا جَور، فسبحان الله وتقدس في ذاته وصفاته عن كل ما ببال، أو يرد به خيال، وسُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عن كل ند أو مثيل قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [سورة البقرة: ٢٥٥]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيل﴾ [سورة الأنعام: ١٠٢]، وسبحانه وتقدّس عما يتقول به المتقولون، أو يتأوّل المتأولون، أو تطيش به عقول القاصرين، وتتردد فيه أفهام ضعفاء المخلوقين (١).

خامسًا: خلق الزمان

إن المسلم الذي يؤمن حق الإيمان بمعنى قول الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الزمر: ٦٢]، يعرف حق المعرفة أنه ليس هناك في الوجود أحد سوى الله إلا وهو مخلوق بعد أن لم يكن، وأن الله سبحانه هو الخالق لكل شيءٍ صغيراً كان أم كبيراً، محسوساً أم غيبياً، ومن ذلك الزمان والمكان، والليل والنهار، ومقدار ذلك كله، قال ابن حجر في الفتح عند قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (وكتب في الذكر كل شيء): وفيه أن جنس الزمان ونوعه حادث (٢).

والزمان نوع من مخلوقات الله العظيمة قلّ من يتأمّله أو يلتفت له؛ فهو الزمان والوقت الذي نتحرك فيه ونعيش أيامه ولياليه، والذي به نحسب الأعمال والآجال، الوقت الذي هو محل الأعمال، وامتداد الآمال (٣).

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٨٨.

(٢) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، مرجع سابق، ٦/ ٣٣٤.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٨٨.

والزمان كما يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو مقدار الحركة [١]، أي حركة الأفلاك، وقد أخبر سبحانه بخلقه الزمان في غير موضع؛ كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [سورة الأنعام: ١]. وقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٢]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠]، وغير ذلك من النصوص التي تبين أنه خالق الزمان [٢].

وقد جاء ذكر الزمان في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، قال: وعرشه على الماء) [٣].

فالزمان كان مخلوقـاً ومقدّراً حينذاك، وقد جاءت ألفاظ القرآن لتؤكد هذه الحقيقة؛ في مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت: ٩-١٠]. فبين سبحانه مقدار المدة التي خلق فيها السماوات والأرض وما فيهما، وحددها

---

(١) مجموع الفتاوى، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥، ٢/ ٤٩٢.

(٢) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ٢/ ٤٩٢.

(٣) سبق تخريجه. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٩٠.

بأنها ستة أيام، قال ابن كثير: يخبر تعالى بأنه خلق العالم -سماواته وأرضه وما بين ذلك- في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن؛ والستة الأيام هي: الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت؛ وهو القطع [(١)].

وهذه الأيام لا يلزم منها أن تكون مثل أيام الدنيا في القدر والكيفية، وإنما هي من أيام الله التي يقدّرها كيف يشاء سبحانه، قال ابن كثير: عن ابن عباس ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [سورة الحج: ٤٧]، قال: من الأيام التي خلق الله فيها السماوات والأرض [(٢)].

وأما قوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: ٤]، يقول: لو وَلِيَ حسابَ الخلائق غيرُ الله ما فرغ منه في يوم مقداره خمسون ألف سنة، ويفرغ الله منه مقدار نصف يوم من أيام الدنيا إذا أخذ في حساب الخلائق، فذلك قوله: ﴿وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٤٧]. يعني: سرعة الحساب [(٣)].

وقال ابن تيمية: والرسل أخبرت بخلق الأفلاك وخلق الزمان الذي هو مقدار حركتها، مع إخباره بأنها خلقت من مادة قبل ذلك، وفي زمان قبل هذا الزمان، فإنه سبحانه أخبر أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وسواء قيل: إن تلك الأيام بمقدار هذه الأيام المقدّرة بطلوع الشمس وغروبها، أو قيل: إنها أكبر منها،

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٩٢-٩٣.

(٢) ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٢٢٨.

(٣) الرد على الجهمية والزنادقة، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط ١، ص ٩٣.

كما قال بعضهم: إن كل يوم قدره ألف سنة، فلا ريب أن تلك الأيام التي خلقت فيها السماوات والأرض غير هذه الأيام، وغير الزمان الذي هو مقدار حركة هذه الأفلاك، وتلك الأيام مقدّرة بحركة أجسام موجودة قبل خلق السموات والأرض.

وقد أخبر سبحانه أنه خلق السماوات والأرض في مدة، ومن مادة، ولم يذكر القرآن خلق شيء من لا شيء، بل ذكر أنه خلق المخلوق بعد أن لم يكن شيئًا، كما قال: ﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا﴾ [سورة مريم: ٩]، مع إخباره أنه خلقه من نطفة [١].

وقدرة الله لا يحدّها وصف، ولا تخضع لتصور، ولا يقف دونها حائل أو مانع، فهو سبحانه قادر على أن يجري الأحداث الكثيرة في الزمن القصير الذي لا تجري فيه عادة، بل ولا يتصور في إطار حدود الحسّ أن تجري فيه، ولنتأمل قصة الإسراء والمعراج لنجد فيها ما يبين قدرة الله سبحانه في التصرف في الزمان والمكان على الكيفية التي يريد، وأنه القادر على كل شيء بحق سبحانه؛ فقد أسرى برسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من بيت الله الحرام من مكة إلى بيت المقدس في الشام، ثم صلى فيه بالأنبياء، ثم عُرج به إلى السماء، يستفتح له عند كل سماء، ورأى عدداً من الأنبياء؛ يسأل عنهم، وكلّم بعضهم، ورأى أهل النار، ودخل الجنة، ووصل إلى مكان سمع فيه صريف أقلام الملائكة، وفرضت عليه الصلاة في تلك الرحلة العظيمة، ثم هبط إلى الأرض، ورجع إلى فراشه في مكة في أقل من ليلة، وليس هذا بغريب ولا مستحيل، فإن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي خلق الزمان، وخلق أفعال العباد، وهو القادر على أن يتصرف فيها بما شاء، وأن يصرفها على ما يشاء، وأن يجعل فيها ما يخرق به عادتها وطبيعتها، ولذلك لما قالت قريش لأبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ذلك مستنكرة شامتة بما قاله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: والله لئن كان قاله

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١٨/ ٢٣٠-٢٣٦، بتصرف.

لقد صدق؛ فما يعجبكم من ذلك؟ فو الله إنه ليخبرني أن الخبر ليأتيه من الله من السماء إلى الأرض في ساعة من ليل أو نهار فأصدقه، فهذا أبعد مما تعجبون منه، ثم أقبل حتى انتهى إلى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: يا نبي الله، أحدّثت هؤلاء القوم أنك جئت بيت المقدس هذه الليلة؟ قال: «نعم». قال: يا نبي الله، فصفه لي فإنّي قد جئته، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فرُفع لي حتى نظرت إليه، فجعل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصفه لأبي بكر، ويقول أبو بكر: صدقت، أشهد أنك رسول الله، حتى إذا انتهى، قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأبي بكر: وأنت يا أبا بكر الصديق، فيومئذٍ سماه الصديق [١].

وبعد أن تحدثنا عن مبتدأ خلق الزمان قبل خلق السماوات والأرض جاء الحديث عن الزمان في الحياة الدنيا والمرتبط بحركة الشمس والقمر، فبحركة الشمس يعرف اليوم الزماني، وبحركة القمر يعرف الشهر، ومن ثم السنة، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا﴾ [سورة الفرقان: ٦١- ٦٢]، أي جعلهما يتعاقبان توقيتاً لعبادة عباده له عَزَّوَجَلَّ، فمن فاته عمل الليل استدركه في النهار، ومن فاته عمل النهار استدركه في الليل[٢]، وقال سبحانه: ﴿يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤].

فاليوم هو مجموع الليل والنهار، يخلف بعضهما بعضاً في حركة مرتبطة بحركة الشمس وجريانها حول الأرض [٣].

(١) تهذيب سيرة ابن هشام، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٩٥٨، ص ٩٤-٩٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٣٢٤.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٩٦.

كما جعل الله القمر مدار تحديد مدة الشهر، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ﴾ [سورة التوبة: ٣٦].

ففي هذه الآية الكريمة يُقرر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن كون شهور السنة اثني عشر شهراً هو من وضعه عَزَّوَجَلَّ وليس من وضع البشر، وأن ذلك مقرَّر عنده يوم خلق السماوات والأرض وليس أمراً حادثـاً أو جديداً، والمقصود هنا بالشهور الشهور القمرية لا الشمسية، وإن توافقت في كون عدة كل منها اثني عشر شهراً؛ لأن الأشهر الأربعة هي ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب، كما في حديث البخاري ومسلم، وهي أشهر قمرية وليست شمسية [١].

عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطب في حجته فقال: (ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض؛ السنة اثنا عشر شهراً؛ منها أربعة حرم؛ ثلاثة متواليات؛ ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان) [٢]، وعن ابن عباس قال: وقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: (إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض) تقرير منه صلوات الله وسلامه عليه، وتثبيت للأمر على ما جعله الله في أول الأمر؛ من غير تقديم ولا تأخير، ولا زيادة ولا نقص، ولا نسيء ولا تبديل، كما قال في تحريم مكة: إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض فهو حرام بحرمة الله تعالى إلى يوم القيامة، وهكذا قال ها هنا: إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض [٣].

---

(١) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ٩٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٣٥٤.

١. المشركون يعبثون بالتوقيت

وقد عبث المشركون في الجاهلية بترتيب هذه الشهور، وهو المسمى في كتاب الله بالنسيء، أي تأخير الشهور عن مواضعها، وسبب ذلك -كما يقول المفسّرون- أن العرب كانوا أصحاب حروب وغارات، فكان يشق عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغيرون فيها، وقالوا: لئن توالت علينا ثلاثة أشهر لا نصيب فيها لنهلكنّ، فأخّروا حرمة محرم إلى صفر، وهو النسيء، وقد سمى الله عَزَّوَجَلَّ ذلك زيادة في الكفر، لما فيه من اعتداء على ما وصفه الله من نواميس كونية، وأحكام شرعية، وإضلال للناس بإباحة خرقهم لحرمة الأشهر التي حرّمها الله، إذ إن مما يترتب على ذلك أن يحج الناس في غير موسم الحج ويصوموا في غير موسم الصوم، وهكذا قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [سورة التوبة: ٣٧].

٢. حكمة خلق الشهور

ومن حكمة وضع الشهور وتسميتها وتوقيفها أنه بذلك يتمكن الناس من معرفة مواقيت عباداتهم، وضبط آجال عقودهم ومعاملاتهم، وقد بين الله سبحانه هذه الحكمة العظيمة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩]، وروي عن عطاء والضحاك وغيرهما في ذلك: جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم [1].

وقال القرطبي: في ذلك تبيين لوجه الحكمة في زيادة القمر ونقصانه؛ وهو زوال الإشكال في الأيمان والمعاملات والحج والعُدَد والصوم والفِطر ومدة الحمل

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٩٩.

والإجارات والأكرية، إلى غير ذلك من مصالح العباد، ونظيره قوله الحق: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٢]، وقوله: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس: ٥]، وإحصاء الأهلة أيسر من إحصاء الأيام [1].

٣. الأسبوع لا يُعرف إلا بالوحي

أما أيام الأسبوع وتحديد أسمائها فهو مما اختص به أهل الوحي والشرائع السماوية، وهو تحديد توقيفي من الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لا يدرَك بحساب ولا يعقل؛ لأنه لا شيء من ذلك يدل على تحديدها وتسميتها، وفي هذا يقول ابن تيمية: إن الله تعالى أرسل الرسل وأنزل الكتب لدعوة الخلق إلى عبادته وحده لا شريك له، وذلك يتضمن معرفته لما أبدعه من مخلوقاته، وهي المخلوقات المشهودة الموجودة؛ من السماوات والأرض وما بينهما، فأخبر في الكتاب الذي لم يأتِ من عنده كتاب أهدى منه بأنه خلق أصول هذه المخلوقات الموجودة المشهودة في ستة أيام، ثم استوى على العرش، وشرع لأهل الإيمان أن يجتمعوا كل أسبوع يومـًا يعبدون الله فيه ويحتفلون بذلك، ويكون ذلك آية على الأسبوع الأول الذي خلق الله فيه السماوات والأرض، ولما لم يُعرف الأسبوع إلا بخبر الأنبياء فقد جاء في لغتهم عليهم السلام أسماء أيام الأسبوع، فإن التسمية تتبع النصوص، فالاسم يعبر عما تصوره، فلما كان تصور اليوم والشهر والحول معروفـًا بالعقل؛ تصورت ذلك الاسم وعبّرت عن ذلك، وأما الأسبوع فلما لم يكن في مجرد العقل ما يوجب معرفته فإنما عرف بالسمع، وصارت معرفته عند أهل السمع المتلقّين عن الأنبياء

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ٢/ ٣٤٢.

دون غيرهم، وحينئذٍ أخبروا الناس بخلق هذا العالم الموجود المشهود وابتداء خلقه، وأنه خلق في ستة أيام [(١)].

فالوثنيون المنقطعون عن الوحي لا يمكنهم معرفة تحديد تلك الأيام ولا التفريق بينها، وقد ذُكِرَ أن الشيوعيين في الاتحاد السوفييتي -إمعانـًا منهم في الإلحاد- قد غيّروا أيام الأسبوع إلى خمسة أيام في بداية الثورة البلشفية، ثم إلى ستة أيام، وعادوا بعد ذلك إلى الأيام السبعة، وذلك أنهم بحكم إلحادهم ورفضهم لما له صلة بالدين وجدوا أن إثبات أيام الأسبوع نوع من الاعتراف بمصدرية الدين، وعلاقته بالحياة، لأنه دليل مادي على تسمية أيام الأسبوع وكونها سبعة أو خمسة أو ستة [(٢)].

سادسـًا: الأرض خُلقت قبل السماوات

ومما يدل على أن الأرض خُلقت قبل السماوات، قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝١٠ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ۝١١ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [سورة فصلت: ٩-١٢].

وفي الآيات الكونية إشارة إلى ثلاث حقائق كونية؛ خلق الأرض وتقدير الأقوات فيها في أربعة أيام قبل السماء، وأصل الكون المادي من الدخان، والدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها ستة أيام.

---

(١) مجموع الفتاوى، ابن تيمية، مرجع سابق، ١٨/ ٢٣٠-٢٣٦.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٠٠.

إن العلوم الفضائية والعلوم الطبيعية ما زالت تحاول التعرف على أصل الكون ونشأته، والمادة الأولية التي تتكون منها الأجرام السماوية، وطريقة تشكيلها، ولقد درسوا ملياً ما يقع على الكرة الأرضية من خارج مجالها من النيازك (١)، والأتربة الكونية، وما حصلوا عليه من قِطَع من سطح القمر، كل ذلك يؤكد وحدة أصل الكون المادي، وأصبح ذلك حقيقة علمية عندهم، ولكنهم لم يستطيعوا تحديد الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمجرات، ولن يستطيعوا ذلك إلا ظناً وتخميناً، قال تعالى: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: ٥١].

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد وساق حقائق كونية في غاية الوضوح: قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴿٣١﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠-٣٢]. ويفصّل في آيات أخرى مراحل الخلق والتكوين، فيقول جَلَّجَلَالُهُ: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١].

وأما قوله سبحانه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [سورة النازعات: ٢٧-٣١].

---

(١) النيزك: كتلة صلبة تخترق الغلاف الجوي وتصل إلى الأرض.

وهو ما يوحي بأن السماء خُلقت قبل الأرض، حيث قال سبحانه: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فقد فرّق العلماء هنا بين الخلق والدَّحي، وأن الخلق غير الدَّحي، الذي يعني إخراج الماء والمرعى وإرساءها بالجبال، وفي هذا يقول ابن كثير: ففي هذه الآية أن دحي الأرض كان بعد خلق السماء، فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص، وبهذا أجاب ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فيما ذكره البخاري في تفسير هذه الآية من صحيحه قال: وخلق الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى: «دحاها»، وقوله: «خلق الأرض في يومين»، فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام، وخلق السماوات في يومين [(١)].

إن الآيات في سورة فصلت بيّنت أن خلق الأرض ووضع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام كل ذلك قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات، وهذه الحقيقة لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض؛ لأن وسائل البشر محدودة، فلا يستطيعون أن يخترقوا بوسائلهم المادية حُجُب غيب الماضي ليعرفوا تكوين الأجرام الكونية السابق منها عن اللاحق [(٢)].

وأما الحقيقة الثالثة في آيات سورة «فصلت»، فهي الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها في ستة أيام، وقد اختلف المفسرون قديماً في مقدار اليوم المقصود من الآيات الكريمة؛ فاليوم الاصطلاحي الذي ترتبط به الأحكام التكليفية من الصوم والصلاة والعدة وغير ذلك هو من مطلع الفجر أو الشمس إلى

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٠٣.

(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٢٦.

غروبها، إلا أن هذه المدة الزمنية المُعيَّنة لا تقدر بهذا المقدار إلا بعد وجود الأرض والشمس ووجود دوراتهما في أفلاكهما، والحديث هنا عن خلق الأرض والسماء، فكيف تقدر قبل وجودهما؟

وإن هذا ما دفع بعض المفسرين للذهاب إلى تقدير تلك الأيام بفترة زمنية تتناسب مع أدوار التكوين، فعن مجاهد: يوم من الأيام الستة كألف سنة مما تعدون، وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: ٤٧]. وجاء في سورة المعارج قوله تعالى: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ [سورة المعارج: ٤].

ويَذهب علماء الفلك المعاصرون إلى ما يطلقون عليه «النسبة الزمنية»، وأن لكل كوكب وحدته الزمنية الخاصة به، وذلك يقدر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها [١]. وإطلاق القرآن الكريم اسم اليوم على مقدار ألف سنة تارة وخمسين ألف سنة تارة أخرى يشير إلى مفهوم النسبية هذا. هذا ما جعل الباحثين في أصل تكوين الأجرام السماوية يطلقون اصطلاح الدورات التكوينية؛ فالدور الأول كون الأرض مع السماء رتقًا، والدور الثاني انفصال الأرض عن السماء، والدور الثالث والرابع هما دور تهيئة الأرض للحياة بإرساء الجبال فيها وتقدير الأقوات وخلق الحياة، إلا أن تقدير هذه الدورات بالمدد الزمنية تتفاوت أقوالهم فيها، وهم في ذلك يتّبعون الظن، وما هم بمستيقنين [٢].

١. الأرضون سبع

ذكر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أنه خلق سبع أرضين، كما خلق سبع سماوات، فقال

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٢٨.

(٢) مباحث في إعجاز القرآن، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط ٢، ١٤١٦، ص ١٨٣.

سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: ١٢].

وفي الصحيح عن موسى بن عقبة عن سالم عن أبيه قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (من أخذ شيئًا من الأرض بغير حقه خسف به يوم القيامة إلى سبع أرضين) [١].

قال ابن تيمية: وقد خلق الله سبع أرضين، بعضهن فوق بعض، كما ثبت في الصحاح عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: (من ظلم شبراً من الأرض طُوقه من سبع أرضين يوم القيامة)، وقد ذكر أبو بكر الأنباري الإجماع على ذلك، وأراد به إجماع أهل الحديث والسنة [٢].

٢. مدة خلق الأرض

بيّن الله عَزَّوَجَلَّ أنه خلق الأرض في يومين، وخلق سبحانه الجبال وقدّر أقوات الأرض ومصالحها في يومين آخرين، فاستغرق خلق الأرض وما فيها أربعة أيام، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِى أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت: ٩-١٠]، ففصّل ههنا ما يختص بالأرض مما اختص بالسماء، فذكر أنه خلق الأرض أولاً لأنها كالأساس، والأصل أن يبدأ بالأساس ثم بعده السقف.

وقوله: «خلق الأرض في يومين» يعني يوم الأحد ويوم الاثنين، «وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها» أي: جعلها مباركة قابلة للخير والبذر والغراس، «وقدر فيها أقواتها» وهو ما يُحتاج إليه من الأرزاق والأماكن التي تزرع وتغرس،

---

(١) فتح الباري شرح البخاري، ابن حجر، المرجع السابق، ١/ ٣٣٨.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٠٥.

يعني يومي الثلاثاء والأربعاء، فهما مع اليومين السابقين أربعة، ولهذا قال: «أربعة أيام سواء للسائلين»، وقال مجاهد وعكرمة في قوله عَزَّوَجَلَّ: «وقدّر فيها أقواتها»: جعل في كل أرض ما لا يصلح في غيرها، ومنه العَصَبُ باليمن، والسابِرِيُّ بسابور، والطيالسة بالري [١].

وقال ابن كثير: «وبارك فيها وقدَّر فيها أقواتها» أي: هيّأ أماكن الزرع ومواضع العيون والأنهار، ثم لما أكمل خلق صورة العالم السفلي والعلوي دحى الأرض، فأخرج منها ما كان مودعاً فيها، فخرجت العيون وجرت الأنهار ونبت الزرع والثمار، ولهذا فسر الدحي بإخراج الماء والمرعى منها وإرساء الجبال، فقال: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [النازعات: ٢٧-٣٣]، أي: قررها في أماكنها التي وضعها فيها وثبّتها وأكّدها وأطّدها [٢].

٣. كروية الأرض

يشير القرآن الكريم في بعض من آياته إلى أن الأرض كروية الشكل، فهي بذلك ليست في حقيقتها ممتدة امتداداً ينتهي عند حافة من الحواف، كما كان يتصور الأقدمون ويعتقدون، ولكن الأرض ذات شكل بيضوي كالكرة، وذلك ما تقتضيه سنة الطبيعة في دورتها الرتيبة المنتظمة، وما تقتضيه عجلة الكون المتحرك الدقيق، ولو لم تكن الأرض على هذا النحو من الاستدارة لتعطّلت نواميس الخلق على هذا الكوكب، ولباتت الحياة على ظهره مشلولة أو مستحيلة، ومن الآيات الدالة على كروية الأرض قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾ [سورة يس: ٤٠].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٩٣.

(٢) البداية والنهاية، ابن كثير، مرجع سابق، ١/ ١٦.

فقد جاء ذلك رداً على السابقين لفهمهم أن اليوم يكون مبدوءاً بالنهار ثم يعقبه الليل، فكأن الله سبحانه يقول لهم: لا يسبق النهار الليل، ولا يسبق الليل النهار، ولكنهما موجودان معـًا وفي آنٍ معـًا (١).

ومن المعلوم أن أجزاء الأرض تتفاوت فيما بينها من حيث إقبال النهار بضيائه أو حلول الليل بسواده، فبينما تزهو بقاع من الأرض بضياء الشمس تسكن بقاعٌ أخرى من الأرض بعد أن أرقدها الليل بظلامه، وذلك كله لا يقع بالتعاقب، ولكنه واقع في الآن نفسه، ما يدل على أن الأرض كروية؛ استناداً إلى الظاهر من دلالة النص القرآني: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [سورة الزمر: ٥]، وقوله: «يكور» من التكوير؛ وهو اللفّ، تقول: كار الرجل العمامة كوراً بمعنى أدارها على رأسه، وكوّرت الشيء: إذا لففته على جهة الاستدارة، وذلك كقوله تعالى: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ [سورة التكوير: ١]. يعني: طويت كطي السجل (٢).

ولابن جرير الطبري في تفسيره: «يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل» أي: يُغشي هذا على هذا، وهذا على هذا، كما قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [سورة الحديد: ٦] (٣).

يستفاد مما ورد في التكوير أن المراد به اللف على هيئة الاستدراة، وبذلك فإن تكوير الليل على النهار يعني انبساطه عليه بغشائه الملتف، وذلك على النحو

(١) معجزة القرآن، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٧٨، ص ٩٤.

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ٢/ ٢٠٥. أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط ٨، ٢٠٠٥، ٢/ ١٣٤.

(٣) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ١٦٢.

المستدير، وفي ذلك دلالة على أن الأرض مستديرة في هيئتها طبقاً لصورة الغشاء الذي يلفّ الأرض لفّاً دائرياً على شكل الكرة [١].

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آيات إيلاج الليل في النهار، وإيلاج النهار في الليل؛ قال تعالى: ﴿تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [آل عمران: ٢٧]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحج: ٦١]، وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [سورة الحديد: ٦].

والولوج لغة هو الدخول، ولما كان من غير المعقول دخول زمن على زمن آخر اتضح لنا أن المقصود بكل من الليل والنهار هو المكان الذي يتغشّاه زمن كل من الليل والنهار، أي: الأرض، بمعنى أن الله تعالى يُدْخِل نصف الأرض الذي يخيّم عليه ظلام الليل بالتدريج في مكان النصف الذي يعمّه نور النهار، وهو ما يشير إلى كل من كروية الأرض ودورانها حول محورها أمام الشمس بطريقة غير مباشرة، ولكنها تبلغ من الدقة والشمول والإحاطة ما يعجز البيان عن وصفه [٢].

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آية سلخ النهار من الليل؛ قال تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ﴾ [سورة يس: ٣٧]، ومعنى ذلك أن الله تعالى ينزع نور النهار من أماكن الأرض التي يتغشّاها الليل بالتدرج كما ينزع

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ٩/ ١٢٣.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، زغلول محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥، ص ٢٦٨-٢٧٠.

جلد الذبيحة عن كامل بدنها بالتدرج، ولا يكون ذلك إلا بدوران الأرض حول محورها أمام الشمس، وفي هذا النص القرآني سبق بالإشارة إلى رقة طبقة النهار في نصف الكرة الأرضية المواجهة للشمس، وهي حقيقة لم يُدركها الإنسان إلا بعد زيارة الفضاء في النصف الثاني من القرن العشرين، واتضحت كذلك لمحة الإعجاز القرآني في تشبيه انحسار طبقة النهار الرقيقة من غلاف الأرض بسلخ جلد الذبيحة عن بدنها.

وفيه تأكيد أن الظلام هو الأصل في الكون، وأن نور النهار ظاهرة رقيقة عارضة لا تظهر إلا في الطبقات الدنيا من الغلاف الغازي للأرض في نصفها المواجه للشمس، الذي يتحرك باستمرار مع دوران الأرض حول محورها أمام الشمس [(١)].

ومن الآيات الدالة على دوران الأرض آية مرور الجبال مرّ السحاب:

يقول الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [سورة النمل: ٨٨]، ومرور الجبال مرّ السحاب هو كناية عن دوران الأرض حول محورها، وعن جريها وسبحها في مداراتها، وذلك لأن الجبال جزء من الأرض، ولأن الغلاف الغازي للأرض الذي يتحرك فيه السحاب مرتبط كذلك بالأرض برباط الجاذبية، وحركته منضبطة مع حركة كل من الأرض والسحاب المسخر فيه [(٢)].

ومن الآيات الدالة على كروية الأرض ودورانها آيات غشيان الليل والنهار؛ قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ

---

(١) النجار، المرجع نفسه، ص ٢٧٠-٢٧١.

(٢) المعجزة الخالدة، علي الصلابي، مرجع سابق، ص ١٦٤.

مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]، وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: ٣]، ومن معاني «يُغشي الليل النهار» أن الله يغطّي بظلمة الليل مكان نور النهار على الأرض بالتدريج فيصير ليلاً، ويغطّي بنور النهار مكان ظلمة الليل على الأرض بالتدريج فيصير نهاراً، وهي إشارة لطيفة إلى كل من كروية الأرض ودورانها، ودورانها حول محورها أمام الشمس دورة كاملة في كل يوم مدته في زمننا الحالي «٢٤» ساعة، يتقاسمها بتفاوت قليل الليل والنهار، في تعاقب تدريجي ينطق بطلاقة القدرة الإلهية المبدعة، فلو لم تكن الأرض كروية الشكل لما استطاعت الدوران حول محورها، ولو لم تدر حول محورها أمام الشمس لما تبادل الليل والنهار [١].

٤. الأرض تتحدث وتخاف وتبكي

جاء الحديث القرآني عن الأرض كما لو أنها كائن حي ناطق، وفي أكثر من آية، والله سبحانه خلق الخلق وأودع فيهم ما يشاء من القدرة والحياة والفعل على الكيفية التي يريدها سبحانه، فقد قال الله تعالى وتقدس عن السماوات والأرض: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَايِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ١١]، قال الحسن البصري: لو أَبَيَا عليه أمرَهُ لعذَّبَهما عذاباً يجدانِ أَلَمَه [٢].

كما أنها تتحدث يوم القيامة بما أحدث الناس على ظهرها من خير وشر، كما في قوله سبحانه: ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا﴾ [سورة الزلزلة: ٤]، أي: تحدّث بما عمل

(١) من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص ٢٧٢.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١١٣.

العاملون على ظهرها من خير وشر، كما في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (أتدرون ما أخبارها؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: فإن أخبارها أن تشهد على كل عبد أو أمَةٍ بما عمل على ظهرها؛ أن تقول عمل كذا وكذا يوم كذا وكذا، قال: فهذه أخبارها)[(١)].

ووصفها الله بالخوف والإشفاق والتأبّي تعظيماً لأمر الله، مع عدد من مخلوقاته العظيمة؛ حينما عرض سبحانه عليها أمانة التكليف، يقول عز وتقدس: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢].

ووصفها الله بالموت والحياة في مشاهد حسية حينما بلغها الجفاف والقحط، أو حينما ينزل عليها المطر فتنبت وتزدهر وتهتز بالعشب الأخضر الرفراف.

ووصفها بأنها تبكي، كما في قوله سبحانه: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ﴾ [سورة الدخان: ٢٩]، ففيه إثبات البكاء للسماء والأرض، وأنهما لا تبكيان على الكافرين بل تبكيان على فراق المؤمن الصالح في هذه الدنيا، وليس بالضرورة أن يكون هذا البكاء بدموع وأنين حتى يشبه بكاء الإنس والجن، ولكنه بكاء خاص بهما لا يعلمه إلا خالقهما [(٢)].

يقول ابن تيمية: بكاء كل شيء بحسبه؛ قد يكون خشية لله، وقد يكون حزناً على فراق المؤمن [(٣)]، وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود؟ وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتكبيره وتسبيحه فيها دوي كدوي

(١) الخرعان، المرجع نفسه، ص ١١٣. رواه الترمذي، رقم: ٢٤٢٩.

(٢) عبودية الكائنات لرب العالمين، فريد إسماعيل التوني، رسالة ماجستير في العقيدة، جامعة أم القرى، كلية الدعوة وأصول الدين، فرع العقيدة، ص ٣٣٤.

(٣) جامع الرسائل، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط ١، ٢٠٠١، ص ٣٧.

النحل؟ وهذا تعبير عن مدى العلاقة الوثيقة بين هذه المخلوقات العظيمة وبين عباد الله الصالحين، وهي علاقة العبودية لله عَزَّوَجَلَّ، وأيّ معنى عظيم في هذه العلاقة التي تجعل المسلم منسجماً مع ما حوله من المخلوقات التي سخّرها الله عَزَّوَجَلَّ لعبادته؟! وأي حرمان وخسارة يعيشها الكافر والمنافق، بل وأصحاب المعاصي، وأي وحشة يجدونها بينهم وبين ما حولهم من خلق الله الذين يعبدون الله ويسبحونه، وهم يعصونه ويكفرون به؟ (١)

قال ابن القيم: وإذا نظرت إلى الأرض وكيف خُلقت رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها؛ خلقها سبحانه فراشاً ومهاداً، وذلّلها لعباده، وجعل فيها أرزاقهم وأقواتهم ومعايشهم، وجعل فيها السبل لينتقلوا فيها في حوائجهم وتصرفاتهم، وأرساها بالجبال، فجعلها أوتاداً تحفظها لئلا تميد بهم، ووسّع أكنافها ودحاها، فمدّها وبسطها، وطحاها فوسّعها من جوانبها، وجعلها كفاتاً للأحياء تضمّهم على ظهرها ما داموا أحياء، وكفاتاً للأموات تضمهم في بطنها إذا ماتوا، فظهرها وطن للأحياء وبطنها وطن للأموات، وقد أكثر تعالى من ذكر الأرض في كتابه، ودعا عباده إلى النظر إليها والتفكر في خلقها (٢).

قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ﴾ [سورة الذاريات: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [سورة غافر: ٦٤]، وقال تعالى: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ [سورة البقرة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ۝ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ۝ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ۝ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾ [سورة الغاشية: ١٧- ٢٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الجاثية: ٣].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١١٤.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٩٩.

وهذا كثير في القرآن، فانظر إليها وهي ميتة هامدة خاشعة، فإذا أنزل الله عليها الماء اهتزت فتحركت ورَبَت، فارتفعت واخضرّت وأنبتت من كل زوج بهيج، فأخرجت عجائب الأقوات على اختلافها، وتباين مقاديرها، وأشكالها، وألوانها، ومنافعها، والفواكه، والثمار، وأنواع الأدوية، ومراعي الدواب والطير.

ثم قِطَعُهَا المتجاورات، وكيف ينزل عليها ماء واحدًا فتنبت الأزواج المختلفة المتباينة في اللون والشكل والرائحة والطعم والمنفعة؛ واللَّقاح واحد والأم واحدة، كما قال تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد: ٤].

فكيف كانت هذه الأجنّة المختلفة مودَعة في بطن هذه الأم؟ وكيف كان حملها من لَقاح واحد؟ صنع الله الذي أتقن كل شيء لا إله إلا هو، ولولا أن هذا من أعظم آياته لما نبّه إليه عباده وهداهم إلى التفكير فيه [١].

إن هذه الأرض هي مستقر بني آدم، فيها معاشهم ومسكنهم وموطن رزقهم وكدّهم وكسبهم، وهي مقرّ إقامتهم في هذه الحياة الدنيا، منها خُلقوا وإليها يعودون، ومنها يُخرجون للبعث والحساب، كانت أول ما خلق الله من هذا العالم المشهود قبل السماوات والشمس والقمر والنجوم والكواكب، وقبل الشجر والجبال والدواب، منها خلق آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ فهي مخلوقة قبل خلق البشر، خلقها لهم لتكون مستقراً لهم، وإقامة في هذه الحياة الدنيا، وجعلها الله لهم فراشـًا ومهاداً وذلولاً يمشون في مناكبها وأرجائها لتدبير معاشهم وتدبّر عظمة خالقهم، فهي مسكن هُيّئ لساكنيه قبل أن يوجدوا، ووُضع لهم فيه معاشهم وقِوام حياتهم قبل أن يُخلقوا، فسبحان الله المبدع القدير، العظيم في خلقه وأمره، الذي خلق فأبدع ودبّر فأحكم،

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ١٩٩-٢٠٠.

علّم كل شيء قبل أن يكون، أحاط بكل شيء علماً، وجعل لكل شيء سبباً، جعلها الله دليلاً على قدرته وحكمته وبديع صنعه، وشاهداً على وحدانيته وعظمته في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته [١].

سابعـاً: خلق الجبال

الجبال خلق من مخلوقات الله العظيمة، ذكرها الله في كتابه العزيز في أكثر من أربعين موضعـاً؛ تتحدث عن صفاتها ووظائفها وخصائصها، وتدعو إلى التأمل فيها والتدبر في كيفية خلقها، وتشير إلى شيء من عظيم قدرة الله في تكوينه لها، وشدة بنائها، كما تتحدث عن مصيرها ومآلها يوم تبدّل الأرض غير الأرض والسماوات، وكيف تتحول هذه الجبال مع عظمتها وقوة خلقها هباء منبثـاً وكالعهن المنفوش [٢].

١. الجبال خلقت بعد الأرض

تشير الآيات القرآنية إلى أن خلق الجبال جاء بعد خلق الأرض؛ بمعنى أن الأرض خلقت أولاً، ثم خلقت فيها الجبال بعد ذلك، كما في قوله سبحانه: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٢٩﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ﴿٣١﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [سورة النازعات: ٢٧-٣٢].

وقد سبق القول -كما ذكر المفسرون- بأن الدحي هنا للأرض جاء بعد الخلق الأول لها، وبعد خلق السماء كذلك، وعلى هذا فخلق الجبال هو بعد الدحي ومرتبط به، قال به كثير.

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٠١.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ١١٧.

«والجبال أرساها» أي: قررها وأثبتها وأكدها في أماكنها، عن أنس بن مالك عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت) [(١)].

وقد وصفها الله بأنها رواسٍ، كما في قوله سبحانه: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣١]، وأنها رواسٍ شامخات كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [سورة المرسلات: ٢٧]، ووصفها بأنها أوتاد في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [سورة النبأ: ٧]، ودعا عَزَّوَجَلَّ إلى النظر إليها كيف نصبت في قوله: ﴿وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ﴾ [سورة الغاشية: ١٩] [(٢)].

٢. الجبال في منهج القرآن الكريم:

جاء حديث القرآن عن الجبال على وجوه كثيرة؛ منها:

– شاهدة على تعنّت الفئة الكافرة التي رفضت عبادة الله عَزَّوَجَلَّ، قال تعالى: ﴿وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ يَا بُنَيَّ ارْكَبْ مَعَنَا وَلَا تَكُنْ مَعَ الْكَافِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَآوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ قَالَ لَا عَاصِمَ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ وَحَالَ بَيْنَهُمَا الْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ الْمُغْرَقِينَ﴾ [سورة هود: ٤٢-٤٣].

– شاهدة على مهارة قوم صالح في النحت والصناعة، وشاهدة على تعنتهم وعصيانهم: قال تعالى: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ ﴿٨٢﴾ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ﴾ [سورة الحجر: ٨٢-٨٣].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١١٨. رواه أحمد، رقم: ١٢٢٥٤.

(٢) الخرعان، المرجع نفسه، ص ١١٨.

٣. عبودية الجبال لله

دلت النصوص الشرعية على أن الجبال تسجد لله تعالى وتُسبح وتخشع له، وأنها ثالث الكائنات التي عُرضت عليها الأمانة لحملها، وأنها جاءت بأفعال تدل على إدراكها، وإليك بيانَها في النصوص:

أ. **سجود الجبال لله تعالى:**

ذلك في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: ١٨]، فهذه الآية عامة في إثبات السجود لله تعالى من جميع الكائنات، والعطف يفيد أنها جميعـًا عابدة لله تعالى، فأما الكيفية فلا يعلمها إلا هو سبحانه، يقول ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن سجود الجبال: «وأما الجبال والشجر فسجودهما بفيء ظلالهما عن اليمين والشمائل» (١).

ب. **تسبيح الجبال:**

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٧٩]، وقال تعالى: ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ [سورة سبأ: ١٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالْإِشْرَاقِ﴾ [سورة ص: ١٨].

فالتسبيح في الآيات السابقة هو على الحقيقة، فقد جعل الله سبحانه لها إدراكـًا تسبّح به، واقترانها بالتسبيح مع داوُد عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ وتسخيرها لذلك هو من باب إظهار

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٢١١. التوني، عبودية الكائنات لرب العالمين، مرجع سابق، ص ٣١٤.

معجزة هذا النبي عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وكذلك استئناساً وإعانة له على التسبيح؛ بحيث تردد معه تسبيحه أو تسبح هي بأمره لها، فجعلها الله عَزَّوَجَلَّ مُسخَّرة لأمره عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ[١]، فالنداء في قوله تعالى: «يا جبال» للخطاب لمن يُدرِك.

ونورد هنا أقوال بعض العلماء [٢]: قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذكر الله تعالى ما آتاه من البرهان والمعجزة؛ وهو تسبيح الجبال معه، قال مقاتل: كان داوُد إذا ذَكَر الله عَزَّوَجَلَّ ذَكَرَتْ الجبال معه، فكان يفقه تسبيح الجبال، ثم قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنَّ ذلك تسبيح مقال على الصحيح من الأقوال، وكان عند طلوع الشمس وعند غروبها [٣].

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والتحقيق أن تسبيح الجبال والطير في قوله تعالى: ﴿وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُودَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ﴾ تسبيح حقيقي؛ لأن الله جَلَّ وَعَلَا يجعل لها إدراكات تسبّح بها، يعلَمُها هو جَلَّ وَعَلَا ونحن لا نعلمها، كما قال: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾[٤] [سورة الإسراء: ٤٤].

ج. خَشية الجبال:

قال تعالى: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [سورة الحشر: ٢١].

فالله عَزَّوَجَلَّ يذكّر الناس بخشيته والخوف منه سبحانه، وذلك باجتناب المعاصي وفعل الطاعات، فيضرب الله تعالى مثلاً بقياس الأَولى؛ فالجبل مع

---

(١) عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص ٣١٥.

(٢) التوني، المرجع نفسه، ص ٣١٥.

(٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٥/ ١٥٩.

(٤) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥، ٤/ ٦٧٢.

صلابته ومع افتراض نزول القرآن عليه فإنه يخشع لله تعالى، فالبشر مع تفضيل الله تعالى لهم على كثير من الكائنات أولى بأن يكونوا أكثر لله تعالى خشية [١].

يقول محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: فدل هذا كله على أنه تعالى وإن لم يُنَزِّل القرآن على جبل، لو أنزله عليه لرأيته كما قال تعالى: «خاشعـًا متصدعـًا من خشية الله» [٢].

كما -ذكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ تعالى- أمثلة أخرى لهذا التصدّع للجبال من خشيتها لله عَزَّوَجَلَّ، فيقول: وقد جاء في القرآن الكريم ما يدل على أقل من هذا التصدع في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [سورة الأحزاب: ٧٢]، فهذا نص صريح بأن الجبال أشفقت من حمل الأمانة، وهي أمانة التكليف بمقتضى خطاب الله تعالى لها، فإذا كانت الجبال أشفقت لمجرد العرض عليها فكيف بها لو أنزل عليها وكلفت بها [٣]؟

إن القرآن تحدث عن الجبال بما لم يتصوره باحث، أو يقف عليه دارس، إنه حديث عن عبودية هذه المخلوقات لربها وخالقها سبحانه، وذلها -على عظمتها وصلابتها- بين يدي موجدها وبارئها، بل إنها لتندك لتجلّي ربها إعظامـًا وإجلالاً وذلاً وخوفـًا، كما في قصة موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ عندما قال: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَى صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة الأعراف: ١٤٣].

---

(١) عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص ٣١٧.

(٢) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، الشنقيطي، مرجع سابق، ٨/ ١٠١.

(٣) عبودية الكائنات لرب العالمين، التوني، مرجع سابق، ص ٣١٧.

وذلك أن الجبل حين كُشِفَ الغطاء ورأى النور صار مثل دك من الدكاك، وقال بعضهم: «جعله دكـًا» أي: فتّته، وقال مجاهد في قوله: «ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني»، فإنه أكبر منك وأشد خلقـًا، «فلما تجلى ربه للجبل» فنظر إلى الجبل لا يتمالك وأقبل الجبل فدك على أوله، ورأى موسى ما يصنع الجبل فخرّ صعقـًا[1].

د. غضبة الجبال الكونية:

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: ٨٨-٩١].

فكانت هذه الغضبة الكونية التي اشتركت فيها السماوات والأرض والجبال حتى تحولت إلى زلزال كبير مدمّر بمجرد سماعهم لهذه الكلمة «وقالوا اتخذ الرحمن ولداً»، وكأن الكون كله قد تحول إلى أفواه مزمجرة تقول لهؤلاء المشركين: «لقد جئتم شيئـًا إدّاً»، لقد اهتزَّ كل ساكن، وارتجَّ كل مستقر، وغضب كل ما هو داخل هذا الكون غضبـًا شديداً لبارئه وخالقه؛ لأن هذه الكلمة صدمت كيانه وفطرته، وخالفت ما وقر في ضميره وعقله، وما استقر في كيانه وحسّه، وهزت القاعدة التي قام عليها الوجود واطمأن إليها، قال تعالى: ﴿أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ [سورة مريم: ٩١-٩٢].

وفي وسط هذه الثورة العارمة تدوّي في جنبات الكون اللانهائي آيات بينات، تنزيل من حكيم حميد[2].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٢٤.

(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ١٦٩.

قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [سورة مريم: ٩٣-٩٥].

ج-إعجاز الحديث القرآني عن خلق الجبال:

حديث القرآن الكريم عن خلق الجبال كان حديثاً مفصلاً بكونها أوتاداً ورواسي، وأنها ذات ألوان مختلفة متنوعة، وهو ما لم تعرفه البشرية من قبل، ولم يتوصل له العلم الحديث إلا منذ ما لم يزد عن أربعين سنة فقط، يقول الدكتور زغلول النجار في معرض حديثه عن بعض الاكتشافات العلمية المتعلقة بالجبال: هذه المعلومات المكتسبة عن الجبال بدأ الإنسان في جمع أطرافها ببطء شديد منذ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي، ولم يتبلور مفهوم صحيح لها إلا في منتصف الستينات من القرن العشرين، عندما كان مفهوم تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض في مرحلة التبلور النهائي له، وفي المقابل نجد أن القرآن العظيم الذي أوحاه الله تعالى إلى خاتم أنبيائه ورسله ﷺ يحوي من حقائق الكون -ومنها حديثه عن الجبال- ما لم يكن متوفراً لأحد في زمان نزوله، ولا لقرون متطاولة من بعد ذلك النزول(١).

ك. «والجبال أوتاداً»:

تشير الآية إلى أن الجبال أوتاد للأرض، والوتد يكون جزء منه ظاهراً على سطح الأرض ومعظمه غائراً فيها، ووظيفته التثبيت لغيره، بينما نرى علماء الجغرافيا والجيولوجيا يعرّفون الجبل بأنه كتلة من الأرض تبرز فوق ما يحيط بها، وهو أعلى من التل (٢).

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٢٣، منقول بتصرف.

(٢) بينات الرسول ومعجزاته، عبد المجيد الزنداني، دار الإيمان، القاهرة، ص ٨٨. لا تتوفر معلومات أخرى.

ويقول د. زغلول النجار: إن جميع التعريفات الحالية للجبال تنحصر في الشكل الخارجي لهذه التضاريس، دون الإشارة لامتداداتها تحت السطح، والتي ثبت أخيراً أنها تزيد على الارتفاع الظاهر بعدة مرات (١).

ثم يقول: ولم تكشف هذه الحقيقة إلا في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، عندما تقدم السير جورج آيري بنظرية مفادها أن القشرة الأرضية لا تمثل أساساً مناسباً للجبال التي تعلوها، وافترض أن القشرة الأرضية وما عليها من جبل لا تمثل إلا جزءاً طافياً على بحر من الصخور الكثيفة المرنة، ومن ثم فلا بد أن تكون للجبال جذور ممتدة داخل تلك المنطقة العالية الكاشفة؛ لضمان ثباتها واستقرارها (٢).

وهذه الحقيقة العلمية لم تُعرف إلا منذ أمد قصير؛ بعدما أمكن تصوير باطن الأرض بالوسائل الحديثة التي لم تكن معروفة قبل القرن العشرين، بل قبل النصف الأخير من هذا القرن، إذا وُجِدَ أن الجبل ليس هو الجزء الظاهر منه فوق سطح الأرض فقط، بل إنه مغروس كالوتد في باطن الأرض، وأن الجزء المغروس منه في باطن الأرض هو ما يثبت الجبل مكانه، وهذه الحقيقة لم تكن معروفة للعرب ولا لغيرهم وقت نزول القرآن، حتى يقال إن محمداً صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اقتبسها من علوم عصره، إنما هي إحدى الإشارات القرآنية الكونية التي وعد الله البشر بأنهم سيعلمونها يوماً من الأيام، ويعلمون أنها حق، ويتبينون أنها وحي من عند الله (٣).

ولقد وصف القرآن الجبال شكلاً ووظيفة، فقال تعالى: ﴿وَالْجِبالَ أَوْتاداً﴾ [سورة النبأ: ٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَلْقى فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [سورة لقمان: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنا فِي الْأَرْضِ رَواسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنا

(١) الزنداني، مرجع سابق، ص ٨٨، منقول بتصرف.

(٢) لا يأتون بمثله، محمد قطب، دار الشروق، ط ١، ٢٠٠٢، ص ١٩٦.

(٣) محمد قطب، المرجع نفسه، ص ١٩٦.

فِيها فِجاجاً سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣١]، والجبالُ أوتادٌ بالنسبة إلى سطح الأرض؛ فكما يختفي معظم الوتد في الأرض للتثبيت كذلك يختفي معظم الجبل في الأرض لتثبيت قشرة الأرض.

وكما تُثَبَّت السُّفُن بمراسيها التي تغوص في ماء سائل، فكذلك تثبت قشرة الأرض بمراسيها الجبلية التي تمتد جذورها في طبقة لزجة نصف سائلة تطفو عليها القشرة الأرضية [1].

وفيما يخص الجبال فثمة حقيقة؛ وهي أنها خُلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس، فهي -بجذور أوتادها المغروسة في باطن الأرض- تحفظ توازن الأرض، وتجعلها مستقرة ليستطيع البشر أن يعيشوا فوقها، وينشطوا نشاطهم، ويبنوا ما يبنون من منازل ومنشآت، ولولاها لظلت الأرض تميد بالناس وترتجّ بهم ذات اليمين وذات الشمال، فتحدث الزلازل بين الحين والحين، وبصدد تلك الرواسي جاء في سورة الرعد: ﴿وَهُوَ الَّذِى مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِىَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِى اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: ٣].

وهذه الآية وحدها تحمل حشداً من المعلومات العلمية متتابعة تتابعـًا علميـًا لم يكن يدركه الناس قبل اتساع معلوماتهم عن هذا الكون وما يجري فيه؛ فالرواسي -وهي الجبال- تحفظ توازن الأرض، وفي الوقت ذاته هي مصدات تصدّ الرياح المحملة ببخار الماء؛ فيصعد إلى الأعلى، فيبرد، فيتكاثف، فينزل إلى الأرض في صورة أمطار، ومن الأمطار الغزيرة تتولد الأنهار، ومن هنا نجد أن ذكر الأنهار بعد الرواسي ليس مجرد تعداد لآيات قدرة الله في الكون، وإنما هناك ترابط علمي بينهما، وهو ترابط السبب والنتيجة.

---

(١) بينات الرسول ومعجزاته، الزنداني، مرجع سابق، ص ٩٠.

ومرة أخرى يأتي الترابط العلمي فيما بين الأنهار والثمرات، فالأنهار هي التي تسقي الزروع فتنتج منها الثمار، وثمة حقيقة علمية أخرى؛ هي أن الثمرات أزواج، ولكن الذي يلفت النظر العلمي ذكر غشيان الليل النهار بعد ذكر الثمرات، وهذه حقيقة علمية لم تكن معروفة إلا أخيراً؛ وهي أن الثمرة تنمو في الليل، وأن غشيان الليل النهار أمر ضروري لإنضاج الثمرة، وأنه إذا لم يأخذ النبات حظه من الإظلام في الليل فإنه يضعف ويذوي [1].

هـ-زوال الجبال وفناؤها:

جاءت الآيات القرآنية الكريمة لتبين أن هذه الجبال يوم القيامة تكون كالصوف المنفوش، وأنها تسيّر، وأنها تُفتّت حتى تكون كالهباء المنبثّ في شعاع الشمس.

ويقال إن الله تعالى وصف الجبال بصفات مختلفة ترجع كلها إلى تفريع الأرض منها، وإبراز ما كانت تواريه؛ فأول الصفات: الاندكاك، وذلك قبل الزلزلة، ثم تصير كالعهن المنفوش، وذلك إذا صارت السماء كالمهل، وقد جمع الله بينهما فقال: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۝٨ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾ **[سورة المعارج: ٨-٩]**.

والحالة الثالثة: أن تصير كالهباء، وذلك أن تتقطع بعد أن كانت كالعهن، والحالة الرابعة: أن تُنْسَف لأنها مع الأحوال المتقدمة قارّة في موضعها والأرض تحتها غير بارزة، فتنسف عنها لتبرز، وذلك بإرسال الرياح عليها.

والحالة الخامسة: أن الرياح ترفعها على وجه الأرض فتظهرها شعاعـًا في الهواء، كأنها غبار، فمن نظر إليها من بُعد حسبها -لتكاثفها- أجساداً جامدة، وهي

(١) لا يأتون بمثله، قطب، مرجع سابق، ص ١٩٧.

في الحقيقة مارّة، إلا أن مرورها من وراء الرياح كأنها مندكة متفتتة، والحالة السادسة: أن تكون سرابـًا، فمن نظر إلى موضعها لم يجد منها شيئـًا إلا كالسراب[1].

قال ابن القيم عن الجبال: هذا وإنها لتعلم أن لها موعداً ويومـًا تنسف فيها نسفـًا، وتصير كالعهن من هوله وعظمته، فهي مشفقة من هول ذلك الموعد منتظرة له، وكانت أم الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا إذا سافرت فصعدت على جبل تقول لمن معها: أسمعت الجبال ما وعدها ربها؟ فيقال: ما أسمعها؟ فتقول: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا ﴿١٠٥﴾ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴿١٠٦﴾ لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [سورة طه: ١٠٥-١٠٧].

فهذا حال الجبال وهي الحجارة الصلبة، وهذه رقتها وخشيتها وتدكدكها من جلال ربها وعظمته، وقد أخبر عنها فاطرها وباريها أنه لو أنزل عليها كلامه لخشعت ولتصدعت من خشية الله، فيا عجبـًا من مضغة لحم أقسى من هذه الجبال، تسمع آيات الله تتلى عليها، ويُذكر الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ فلا تلين ولا تخشع ولا تُنيب، فليس بمستنكَر على الله عَزَّوَجَلَّ ولا يخالف حكمته أن يخلق لها ناراً تذيبها؛ إذ لم تلن بكلامه وذكره وزواجره ومواعظه، فمن لم يلن لله في هذه الدار قلبه، ولم يُنب إليه، ولم يُذبه بحبه والبكاء من خشيته، فليتمتع قليلاً فإن أمامه الملين الأعظم، وسيُرد إلى عالم الغيب والشهادة فيرى ويعلم [2].

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف: ٤٧].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٢٧.

(٢) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٢٠-٢٢١.

إنه مشهد تشترك فيه الطبيعة ويرتسم الهول فيه على صفحاتها وعلى صفحات القلوب، إنه مشهد تتحرك فيه الجبال الراسخة فتسير، فكيف بالقلوب؟ وتتبدى فيه الأرض عارية، وتبرز فيه صفحتها مكشوفة لا نجاد فيها ولا وهاد، ولا جبال فيها ولا وديان، وكذلك تتكشف خبايا القلوب فلا تخفى منها خافية [(١)]، قال تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [سورة الحاقة: ١٨]، فالجبال الراسية قد نسفت نسفًا، وتحطمت بعد أن كانت حصونـًا، وتساوت بالأرض بعد أن كانت تطاول السماء، وبعضها يبث كما يبث الدقيق، فيكون ذرات صغيرة متطايرة [(٢)].

وقد قال تعالى: ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ۝ فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [سورة الواقعة: ٥-٦]، إنه للهول الكبير الذي لا يبقي ولا يذر، إنها الواقعة الكبرى التي تبدل الأرض غير الأرض، والسماوات غير السماوات، والناس أين هم [(٣)]؟ قال تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۝٣٤ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۝٣٥ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ ۝٣٦ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [سورة عبس: ٣٤-٣٧] [(٤)]. ومن مشاهد يوم القيامة العظيمة: ﴿يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [سورة الحج: ٢][(٥)].

ثامنـًا: خلق السماوات

إن حديث القرآن الكريم عن قصة الخلق، لا سيما خلق السماوات والأرض،

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٢٧٤.

(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٣) التفسير العلمي المعاصر، سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥، ص ١٢٣.

(٤) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ١٧٠.

(٥) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٢٨.

حديث تكرّر في العديد من آياته العظيمة، وتناول الكثير من التفاصيل التي يعجز البشر عن إدراكها أو الوصول إليها؛ كالحديث عن الكون ومادة تخلّقه وأول ما خُلق منه، وترتيب خلقه، كما مرّ معنا في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ۝ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت: ٩١١].

وقد نفى الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن يكون لأحد معه نصيب في شهود هذه البداية العظيمة، فقال سبحانه: ﴿مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ [سورة الكهف: ٥١]، يقول تعالى: هؤلاء الذين اتخذتموهم أولياء من دوني عبيد أمثالكم؛ لا يملكون شيئًا، ولا أشهدتهم خلق السماوات والأرض، ولا كانوا إذ ذاك موجودين، يقول تعالى: أنا المستقل بخلق الأشياء كلها ومدبّرها ومقدّرها وحدي ليس معي في ذلك شريك ولا وزير ولا مشير ولا نظير [١].

يقول الدكتور زغلول النجار في هذا المعنى: إن قضية الخلق؛ خلق الكون، وخلق الحياة، وخلق الإنسان، لا يمكن أن تخضع للإدراك أو للمشاهدة المباشرة من أي من الجن أو الإنسان، ولذلك لا يستطيع أي عالِم تجريبي، بل أي إنسان، أن يتعدى فيها مرحلة التنظير، فلا يمكن لعالم يحترم نفسه أن يقول: نعم هكذا خُلق الكون أو هكذا سيفنى الكون، أو هكذا سيُعاد خلق الكون، فهذه القضايا لا تخضع للإدراك المباشر للعلماء، ولذلك لا يستطيع العالِم التجريبي أن يتجاوز فيها مرحلة التنظير [٢].

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٨٩.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، =

١. السماء والأرض كانتا ملتصقتين

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٠].

ومن التفاسير لهذه الآية: «أولم يرَ الذين كفروا» أي: الجاحدون لألوهيته العابدون معه غيره، ألم يعلموا أن الله هو المستقل بالخلق، المتفرد بالتدبير، فكيف يليق أن يُعبد معه غيره أو يشرك به سواه؟ ألم يروا: «أن السماوات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما»؟ أي: كان الجميع متصلاً بعضه ببعض، متلاصقاً، متراكماً بعضه فوق بعض في ابتداء الأمر، ففتق هذه من هذه، فجعل السماوات سبعاً والأرض سبعاً، وفصل بين السماء الدنيا والأرض بالهواء، فأمطرت السماء وأنبتت الأرض، ولهذا قال: ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾، أي: وهم يشاهدون المخلوقات، تحدث شيئاً فشيئاً عياناً، وذلك كله دليل على وجود الصانع الفاعل المختار القادر على ما يشاء.

وفي كل شيءٍ له آيةٌ تدلّ على أنّه واحدُ

«كانتا رتقاً ففتقناهما» قيل: كانت السماء واحدة ففتق منها سبع سماوات، وكانت الأرض واحدة ففتق منها سبع أرضين. وقال الحسن وقتادة: كانتا جميعاً ففصل بينهما بهذا الهواء [١].

إن دراسات علماء الفلك والكون تؤكد أن الكون كان كتلة متماسكة حارّة، ثم بدأ بانفجار مدوٍّ عظيم أدّى إلى انفصال الكتلة الملتحمة، وتفرقت أجزاؤها في أنحاء الفضاء، وكانت درجة الحرارة عالية جداً، ثم تبردت وانخفضت، هذا ما وصل إليه العلماء بعد دراسات حثيثة ومضنية [٢].

= ط ٤، ٢٠٠٧، ص ٣٧.

(١) صحيح تفسير القرآن العظيم، العدوي، مرجع سابق، ٣/ ١٥٠.

(٢) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٣٠.

٢. السماء سقف الأرض

جعل الله السماء سقفـًا للأرض، هيأها الله لعباده، وجعلها موضع عبرة ومحل تدبر وتفكر لعباد الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١].

٣. رفع السماوات بغير عمد

قال الله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة الرعد: ٢-٣]. وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ۝١٠ هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [سورة لقمان: ١٠-١١].

وذكر المفسرون تفسيرين للآيات المتعلقة بالعَمَد؛ فمنهم من أثبت أن السماوات لها أعمدة إلا أنها لا تُرى، فمعنى الآية: الله الذي رفع السماوات بغير عمد مرئية، وذلك بجعل جملة «ترونها» صفة «العمَد»، والضمير يعود إلى «عمَد».

ومنهم من ذهب إلى أن السماوات ليس لها عمد أصلاً، ويكون معنى الآية: الله الذي رفع السماوات كما ترونها بغير عمد، وذلك بجعل جملة «ترونها» حالاً من السماوات، وبعود الضمير إلى السماوات.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التفسير الأول؛ فيقولون: إن الأجرام السماوية كلها قد بناها الخالق عَزَّوَجَلَّ وجعل كل جُرمٍ بمنزلة لبنةٍ من بناء شامخ، ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى هي نوع القوة الطاردة المركزية، كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة المركزية الناجمة عن الدورات في مسارات شبه دائرية، أو قطاعات ناقصة، وهي بمنزلة الأعمدة المقامة بالفعل، رغم أننا نبصرها بأعيننا فإن ذلك لا يعني أن تلك الأعمدة غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نستطيع أن نتصورها في مجال كل جسم مادي، وربما إذا منح شخص منا حاسة أخرى زيادة على ما لدينا من حواس يستطيع أن يرى تلك الأعمدة أو يحس بها تمامـًا، كما ندرك بحواسنا العادية أي جسم مادي أو عادي [1].

يقول الدكتور زغلول النجار: تشير الدراسات الكونية إلى وجود قوى مستترة في اللبنة الأولية للمادة، وفي كل من الذرات والجزيئات، وفي كافة أجرام السماء، تحكم بناء الكون وتُمسك بأطرافه إلى أن يشاء الله تعالى فيدمره، ويعيد خلق غيره من جديد، ومن القوى التي تعرّف عليها العلماء في كل من الأرض والسماء؛ أربع صور يعتقد أنها أوجه متعددة لقوة عظمى واحدة؛ تسري في مختلف جنبات الكون لتربطه برباط وثيق، وإلا انفرط عقده؛ وهذه القوى هي: القوة النووية الشديدة، والقوة النووية الضعيفة، والقوة الكهربائية «المغناطيسية والكهرومغناطيسية»، وقوة الجاذبية.

وهذه القوى الأربع هي الدعائم الخفية التي يقوم عليها بناء السماوات والأرض، وقد أدركها العلماء من خلال آثارها الظاهرة والخفية في كل أشياء الكون المدركة، ويعتقد علماء الفلك والفيزياء الفلكية والنظرية أن هذه القوى الأربع لا

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٣٦.

بد أن تلتقي في شكل واحد للقوة يمثل وحدة البناء في هذا الكون، ويشهد لله الخالق بالوحدانية المطلقة فوق جميع خلقه [١].

٤ . امتناع سقوط السماء على الأرض:

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة الحج: ٦٥].

وهنا «ألم تر» أي: ألم تشاهد ببصرك وقلبك نعمة ربك السابغة وأياديه الواسعة؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ﴾ من حيوانات ونباتات وجمادات، فجميع ما في الأرض مسخّر لبني آدم؛ حيواناتها لركوبه وحمله وأعماله وأكله وأنواع انتفاعه، وأشجارها وثمارها يقتاتها، وقد سُلِّط على غرسها واستغلالها، ومعادنها يستخرجها وينتفع بها، «والفلك» أي: سخر الفلك، وهي السفن، «تجري في البحر بأمره»: تحملكم وتحمل تجارتكم، وتوصلكم من محل إلى آخر، وتستخرجون من البحر حلية تلبسونها، ومن رحمته بكم أنه: «ويمسك السماء أن تقع على الأرض» فلولا رحمته وقدرته لسقطت السماء على الأرض، فتلف ما عليها، وهلك ما فيها: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: ٤١].

«إن الله بالناس لرؤوف رحيم» أرحم بهم من والدَيهم ومن أنفسهم، ومن رحمته أنه سخر لهم ما سخر من هذه الأشياء [٢].

---

(١) الصلابي، المرجع نفسه، ص ٣٧.

(٢) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص ٦٣٣.

لقد سخر الله ما في الأرض لهذا الإنسان، فجعل نواميسها موافقة لفطرته وطاقاته، ولو اختلفت فطرة الإنسان وتركيبه عن نواميس هذه الأرض ما استطاع الحياة عليها، فضلاً عن الانتفاع بها وبما فيها، وهو الذي خلق الكون وفق هذا النظام الذي اختاره له، وحكّم فيه تلك النواميس التي تظل بها النجوم والكواكب مرفوعة متباعدة، ولا تسقط ولا يصدم بعضها بعضاً، والله سبحانه هو الذي أنشأ الناموس المنظِّم للوضع القائم، والله سبحانه «يمسك السماء أن تقع على الأرض»، يفعل ذلك الناموس الذي يعمل فيها، وهو من صنعه، «إلا بإذنه» وذلك يوم يعطّل الناموس الذي يُعمله لحكمة ويُعطله كذلك لحكمة [1]، وقد خلق الله السماوات على هيئةٍ حسنةٍ جميلة وزيّنها بالنجوم والكواكب ليعظُم الاعتبار بها والتفكُّر في خلقها [2].

فالله عَزَّوَجَلَّ أخبر عن خلق السماوات وعظمة اتساعها وارتفاعها، وأنها في غاية الحسن والبهاء والكمال والسناء، قال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ﴾ [سورة الذاريات: ٧]، أي: الخَلْق الحسن، وقال تعالى: ﴿فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ۝ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ [سورة الملك: ٣-٤]، أي: خاسئاً عن أن يرى فيها نقصاً أو خللاً، وهو حسير أي: كليل ضعيف، ولو نظر حتى يعي ويكلّ ويضعف لما اطلع على نقص فيها ولا عيب؛ لأنه تعالى قد أحكم خلقها، وزين بالكواكب أُفْقَهَا، كما قال: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ﴾ [سورة البروج:١]، أي: النجوم، وقيل: مجال الحرس التي يرمي منها بالشهب لمسترق السمع، ولا منافاة بين القولين.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۝ وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ [سورة الحجر: ١٦-١٧]، فذكر أنه زيّن منظرها بالكواكب

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٤٤١.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٣٩.

الثوابت والسيارات، والشمس والقمر والنجوم الزاهرات، وأنه صان حوزتها عن حلول الشياطين بها، وهو معنى: «وحفظناها من كل شيطان رجيم»، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۝٧ لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾ [سورة الصافات: ٦-٨]، فسبحان المبدع العظيم الذي خلق فسوى، وقدر فهدى [١].

وخلق السماوات من العظمة والجلال بما لا يحيط به وصف، ولا يدركه حس، فهي من مخلوقات الله العظيمة الجليلة، وخلق الله فيها من المخلوقات ما لا يعلمه إلا الله سبحانه، ففيها من الملائكة الكرام ما لا يعلمه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، ويكفي في ذلك ما ورد عند البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في حديث المعراج؛ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: (... فرفع لي البيت المعمور، فسألت جبريل، فقال: هذا البيت المعمور، يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك، إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم) [٢]. فإذا كان هذا من أول الخلق، فسبحان الله العظيم كم عدد ملائكة الله على عظمة خلقهم؟ وكم سعة هذه السماوات العظيمة التي استوعبتهم عليهم الصلاة والسلام، وقد جاء في حديث آخر: (أطّتِ السماء وحَقّ لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد...)، وإذا كان هذا واحداً من خلق الله الذي جعله في السماء، فكيف بمخلوقات الله الأخرى التي لا يعلمها إلا هو؟ ويكفي لمتأمل أن يتأمل في حديث المعراج، وما كشف للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما في السماء من خلق [٣].

---

(١) الخرعان، مرجع سابق، ص ١٤٠.

(٢) صحيح البخاري، كتاب بدء الخلق، باب: ذكر الملائكة، رقم: (٣٢٠٧). ابن حجر، فتح الباري، ٦/ ٣٤٩.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٤٥.

ومن بديع خلق السماوات والأرض لونها الأزرق الجميل. يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ثم تأمل ما وضعت عليه من هذا اللون الذي هو أحسن الألوان وأشدها موافقة للبصر، وتقوية له، حتى إن من أصابه شيء أضرّ ببصره يؤمر بإدمان النظر إلى الخضرة وما قرب منها إلى السواد، فتأمل كيف جعل أديم السماء بهذا اللون ليمسك الأبصار المتقلبة فيه ولا ينكأ فيها بطول مباشرتها له [(١)].

تاسعـًا: خلق الشمس والقمر

خلق الله الشمس والقمر -تلك الآيتين العظيمتين في فضاء السماء- ليتم بهما بناء الكون، وتستقر بوجودهما حياة الكائنات وتنمو، ليميز الله بهما بين الليل والنهار، والنور والظلام، فسبحان الخالق المبدع المصور المبدئ المعيد، ولم يأتِ الحديث عن خلق الشمس والقمر منفصلاً كما هو بالنسبة لخلق السماء والأرض، وإنما جاء حديث القرآن الكريم عن خلق الشمس والقمر تابعـًا لحديثه عن خلق السماء والأرض في آيات كثيرة باعتبارهما جزءاً تابعـًا لهما؛ من مثل قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: ١٥١٦]. وقوله سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: ٢].

١. الشمس والقمر مخلوقان تابعان للسماء والأرض

والشمس والقمر مخلوقات مع السماوات والأرض، وقد قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٣]، قال تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ

---

(١) مفاتيح دار السعادة، ابن القيم، ١/ ٢٠٧.

قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٣٨-٤٠].

﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا﴾ أي: دائماً تجري لمستقر لها، قدّره الله لا تتعداه، ولا تقصّر عنه، وليس لها تصرّف في نفسها ولا استعصاء على قدرة الله، ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ﴾ الذي بعزّته دبّر هذه المخلوقات العظيمة بأكمل تدبير وأحسن نظام، ﴿الْعَلِيمِ﴾ الذي بعلمه جعلها مصالح لعباده، ومنافع في دينهم ودنياهم.

﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ ينزلها؛ كل ليلة ينزل منها واحدة، ﴿حَتَّىٰ عَادَ﴾ يصغر جداً فيعود ﴿كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ أي: عرجون النخلة الذي من قِدمه نشَّ وصغر حجمه وانحنى، ثم بعد ذلك ما زال يزيد شيئاً فشيئاً حتى يتم نوره ويتسق ضياؤه، وكل من الشمس والقمر والليل والنهار قدَّره تقديراً لا يتعداه، وكل له سلطان ووقت، إذا وُجد عدم الآخر، ولهذا قال: ﴿لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ﴾، أي: في سلطانه الذي هو الليل؛ فلا يمكن أن توجد الشمس في الليل، ﴿ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾ فيدخل عليه قبل انقضاء سلطانه، ﴿ كُلٌّ ﴾ من الشمس والقمر والنجوم ﴿فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ أي: يترددون على الدوام.

فكل هذا دليل ظاهر وبرهان باهر على عظمة الخالق وعظمة أوصافه، خصوصاً وصف القدرة والحكمة والعلم في هذا الموضع [١]، وقد قال الشاعر:

الشمس والبدر من أنوار حكمته ... والبر والبحر فيضٌ من عطاياهُ

الطير سبَّحه والوحش مجَّده ... والموج كبَّره والحوت ناجاهُ

والنمل تحت الصخور الصم قدَّسه ... والنحل يهتف حمداً في خلاياهُ

(١) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص ٨١٩.

والناس يعصونه جهراً فيسترهم والعبد ينسى وربي ليس ينساهُ

ومن أوجه الإعجاز العلمي في قوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ [سورة يس: ٣٩]، أن التعبير بمنازل القمر يشير إلى مواقع القمر الثمانية والعشرين، وهي مواقعه اليومية المتتالية في السماء بالنسبة إلى نجوم تبدو مواقعها قريبة ظاهريـاً، فإن التعبير «منازل القمر» يمكن إطلاقه على مراحل القمر المتتالية، وعلى منازله المتوافقة مع تلك المراحل، وهناك ترابط شديد بين منازل القمر ومراحل أشكال القمر المتتالية؛ من الهلال الوليد، إلى التربيع الأول، إلى الأحدب الأول، إلى البدر، ثم الأحدب الثاني، ثم الهلال، ثم المحاق، إلى الهلال الوليد للشهر القمري الجديد.

والقمر يبدأ ميلاده بهلال دقيق، ثم يندرج في النمو حتى يصبح بدراً كاملاً، ثم يعود التناقص بالحجم حتى يصير كالعرجون القديم، ثم يختفي لمدة يوم أو يومين في مرحلة المحاق[1]، وتتكرر هذه الدورة في كل شهر قمري حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

وضوء الشمس يغمر نصف القمر باستمرار، فيعكس من فوق سطحه المظلم نوراً ينير ظلمة ليل الأرض، وكل ما يستطيع أهل الأرض إدراكه من هذا النور يختلف من يوم إلى يوم تبعـاً لموضع كل من الأرض والقمر والشمس في صفحة السماء، والجزء المرئي من نور القمر قبل استكماله بدراً يعرف باسم «قوس النور».

أما البدر الكامل فيعرف باسم «دائرة النور»، ونظراً لترنّح القمر في دورانه حول محوره، ولضخامة حجم الشمس بالنسبة إلى حجم القمر، فإن ضوء الشمس ينير أكثر من نصف سطح القمر بقليل، ولذلك لا يمكن أن يُرى خيط رفيع من النور يحيط بالقمر عند ميلاد الهلال.

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٢.

وتقدير هذه المنازل القمرية فيه من الدلالة على طلاقة القدرة الإلهية ما فيه؛ لأهميته في معرفة الزمن وتقديره وحسابه باليوم والأسبوع والشهر والسنة، وفي التأريخ للعبادات والأحداث والمعاملات والحقوق، ولما فيه من تأكيد ضبط سرعة القمر ضبطاً دقيقاً من أجل الحيلولة دون ارتطامه بالأرض، فيفنيها وتفنيه، أو انفلاته من عقال جاذبيتها فينتهي إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، وفي الوقت نفسه الارتباط الدقيق بين سرعة دوران كل منهما حول محوره، فإذا زادت إحداهما قلّت الأخرى بنفس المعدل، ولما كانت سرعة دوران الأرض حول محورها في تناقص مستمر بمعدل جزء من الثانية في كل قرن من الزمن، فإن سرعة دوران القمر في تزايد مستمر بالمعدل نفسه تقريباً، ما يؤدي إلى تباعد القمر عن الأرض بمقدار ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، وهذا التباعد سوف يُخرج القمر في يوم من الأيام من مسار جاذبية الأرض ليدخله في نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه، تحقيقاً للواقعة القرآنية التي يصفها الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿**فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ**﴾ [سورة القيامة: ٧-٩].

ومن هنا كانت هذه الإشارة القرآنية المعجزة التي وصفت مراحل القمر المتتالية في كل شهر، التي يقول فيها ربنا عَزَّوَجَلَّ: ﴿**وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ**﴾ [سورة يس: ٣٩].

ومن المعجزات القرآنية في هذا الباب وصف المرحلة الأخيرة من مراحل الدورة الشهرية للقمر بالعرجون القديم، وهو العنقود من الرطب «العذق» إذا يبس وانحنى واصفرّ لونه، وهو عند يبوسه على النخل ينحني تجاهها، فكذلك الهلال الثاني ينحني بطرفيه تجاه الأرض، وأما الهلال الوليد فينحني بهما بعيداً عنها، فما أروع التشبيه القرآني المعجز [١].

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول راغب محمد النجار، مرجع سابق، ص ٥٢٢.

٢. ضياء الشمس ونور القمر

قال الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٥].

﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾، يخبر تعالى عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته وعظيم سلطانه؛ أنه جعل الشعاع الصادر عن جرم الشمس ضياء، وجعل القمر نوراً، ففاوت بينهما لئلا يشتبها، وجعل سلطان الشمس بالنهار وسلطان القمر بالليل، وقدّر القمر منازل؛ فأول ما يبدو صغيراً، ثم يتزايد نوره وجرمه حتى يستوسق ويكتمل بدره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حالته الأولى في تمام شهر، كقوله تعالى: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس: ٣٩-٤٠]، وقوله: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا﴾ [سورة الأنعام: ٩٦].

وقوله في هذه الآية الكريمة: ﴿وَقَدَّرَهُ﴾ أي: القمر، ﴿مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾؛ فبالشمس تُعرف الأيام، ويسير القمر وتعرف الشهور والأعوام، ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ أي: لم يخلقه عبثاً بل له حكمة عظيمة في ذلك وحجة بالغة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ [سورة ص: ٢٧].

وقوله ﴿يُفَصِّلُ الْآيَاتِ﴾ أي: يبين الحجج والأدلة، ﴿لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ وتقول المعارف الحديثة إن القمر جرم بارد لا حرارة فيه، وإنه يكتسب أشعته ونوره من جرم آخر، ثم يعكسه إلى الأرض، وإن الشمس مضيئة إضاءة ذاتية بأشعة

حارة، ولذلك وصفها الله تعالى «بالتوهج» في قوله: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [سورة النبأ: ١٣]. وهذه هي الحقيقة العلمية لكل من الشمس والقمر [(١)].

وانطلاقـًا من هذه الحقائق العلمية التي تمايز بين الضوء الصادر من جسم مشتعل ملتهب مضيء بذاته في درجات حرارة عالية، وبين الشعاع المنعكس من جسم بارد، فيتلقى شعاع الضوء فيعكسه نوراً، ركّز القرآن الكريم باستمرار على التمييز الدقيق بين ضياء الشمس ونور القمر، وبين كون الشمس سراجـًا وكون القمر نوراً، فقال عز من قائل: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة يونس: ٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [سورة نوح: ١٥- ١٦]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِى جَعَلَ فِى السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٦١].

وقابل القرآن الكريم الظلمات بالنور وليس بالضياء في آيات كثيرة؛ من مثل قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١]، ووصف الشمس بأنها سراج وهاج، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾ [سورة النبأ: ١٣]. وحينما وصف خاتم أنبيائه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنه سراج، بمعنى أنه مضيء بذاته، أضاف إلى وصف السراج بأنه منير بهداية ربه المُنَزَّلة عليه، فقال عز سلطانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٤٥-٤٦].

(١) المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩، ص ١٨٨.

وحينما وصف النار وصفها بالضياء، ووصف أشعتها الساقطة على ما حولها بالنور، فقال عز من قائل: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٧].

ووصف أشعة البرق بأنها ضوء، فقال وهو أصدق القائلين: ﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٠].

ووصف ذاته العليّة عَزَّوَجَلَّ بأنه نور السماوات والأرض، وأعطى مثلاً لذلك النور الإلهي، ولله المثل الأعلى، ووصف في هذا المثل الزيت بأنه يضيء، ووصف سقوط ضوئه على ما حوله بالنور، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِى اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النور:٣٥].

وقال عن غَيبة الشمس: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾ [سورة القصص: ٧١]، وإن هذه الدقة البالغة في التفريق بين الضوء المنبعث من جسم ملتهب مشتعل مضيء بذاته، وبين سقوط هذا الضوء على جسم مظلم بارد وانعكاسه نوراً من سطحه؛ بطريقة مطردة في كل القرآن الكريم، لا يمكن أن يكون لها مصدر من قبل ألف وأربعمائة سنة إلا الله الخالق، فهذا الفرق الدقيق لم يدركه العلماء إلا في القرنين الماضيين، ولا يزال في زماننا كثير من الناس لا يدركونه (١).

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٩.

٣. تسخير الشمس والقمر

قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [سورة الرعد: ٢]، ومن معاني تسخير الشمس والقمر ضبط حركة كل منهما لما فيه صلاح الكون واستقامة الحياة على الأرض [(١)].

وجاءت الإشارات القرآنية إلى تسخير كل من الشمس والقمر وإلى جريهما لأجل مسمى في أربعة مواضع من القرآن الكريم على النحو الآتي:

قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد: ٢]، وقال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ﴾ [سورة فاطر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ [سورة الزمر: ٥]، وكذلك قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [سورة لقمان: ٢٩].

ومعنى ذلك أن كلاً من الشمس والقمر يجري إلى نهايته المختومة بقيام الساعة، وأن هذا الأجل المسمّى صورة من صور التسخير، والساعة لا تأتي إلا بغتة، كما جاء في قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ

(١) الصلابي، مرجع سابق، ص ٤٩.

إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٨٧].

ولذلك فقد أبقى ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في صفحة السماء من الشواهد الحسية، ما يؤكد لكل ذي بصيرة حتميةَ فناء كل من الشمس والقمر، فتفقد في كل ثانية من عمرها على هيئة طاقة تعادل «٦ , ٤» ملايين طن من كتلتها، ما يعني أن الشمس تحترق بتدرج واضح ينتهي بها حتماً إلى الفناء التام، ولكن الآخرة لن تنتظر فناء الشمس باحتراقها بالكامل، وذلك لأن الآخرة أمر إلهي «كن فيكون»، وعلى ذلك لا تأتي إلا بغتة دون انتظار لحركة السنن الراهنة التي أبقاها الله تعالى شاهدة على حتمية الآخرة، وإن كانت الآخرة لن تتم بوساطتها [١].

وقد ثبت أن الأرض تفقد بدورانها حول محورها -بفعل كل من الأمواج البحرية، خاصة عمليتي المد والجزر في البحار الضحلة، وحركة الرياح- ما يقدَّر بنحو واحد من الألف من الثانية من سرعتها في كل قرن من الزمان، وهذا النقص في سرعة دوران الأرض حول محورها -على ضآلته- يؤدي إلى تزايد مطرد في سرعة دوران القمر حول محوره، ما يدفعه إلى التباعد عن الأرض بمعدل ثلاثة سنتيمترات في كل سنة، ويقدر علماء الفلك أن هذا التباعد التدريجي للقمر سوف يُخرجه حتماً في لحظة من اللحظات من نطاق أسر الأرض إلى نطاق جاذبية الشمس فتبتلعه، وتكون في ذلك نهايته الحتمية، وهنا تكفي الإشارة إلى سبق القرآن الكريم بتقرير حتمية ابتلاع الشمس للقمر من قبل ألف وأربعمائة سنة، وفي ذلك يقول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ ۝٧ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ۝٨ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾ [سورة القيامة: ٧-٩].

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص ٥٨٦.

٤ . الشمس والقمر آيتان لحساب الأيام والشهور والأعوام

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة الإسراء: ١٢]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ [سورة يونس: ٥]. وهما آيتان صريحتان في هذا المعنى، وقال بعض المفسرين في تفسير قوله سبحانه: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٥]، ما يشير إلى معنى كونهما للحساب، قال القرطبي: يعني أن بهما تُحسَب الأوقات والآجال والأعمار، ولولا الليل والنهار والشمس والقمر؛ لم يدرِ أحد كيف يحسب شيئاً؛ لو كان الدهر كله ليلاً أو نهاراً [(١)].

وقد خلق الله الشمس والقمر لِحِكَمٍ عظيمة من أعظمها كونهما آيتين لمعرفة الزمن، ففي حركة الشمس اليومية يُعرَف زمن النهار؛ أوله، ووسطه، وآخره، وما بينهما، وقد كان الأولون يعرفون الزمن بحركة الظل، وموضع الشمس من السماء من جهة المشرق أو المغرب، كما يعرف بالقمر توقيت الشهر منذ إهلاله وحتى يصير بدراً، ثم تضاؤله، كما يعرف أيضاً الشهر بوقت شروقه وغروبه [(٢)].

قال ابن القيم: تأمّل حال الشمس والقمر في طلوعهما وغروبهما لإقامة دولتي الليل والنهار، ولولا طلوعهما لبطل أمر العالم، وكيف كان الناس يسعون في معايشهم ويتصرفون في أمورهم والدنيا مظلمة عليهم؟ وكيف كانوا يتهنون بالعيش مع فقد النور؟ ثم تأمل الحكمة في غروبهما، فإنه لولا غروبهما لم يكن للناس هدوء ولا قرار مع فرط الحاجة إلى السبات وجموم الحواس، ثم تأمل بعد ذلك أحوال هذه الشمس في انخفاضها وارتفاعها لإقامة هذه الأزمنة والفصول، وما فيها من

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ١٥٣.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٥٣.

المصالح والحِكَم؛ إذ لو كان الزمان كله فصلاً واحداً لفاتت مصالح الفصول الباقية فيه؛ فلو كان صيفًا كله لفاتت مصالح الشتاء، ولو كان شتاءً لفاتت مصالح الصيف، وكذلك لو كان ربيعًا كله أو خريفًا كله، ثم تأمل حال الشمس والقمر وما أُوْدِعَاه من النور والإضاءة، وكيف جعل لهما بروجًا ومنازل ينزلانها مرحلة بعد مرحلة لإقامة دولة السَّنَة وتمام مصالح حساب العالم الذي لا غناء لهم في مصالحهم عنه، فبذلك يُعلَم حساب الأعمار والآجال المؤجلة للديون والإجارات والمعاملات والعدد وغير ذلك.

ثم تأمل الحكمة في طلوع الشمس على العالم كيف قَدَّره العزيز العليم سبحانه، فإنها لو كانت تطلع في موضع من السماء فتقف فيه ولا تعدوه لما وصل شعاعها إلى كثير من الجهات؛ لأنَّ ظل أحد جوانب كرة الأرض يحجبها عن الجانب الآخر، وكان يكون الليل سرمديًا على من لم تطلع عليهم، والنهار سرمديًا على من هي طالعة عليهم، فيفسد هؤلاء وهؤلاء [1]، وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ [سورة البقرة: ١٨٩].

وهذان المخلوقان على عظمتهما «الشمس والقمر» وجلال نفعهما، منقادان خاضعان لله عَزَّوَجَلَّ ولسلطانه، ذليلان مستسلمان لأمره وقدره، شأنهما في ذلك شأن كل مخلوقات الله التي تسلّم قيادها لربها ذلاً وخضوعًا واستسلامًا، شرعًا وقدراً، فقد ذكر المفسرون أن لهما أجلاً ينتهيان إليه، وساعة يتوقفان عندها بأمر الله عَزَّوَجَلَّ [2].

جاء عند القرطبي من معاني قوله تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ [سورة الرحمن: ٥] «بحسبان» تقدير آجالهما، أي تجري بآجال كآجال الناس، فإذا

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٠٧-٢٠٩.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٥٦.

جاء أجلهما هلكا، نظيره: ﴿كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [سورة لقمان: ٢٩]. وقال الضحاك: بقدر [١].

عاشراً: خلق الليل والنهار

خلق الله الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [سورة فصلت: ٣٧]. وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة الأنبياء: ٣٣]. وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا﴾ [سورة يونس: ١٠].

وهذا كثير في القرآن، فانظر إلى هاتين الآيتين وما تضمنتاه من العبر والدلالات على ربوبية الله وحكمته؛ كيف جعل الليل سكناً ولباساً يغشى العالم؛ فتسكن فيه الحركات، وتأوي الحيوانات إلى بيوتها، والطير إلى أوكارها، وتستجم فيه النفوس وتستريح من كدّ السعي والتعب، حتى إذا أخذت منه النفوس راحتها وسباتها وتطلعت إلى معايشها وتصرفها جاء فالق الإصباح سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بالنهار، يقدُمُ جيشَه بشيرُ الصباح، فهزم تلك الظلمة ومزّقها كل ممزق، وكشفها عن العالم فإذا هم مبصرون، فانتشر الحيوان وتصرف في معاشه ومصالحه، وخرجت الطيور من أوكارها، فيا له من معاد دالّ على قدرة الله سبحانه على المعاد الأكبر، وتكرره ودوام مشاهدة النفوس له، بطريقة يصير فيها عادةً ومألفاً منعها من الاعتبار به، والاستدلال به على النشأة الثانية، وإحياء الخلق بعد موتهم، ولا ضعف في قدرة القادر التام القدرة، ولا قصور في حكمته ولا في علمه يوجب تخلُّف ذلك، ولكن الله يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وهذا أيضاً من آياته الباهرة أن يعمي عن هذه

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٧/ ١٥٣.

الآيات الواضحة البينة من شاء من خلقه، فلا يهتدي بها ولا يبصرها؛ كمن هو واقف في الماء إلى حلقه، وهو يستغيث من العطش وينكر وجود الماء (١).

وفي تعاقب الليل والنهار ما يدعو إلى التدبر والاعتبار بتصرم الأيام وتبدل الأحوال، فكم من أصبح غنيـاً وأمسى فقيراً، وكم من أمسى عزيزاً وأصبح ذليلاً.

وقد فاضل الله بين بعض الليالي وبين بعض الأيام، فخصّ الليل بالقيام والنهار بالصيام، وجعل في بعض الليالي من الخصائص والأمور العظيمة ما لم يجعله في النهار (٢).

والليل عظيم قدره، أمر نبيَّه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقيامه، فقال: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ﴾ [سورة الإسراء: ٧٩]. وقال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ﴾ [سورة المزمل: ٢]، ومدح المؤمنين على قيامه فقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ [سورة السجدة: ١٦].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا ﴿٦﴾ إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا﴾ [سورة المزمل: ٦-٧].

والمقصود أن قيام الليل هو أشد مواطأة بين القلب واللسان، وأجمع على التلاوة، ولهذا قال تعالى: ﴿هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ أي: أجمع للخاطر في أداء القراءة وتفهمها من قيام النهار؛ لأنه وقت انتشار الناس ولغط الأصوات وأوقات المعاش (٣).

كما خص الله الليل بأن جعل منه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ

---

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢٠٣-٢٠٤.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧٦.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٤٣٥. قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧٦.

الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝ سَلَامٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ﴾ [سورة القدر: ١-٥].

وهي الليلة المباركة التي يفرق فيها كل أمر حكيم، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [سورة الدخان: ٣-٤]؛ أيّ: في ليلة القدر من اللوح المحفوظ إلى الكتبة أمر السَّنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق، وما يكون فيها إلى آخرها، ﴿حَكِيمٍ﴾ أيّ: محكم لا يبدل ولا يغير [١].

كما أن الليل وقت خلوة المؤمنين بربهم، وانطراحهم بين يديه، وتضرعهم إليه، فهو كذلك كان وقت مناجاة المؤمنين واستجارتهم من عذاب الله الذي ينزله بالقوم الكافرين، كما في قصة لوط وقصة موسى عليهما السلام، قال سبحانه عن لوط: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ﴾ [سورة الحجر: ٦٥].

كما قال عن موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَسْرِ بِعِبَادِي لَيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ﴾ [سورة الدخان: ٢٣].

وهو كذلك موعد اللقاء العظيم والرحلة الجليلة المباركة لسيد الأولين والآخرين محمد عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، تلك الرحلة العظيمة التي طويت له فيها الأرض ومعارج السماء، فرأى من آيات ربه الكبرى؛ إنها رحلة الإسراء والمعراج، قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة الإسراء: ١]، إذن، إنها علاقة وثيقة بين هذا الكون بما فيه من أرض وسماء وليل ونهار وبين عباد الله

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٦٨.

المؤمنين، إنها علاقة تربطهم بالخالق الواحد والإله العظيم؛ الذي خلق وصور، فأحكم خلقه وأبدعه، فسبحانه من خالق عظيم ورب كريم[1].

الحادي عشر: خلق النجوم

النجوم من مخلوقات الله العظيمة وآية من آياته الباهرة، والنجوم خلق جميل بلألائه، بديع بنوره وسنائه، أقسم الله به وبمواقعه، وتحدث عن حكمة خلقه؛ زينة للسماء، وهداية للسائرين، ورجوماً للشياطين، وذكر سجوده لربه وخضوعه لسلطانه، فأقسم الله بها، كما في قوله: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ۝٢ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾ [سورة الطارق: ١٣]. وكما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥]. وإن مواقع النجوم في السماء، فأقسم الله بها قسماً مغلّظاً، وبيّن أن هذا القسم جليل عظيم لو كنتم تعرفون قدره، أقسم بأن هذا القرآن كتاب كريم، جمّ الفوائد والمنافع؛ لاشتماله على أصول الدين من العقيدة والعبادة والأخلاق، والمعاملات، وعلى غير ذلك من أمور الغيب وضوابط السلوك، وقصص الأنبياء، وأخبار الأمم السابقة والعبر المستفادة منها، وعلى عدد من حقائق الكون ومظاهره الدالة على وجود الله، وعظيم قدرته، وكمال حكمته، وإحاطة علمه، ويأتي جواب القسَم: بأن الله تعالى قد تعهد بحفظ هذا الوحي الخاتم في كتاب واحد مصون بقدرة الله، ومحفوظ بحفظه من الضياع والتبديل والتحريف، وهو المصحف الشريف الذي لا يجوز أن يمسّه إلا المطهرون من جميع صور الدنس المادي، أي: المتوضئون الطاهرون، ولا يستشعر عظمته وبركته إلا المطهرون من دنس الشرك والكفر والنفاق ورذائل الأخلاق؛ لأن هذا القرآن الكريم هو وحي الله الخاتم المنزل على خاتم الأنبياء والمرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو معجزته الخالدة إلى يوم الدين، أنزله بعلمه على خاتم أنبيائه ورسله، وربنا سبحانه هو الإله الخالق

(١) الخرعان، المرجع نفسه، ص ١٦٩.

رب السماوات والأرض ومن فيهن، وقيوم الكون ومليكه سبحانه، يقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ۝ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ۝ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ۝ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ۝ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ۝ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥-٨٠].

وهذا القسم القرآني بمواقع النجوم يُشير إلى سبق القرآن الكريم بالإشارة إلى إحدى حقائق الكون المبهرة، التي مفادها أنه نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عن أرضنا، فإن هذا الإنسان على هذه الأرض لا يرى النجوم أبداً، ولكنه يرى مواقع مرّت بها النجوم ثم غادرتها، وفوق ذلك أن هذه المواقع كلها نسبية وليست مطلقة؛ لأن الضوء كأي صورة من صور المادة والطاقة لا يستطيع أن يتحرك في صفحة السماء إلا في خطوط منحنية، وعين الإنسان لا ترى إلا في خطوط مستقيمة، وعلى ذلك فإن الناظر إلى النجوم من فوق سطح يراه على استقامة آخر نقطة ينحني ضوء إليها، فيرى موقعاً وهمياً للنجم من غير الموقع الذي انشق منه ضوءه، فنظراً لانحناء الضوء في صفحة السماء فإن النجوم تبدو لنا في مواقع ظاهرية غير مواقعها الحقيقية.

ليس هذا فحسب، بل إن الدراسات الفلكية الحديثة قد أثبتت أن نجوماً قديمة قد خبت أو تلاشت منذ أزمنة بعيدة، والضوء الذي انبثق منها في عدد من المواقع التي مرت بها لا يزال يتلألأ في ظلمة السماء في كل ليلة من ليالي الأرض إلى اليوم الحالي، ومن هنا كان هذا القسم القرآني بمواقع النجوم وليس بالنجوم ذاتها، على عظم قدر النجوم، التي كشف العلم عنها أنها أفران نووية كونية عجيبة، يخلق الله تعالى لنا فيها كل صور المادة والطاقة؛ التي ينبني منها هذا الكون المُدرَك، ثم إن عدد ما أحصاه علماء الفلك من النجوم في الجزء المدرك من السماء الدنيا إلى يومنا هذا تعدى سبعين مليار تريليون نجم [١].

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، زغلول النجار، مرجع سابق، ص ١٩٧.

١. ماهية النجوم

إن النجوم هي أجرام سماوية منتشرة في السماء الدنيا؛ كروية، أو شبه كروية، غازية، ملتهبة، مضيئة بذاتها، متماسكة بقوة الجاذبية على الرغم من بنائها الغازي، هائلة الكتلة، عظيمة الحجم، عالية الحرارة بدرجة مذهلة، وتشع موجات كهرومغناطيسية على هيئة الضوء المرئي وغير المرئي بجميع موجاته.

ويمكن بدراسة ضوء النجم الواصل إلينا التعرف على العديد من صفاته الطبيعية والكيميائية؛ من مثل درجة لمعانه، وشدة إضاءته، ودرجة حرارته، وحجمه، ومتوسط كثافته، وكتلته، وتركيبه الكيميائي، ومستوى التفاعلات النووية فيه، وموقعه منا، وسرعة دورانه حول محوره، وسرعة جريه في مداره، وسرعة تباعده عنّا أو اقترابه منا، إلى غير ذلك من الصفات [١].

٢. الشمس نجم عادي من نجوم السماء الدنيا

الشمس هي النجم الذي تتبعه أرضنا فتدور حوله مع باقي أفراد المجموعة الشمسية، وتدور معه حول مركز المجرة، ومع المجرة حول مراكز أعلى بالتدريج إلى نهاية لا يعلمها إلا الله، والشمس أقرب نجوم السماء إلينا، ويُقدَّر بعدها عنا بنحو مائة وخمسين مليونـاً من الكيلومترات، ويقدر نصف قطرها بنحو سبعمائة ألف كيلومتر [٢].

وتجري الشمس ومعها مجموعتها الشمسية في صفحة الكون بسرعة تقدر بنحو ١٩ كيلومتراً في الثانية نحو نقطة في كوكبة هرقل بالقرب من نجم النسر الواقع، وهي تسمى علميـاً باسم «قمة الشمس»، ولعلها هي ما يسميها خالقها عَزَّوَجَلَّ في

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص ١٩٧.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص ٢٠١.

محكم كتابه باسم «مستقر الشمس»، كما تجري الشمس ومعها مجموعتها الشمسية بسرعة تقدر بنحو «٢٢٠» كيلومتراً في الثانية حول مركز مجرتنا درب التبانة، لتتم هذه الدورة في «٢٢٥» مليون سنة من سنين الأرض، وأقرب كواكب المجموعة الشمسية إلى الشمس، وهو كوكب عطارد، يبعد عنها بنحو «٥٨» مليون كيلومتر، ويُعتَقد حسابياً أن هناك كوكباً أبعد من بلوتو، ولكن لم يرصد بعد.

وإذا خرجنا عن نطاق المجموعة الشمسية، فإن هذه المقاييس الأرضية لا تفي بقياس المسافات التي تفصل بقية نجوم السماء الدنيا عنّا، فاتفق العلماء على وحدة قياس كونية تعرف باسم السنة الضوئية، وهي المسافة التي يقطعها الضوء بسرعته المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كم/ ثانية في سنة من سنيننا، وهي مسافة تقدر بنحو «٩,٥» مليون مليون كيلومتر [١].

٣. المجرات تجمعات للنجوم

المجرات هي نظم كونية شاسعة تتكون من التجمعات النجمية والغازات والغبار الكونيين «الدخان الكوني»، بتركيز يتفاوت من موقع لآخر في داخل المجرة، وهذه التجمعات النجمية تضم عشرات البلايين إلى بلايين البلايين من النجوم في المجرة الواحدة، وتختلف نجوم المجرة في أحجامها، ودرجات حرارتها، ودرجات لمعانها، وفي غير ذلك من صفاتها الطبيعية والكيميائية، وفي مراحل دورات حياتها وأعمارها؛ فمنها النجوم المفردة، والمزدوجة، والعديدة، والعماليق الكبار، والأقزام الحمر، والنجوم القزمة البيضاء والبُنيّة والسوداء، والنجوم النيترونية، والثقوب السوداء، وأشباه النجوم، وغيرها مما يتخلق باستمرار من الدخان الكوني، ويُفنى إليه.

---

(١) النجار، المرجع نفسه، ص ٢٠٣.

ومن المجرات ما هو حلزوني الشكل، ومنها ما هو بيضاوي، ومنها ما هو في حجمها أو أصغر منها، وتتبع مجرتنا ما يعرف باسم «المجموعة المحلية»، وهي عبارة عن تجمع محلي لعدد من المجرات، وقد يتجمع عدد أكبر من المجرات على هيئة أكبر تعرف باسم «عنقود مجري»، كما يتجمع عدد من العناقيد المجرية على هيئة عنقود مجري عملاق يضم عشرات الآلاف من المجرات [١].

وبالإضافة إلى المجرات وتجمعاتها المختلفة في الجزء المُدْرَك من السماء الدنيا فإننا نرى السدم؛ وهي أجسام دخانية عملاقة بين النجوم، وقد تتخلق بداخلها النجوم، وعلى ذلك فمن السدم ما هو مضيء ومنها ما هو معتم [٢].

- من أسباب القسم بمواقع النجوم:

نظراً للأبعاد الشاسعة التي تفصل نجوم السماء عنا فإنه لا يمكن لنا رؤية النجوم من على سطح الأرض أبداً ولا بأي وسيلة مادية، وكل الذي نراه من نجوم السماء هو مواقعها التي مرت بها ثم غادرتها، إما بالجري في الفضاء الكوني بسرعة مذهلة، أو بالانفجار والاندثار، أو بالانكسار والطمس.

فالشمس -وهي أقرب نجوم السماء إلينا- تبعد عنا بمسافة مائة وخمسين مليون كيلومتر، فإذا انبثق منها الضوء بسرعته المقدرة بنحو ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية من موقع معين مرّت به الشمس، بسرعة تقدر بنحو (١٩) كيلومتراً في الثانية، فإن ضوءها يصل إلى الأرض بعد ثماني دقائق وثلث الدقيقة تقريباً، بينما تجري الشمس بسرعة تقدر بنحو (١٩) كيلومتراً في الثانية في اتجاه نجم النسر الواقع، فتكون الشمس قد تحركت لمسافة لا تقل عن عشرة آلاف كيلومتر عن

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

(٢) النجار، المرجع نفسه، ص ٢٠٥.

الموقع الذي انبثق منه الضوء، ونحن لا نرى ضوءها إلا على هيئة صورة وهمية للموقع الذي انبثق منه الضوء الذي رأيناه [(١)].

وتتغير مواقع النجوم من لحظة إلى أخرى بسرعات تتناسب مع سرعة تحرك النجم في مداره، ومعدلات توسع الكون وتباعد المجرات عنا، والتي يتحرك بعض منها بسرعات تقترب أحياناً من ثلاثة أرباع سرعة الضوء، وأبعد نجوم مجرتنا عنا يصل ضوءه بعد ثمانين ألف سنة من لحظة انبثاقه من النجم، بينما يصلنا ضوء بعض النجوم البعيدة عنا بعد بلايين السنين، وهذه المسافات الشاسعة مستمرة في الزيادة مع الزمن؛ نظراً لاستمرار تباعد المجرات بعضها عن بعض بسبب اتساع الكون، ومن النجوم التي تتلألأ أضواؤها في سماء ليل الأرض ما ثبت علمياً أنه قد انفجر وتلاشى، أو طمس واختفى منذ ملايين السنين؛ لأن آخر شعاع انبثق منه قبل انفجاره أو طمسه لم يكن قد وصل إلينا بعد، والضوء القادم منه قد يعبّر عن ماضٍ قد يقدر بملايين السنين [(٢)].

ثبت علمياً أن الضوء مثل المادة ينحني أثناء مروره في مجال تجاذبي مثل الكون، وعليه فإن موجات الضوء تتحرك في صفحة السماء الدنيا في خطوط منحنية، يصفها القرآن الكريم بـ «المعارج»، ويصف الحركة ذاتها بالعروج، وهو الانعطاف والخروج عن الخط المستقيم، كما يمكن أن يفيد معنى الصعود في خط منعطف، ومن هنا كان وصف رحلة المصطفى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في السماوات العلى بـ»العروج»، وسميت الليلة باسم «المعراج»، والجمع «معارج ومعاريج».

وحينما ينعطف الضوء الصادر من النجم في مساره إلى الأرض، فإنَّ الناظر من الأرض يرى موقعاً للنجم على استقامة بصره، وهو موقع يغاير موقعه الذي

---

(١) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

(٢) النجار، المرجع نفسه، ص ٢٠٦، ٢٠٧.

صدر منه الضوء، ما يؤكد مرة أخرى أن الإنسان من فوق سطح الأرض لا يمكنه أن يرى النجوم أبداً [١].

إنَّ النجوم داخل المجرة الواحدة مرتبط بعضها ببعض بالجاذبية المتبادلة بينها، التي تحكم مواقع النجوم وكتلها، فمع تسليمنا بأن الله تعالى هو الذي يمسك السماء والأرض أن تزولا، كما أخبر سبحانه بقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة فاطر: ٤١]. ويقول ربنا: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ﴾ [سورة الحج: ٦٥]. إلا أن الله تعالى له سننه التي يحقق بها مشيئته، وهو القادر على أن يقول للشيء «كن فيكون»، وهو تعالى وضع للكون هذه السنن المتدرجة لكي يستطيع الإنسان فهمها ويتمكن من توظيفها في حسن القيام بواجب الاستخلاف في الأرض، فمواقع النجوم على مسافات تتناسب تناسباً طردياً مع كتلتها، ومرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقوى الجاذبية التي تمسك بها في تلك المواقع، وتحفظ السماء أن تقع على الأرض إلا بإذن الله، ومن هنا كانت قيمة مواقع النجوم التي كانت من وراء هذا القسم القرآني العظيم.

أثبتت دراسات الفلك ودراسات كل من الفيزياء الفلكية والنظرية أن الزمان والمكان شيئان متواصلان، ومن هنا كانت مواقع النجوم المترامية الأبعاد تعكس أعمارها الموغلة في القدم، التي تؤكد أن الكون الذي نحيا فيه ليس أزلياً، إذ كانت له بداية يحددها الدارسون باثني عشر بليوناً من السنين على أقل تقدير، ومن هنا كان في القَسم بمواقع النجوم إشارة إلى قدم الكون مع حدوثه، وهي حقائق لم يتوصل إليها العلم المكتسب إلا بنهاية القرن العشرين [٢].

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٧٦.

(٢) من آيات الإعجاز العلمي في السماء، النجار، مرجع سابق، ص ٢٠٨.

فسبحان الله العليم الحكيم القائل في محكم كتابه: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الواقعة: ٧٥-٨٠].

٤. وظائف النجوم:

وقد بين الله سبحانه الحكمة من خلقها، وبيّن وظيفتها في الكون في ثلاث وظائف؛ فقد خلقها لتكون آية على عظمته وقدرته يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتُعرف بها الجهات شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأنعام: ٩٧].

وخلقها زينة للسماء وجمالاً، فقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ [سورة الصافات: ٦]. وقال: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: ٥][1].

إن النجوم من آيات الله الدالة عليه الساجدة له، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: ١٨].

وهو سبحانه مع ذلك قد جعل فيها منافع لعباده، وسخّرها لهم، كما قال تعالى: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ﴾ [سورة إبراهيم: ٣٣]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧٢.

الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة لقمان: ٢٠] [١].

الثاني عشر: خلق الرياح

مخلوق عجيب نحسّ به ولا نراه، ويمتلئ به المكان من حولنا، لكنه لطيف رقيق لا يزاحم أحداً ولا يصبر عنه كائن حيّ، إنه الهواء الذي جعله الله عنصراً للحياة لا يستغني عنه الإنسان، وكل كائن حي قد يصبر عن الماء والطعام ساعات وربما أياماً، لكنه لا يستغني عن الهواء دقائق معدودة، فسبحان الله الخالق العظيم.

إن خلق الهواء هو جزء من خلق هذا الكون، وهو محيط بالأرض، غير أنه يتناقص كلما ارتفع الإنسان إلى الأعلى، كما أثبت العلم الحديث، لا سيما مع توفر إمكانيات الطيران والصعود إلى طبقات الجو العليا، حيث برز فرع من فروع الطب يسمى «طب الفضاء»، فيقول العلماء: إذا ارتفع الإنسان فوق خمسة وعشرين ألف قدم دون حماية من قلة الضغط وندرة الأكسجين فسيموت في الحال، وتتوقف أجهزته؛ مثل الجهاز العصبي، والجهاز التنفسي، فيختنق الإنسان وينتهي [٢]، وهذا مصداق قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢٥].

وقد جعل الله هذا الهواء عنصراً أساسياً من عناصر الحياة؛ فبه يتنفس الإنسان والحيوان وذوات الأرواح من الطيور والحشرات، كما لا يستغني عنه النباتات في

---

(١) الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧٥.

(٢) من آيات الإعجاز في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ٢/ ١٧٨.

حياته ونموه وانتشاره، حتى الحيوانات في البحر لا تعيش بدونه، وقد يسر الله لها من الخياشيم ما يجعلها تستخلص الهواء من الماء وهي في أعماق البحر وظلماته[١].

إن الرياح هي هواء متحرك وهي موجودة في الحياة فوق البسيطة، ولم يستأثر بها أحد دون الآخر، وما ملَّك الله الرياح أو وكَّل بها أحداً من الناس، بل زمام أمورها وتصريف حركتها وشؤونها بيد الخالق الرحيم[٢].

وقد قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ آيَاتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الجاثية: ٥].

والرياح قوة من قوى هذا الكون، وجند من جنود الله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [سورة المدثر: ٣١]، والله عَزَّوَجَلَّ يرسلها في صورة ما من صورها في الوقت المقدر على من يريد به الهلاك والدمار أو الحياة أو الرحمة[٣].

ويرى بعض العلماء أن عامة المواضيع التي ذكر الله تعالى فيها الرياح بلفظ الواحد هي للتعبير عن العذاب، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ﴾ [سورة القمر: ١٩]، وفي الحديث عن غزوة الأحزاب قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا﴾ [سورة الأحزاب: ٩].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ١٧٨.

(٢) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، مروان وحيد شعبان التفتنازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦، ص ٣٠٩.

(٣) التفسير العلمي المعاصر، القرعاوي، مرجع سابق، ص ١٦٢.

وشبه الحق أعمال الكفرة بالرماد الذي تشتدّ به الريح، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ﴾ [سورة إبراهيم: ١٨]، وكذلك قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ﴾ [سورة آل عمران: ١١٧].

المواضع التي ذكرت فيها الريح بلفظ «الرياح» تدل على رحمته عَزَّوَجَلَّ

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [سورة الفرقان: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾ [سورة الحجر: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾ [سورة الروم: ٤٦]، وقوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [سورة الروم: ٤٨]، فالأظهر فيه الرحمة، وقرئ بلفظ الجمع [(١)].

ويعلق القرطبي على هذه القضية فيقول: فمن وحّد الريح، فلأنه اسم للجنس ويدل على القليل والكثير، ومن جمع فلاختلاف الجهات التي تهب منها الرياح، ومن جمع مع الرحمة ووحد مع العذاب فإنه فعل ذلك اعتباراً بالأغلب في القرآن: ﴿الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾ [سورة الروم: ٤٦] و﴿الرِّيحَ الْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]، فجاءت في القرآن مجموعة مع الرحمة، مفردة مع العذاب، إلا في يونس في قوله: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ [سورة يونس: ٢٢]، وروي أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول إذا هبّت الريح: (اللهم اجعلها رياحاً ولا تجعلها ريحاً) [(٢)].

(١) مفردات ألفاظ القرآن، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٢ه، ص ٣٧٠.

(٢) أحمد بن علي أبو يعلى، مسند أبي يعلى رقم: (٢٤٥٦)، تحقيق حسين سليم أسد، دار المأمون للتراث، دمشق، ط ٤، ١٩٨٤.

وذلك لأن ريح العذاب شديدة ملتئمة الأجزاء كأنها جسم واحد، وريح الرحمة لينة متقطعة؛ فلذلك هي الرياح، فأفردت مع الفُلْك في سورة يونس لأن ريح إجراء السفن إنما هي ريح واحدة متصلة، ثم وصفت بالطيب ﴿بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ﴾ فزال الاشتراك بينها وبين ريح العذاب [١].

وإنها لدقة عالية في التعليل لدى القرطبي؛ فالريح هي التي تحمل الدمار والخراب والشر، وشدة قوتها واتصال أجزائها لا يشعر بها الناس، حتى إذا ما وصلت إليهم ونسفت قواعدهم، ودمرت منازلهم، تراهم قد أصيبوا بالهلع والذعر، وربما الزوال، أما الرياح فهي النسيم العليل الحافل بالخير والبركة والهدوء والمطر والراحة النفسية، والطمأنينة القلبية، فتبارك الله الذي جعل للهواء جناحين؛ جناح رحمة وجناح عذاب [٢].

وقد ورد ذكر الريح والرياح في القرآن على وجوه عديدة منها:

١. رياح النصر

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا﴾ [سورة الأحزاب: ٩].

٢. مسيّرات السفن في البحار

هي سبب لتحريك السفن على وجه الماء، وبدونها تبقى راكدة دون حراك، مصداقًا لقوله سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلَامِ ﴿٣٢﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾

[سورة الشورى: ٣٢-٣٣].

---

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١/ ١٩٨.

(٢) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص ٣١٢.

٣. معنى نسمات الرحمة

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧].

فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي يرسل الرياح، فهي لا تُرسَل من غيره ولا تُرسَل من تلقاء نفسها، ولكن الله سبحانه هو الذي يرسلها، يرسلها بالرحمة لعباده محمّلة بالأمطار، ولا تتنزل إلا بأمره ولا تهطل إلا بإرادته، فهي متناسقة مأمورة حتى تأتي الأرض الموات فتهبط بأمر ربها لإحيائها عندما تكون قد أدّت ما أُمرت به، وتُخرج الأرض -بأمر الله تعالى- الغلال والثمار، وهذه الدورة التي أدَّتها الريح والأرض في إخراج الثمر وتقديم العطاء ليس فيها عسر ولا نصب، ولا يكتنفها جهد ولا مشقة؛ لأنها تسير بقوة الله التي لا تُغلب، وبأمره الذي لا يختلف ولا يتوقف: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [سورة يس: ٨٢].

كذلك قضية البعث، وقضية إحياء الموتى، وقضية جمع الذرات المتناثرة والأشلاء المتباينة؛ هينة على الله الذي خلقها من عدم، وهو قادر على إعادتها بعد تفرق، فعن أبي رزين العقيلي قال: قلت يا رسول الله كيف يعيد الله الخلق، وما آية ذلك في خلقه؟ قال: (أما مررت بوادي قومك جدباً، ثم مررت به يهتز خضراً؟ قال نعم، قال: فتلك آية الله في خلقه) (١).

وقيل وجه التشبيه أن إحياءهم من قبورهم يكون بمطر يبعثه الله على قبورهم فتنشق عنهم القبور، ثم تعود إليهم الأرواح، ثم يقول الله تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤].

---

(١) المعجم الكبير، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٩/ ٤٧٠. القرعاوي، التفسير العلمي المعاصر، مرجع سابق، ص ١٦٨.

ومن فوائد رياح نسمات الرحمة أنها تحمل البشرى والخير والبركة للخلائق ساكني الأرض، ولها وظائف أخرى سخّرها الله عَزَّوَجَلَّ لمصلحة عباده؛ ومن تلك الوظائف ما ذكره الحق عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُذِيقَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة الروم: ٤٦].

ووفي قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ مُبَشِّرَاتٍ﴾: فالرياح تبشّر بالمطر، وهم يعرفون الريح الممطرة بالخبرة والتجربة فيستبشرون بها، «وليذيقكم من رحمته»: بآثار هذه البشرى من الخصب والنماء، «ولتجري الفلك بأمره»: سواء بدفع الرياح لها أو بتكوين الأنهار من الأمطار فتجري فيها السفن، وهي تجري مع هذا بأمر الله ووفق سنته التي فطر عليها الكون، وحسب تقديره سبحانه، فقد أودع كل شيء خاصيته ووظيفته، وجعل من شأن هذا أن تطفو الفُلْك على سطح الماء فتسير، وأن تدفعها الرياح فتجري مع التيار أو ضد التيار، وكل شيء عنده بمقدار[١].

٤. إنها بمعنى «العذاب في العقوبة»

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: ٢٥-٢٦]، وقال تعالى: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: ٤١-٤٢]، وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ﴾ [سورة القمر: ١٩-٢٠].

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٧٤.

تقول الروايات إنه أصابهم حر شديد، واحتبس عنهم المطر، وانتشر الحر والجفاف، ثم ساق إليهم سحابة ففرحوا بها فرحاً شديداً، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الماء، قائلين: ﴿هَذَا عَارِضٌ مُمْطِرُنَا﴾ [سورة الأحقاف: ٢٤]، وجاءهم الرد من الخالق المبدع: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: ٢٤٢٥]، وهي الريح الصرصر العاتية التي ﴿مَا تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [سورة الذاريات: ٤٢].

وتُصور الآيات أن الريح حية مدركة مأمورة بالتدمير: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [سورة الأحقاف: ٢٥]، وهذه هي الحقيقة التي يجب أن يعيَها الناس؛ فهذا الوجود حي، وكل قوة من قواه واعية، وكلها تدرك عن ربها، وتتوجه لما تُكلَّف به من لدنه، والإنسان أحد هذه القوى، وحين يؤمن حق الإيمان، ويفتح قلبه للمعرفة الواصلة، يستطيع أن يعي عن القوى الكونية من حوله، وأن يتجاوب مع الحياة والإدراك، ففي كل شيء روح وحياة، ولكننا لا ندرك هذا لأننا محجوبون بالظواهر والأشكال عن البواطن والحقائق، والكون من حولنا حافل بالأسرار المحجوبة بالأستار التي تدركها البصائر المفتوحة ولا تراها الأبصار، وقد أدت الريح ما أمرت به؛ فدمرت كل شيء فأصبحوا لا يرون إلا مساكنهم (١).

٥. إنها بمعنى «القوة والدولة»

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [سورة الأنفال: ٤٥-٤٦]. أي: تذهب قوتكم ونصركم، والقوة عز لأهلها، والمؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف. وقال الإمام الشافعي:

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٦/ ٢٢٦٧. القرعاوي، التفسير العلمي المعاصر، مرجع سابق، ص ١٦٦.

إِذا هَـبَّـتْ رِيـاحُـكَ فَاغْتَنِمْها فَـعُـقْـبَى كُـلِّ خافِـقَـةٍ سُـكُـوْنُ
ولا تغفل عن الإحسان فيها فلا تدري السكونُ متى يكونُ [١]

إنها بمعنى «اللواقح»

هو كذلك سبب لإثارة السحاب وتلقيحه وتسييره من مكان إلى مكان آخر، ومن بلد إلى بلد آخر، كما قال سبحانه: ﴿اللَّهُ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ فِى السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسَفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة الروم: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ [سورة الحجر: ٢٢]. بيّنت هذه الآية أن إنزال الماء من السماء بتلقيح الرياح للسحب وتزويد السحب بقطرات الماء، وهذه حقيقة مشاهدة أثبتها علماء المناخ وأفاضوا في الحديث عنها.

يقول القرطبي: معنى لَوَاقِحَ: حوامل؛ لأنها تحمل الماء والتراب والسحاب والخير والنفع، وجعل الريح لاقحًا لأنها تحمل السحاب، أي: تقلّه وتصرفه، ثم تمر به فتستدرّه، أي: تنزله [٢].

وقال الطبري: اختلف أهل العربية في وصف الرياح باللقاح، وإنما هي ملقحة، لا لاقحة، وذلك أنها تلقِّح السحاب والشجر، وإنما توصف باللقح الملقوحة لا الملقح، كما يقال: ناقة لاقح.

وبعد أن ذكر أقوال العلماء قال: والصواب في ذلك عندي أن الرياح لواقح، كما وصفها به جلّ ثناؤه من صفتها، وإن كانت قد تلقح السحاب والأشجار، فهي

(١) التفسير العلمي المعاصر، القرعاوي، مرجع سابق، ص ١٦٣.

(٢) تفسير سورة الحجر، القرطبي.

لاقحة ملقحة، ولقحها: حملها الماء، وإلقاحها السحاب والشجر: عملها فيه، وذلك كما قال عبد الله بن مسعود [١].

- **ويمكن أن نستخلص من معطيات الآية القرآنية ما يلي:**

إن الله عَزَّوَجَلَّ أرسل الرياح وسخّرها لمنافع العباد، وصورة المنفعة في هذه الآية أنها تعمل على التلقيح ﴿لَوَاقِحَ﴾، والتلقيح يكون للأشجار والسُّحب معًا، إلا أن الآية هنا تتحدث عن تلقيح الرياح للسحب فقط، ولقد صرف وجه الإعجاز في هذه الآية عدد من المفسرين القدامى والمعاصرين على أن المقصود باللواقح تلقيح الزرع والشجر، والذي يتمعّن في قوله تعالى: ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ﴾ يجد أنها تستوعب كلا المعنيين، لكن لا ينبغي أن نغفل الجزء الثاني من الآية؛ وهو قوله تعالى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾، فلو أن ما ذهبوا إليه من أن الرياح تلقح الأشجار فقط لاستلزم المعنى واقتضى السياق القرآني أن يُبنى عليه إخراج الزروع والثمار بدل إنزال الماء، أما وأنَّ القرآن قد رتّب وعقَّب على إرسال الرياح اللواقح إنزال الماء من السماء ليسقيه الناس فقد تحتّم أن يكون المقصود باللواقح تلقيح الرياح للسحب لإنزال المطر، ويتضح الربط هذا من الفاء، التي ربطت بين السبب والمسبب، وأقامت العلاقة المتينة بين العلة والمعلول، ليكون المعنى: ﴿فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ وهذا هو وجه من وجوه الإعجاز القرآني في هذا الصدد، وهذا ما أثبته علماء المناخ [٢].

ويذكر الدكتور زغلول النجار في حديثه عن الإعجاز العلمي للقرآن الكريم أن هناك ثلاثة أنواع من التلقيح التي تحدث في السحب؛ تلقيح السحب الحارة بالسحب الباردة، ما يزيد عملية التكاثف ومن ثم نزول المطر، وتلقيح السحب

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، مرجع سابق، ١٤/ ١٤.

(٢) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص ٣١٥.

موجبة الشحنة بالسحب سالبة الشحنة فيحدث تفريغ وشرر كهربائي، فيكون المطر مصحوبـاً بالبرق والرعد، وهو صوت تمدد الهواء الناجم عن التفريغ، والتلقيح الثالث -وهو أهم أنواع التلقيح جميعـًا- أنّ الرياح تلقح السحاب بما ينزل بسببه المطر، إذ إن نويات التكاثف، وهي النويات التي تتجمع عليها جزيئات بخار الماء لتكون نقطـًا من الماء نامية داخل السحب، هي المكونات الأولى من المطر تحملها الرياح إلى مناطق إثارة السحب، وقوام هذه النويات هي أملاح البحار، وما تذرّه الرياح من سطح الأرض والأكاسيد والأتربة كلها لازمة للأمطار، وهذه هي فكرة المطر الصناعي؛ عندما تقوم بعض الطائرات برش السحب التي سبق أن تكونت ببعض المواد تعمل كنويات تكاثف، يتكاثف عليها المطر ويهطل، أي إن الرياح عامل أساسي في تكوين السحب وتلقيحها ونزول المطر، ودائمـًا ما يربط القرآن بين الرياح والمطر [1]. قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٧].

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامـًا عجيبـًا عن الهواء ووظائفه ومنافعه، وأنه وسيلة اتصال بالمفهوم الحديث لهذا المعنى؛ ينقل الكلام من مكان لآخر، كما ذكر وظائف ومنافع أخرى له غير ذلك، فقال: ثم تأمل هذا الهواء وما فيه من المصالح، فإنه حياة هذه الأبدان، والممسك لها من داخل بما تستنشق منه، ومن خارج بما تباشر به من روحه فتتغذى به ظاهراً وباطنـًا، وفيه تطرد هذه الأصوات فتحملها وتؤديها للقريب والبعيد، كالبريد والرسول الذي شأنه حمل الأخبار والرسائل؛ وهو الحامل لهذه الروائح على اختلافها، ينقلها من موضع إلى موضع، فتأتي العبد الرائحة من حيث تهب الريح، وكذلك تأتيه الأصوات، وهو أيضـًا الحامل للحر والبرد وما هُيئ له من الرحمة والعقاب.

---

(١) موسوعة الإعجاز العلمي في القرآن والسنة، محمد السقا، ص٣٠٦-٣٠٧.

وتأمل كم سُخر للسحاب من ريح حتى أمطر، فسُخّرت له «المثيرة» أولاً فتثيره بين السماء والأرض، ثم سُخرت له «الحاملة» التي تحمله على متنها كالجمل الذي يحمل الراوية، ثم سُخرت له «المؤلّفة» فتؤلف بين كسفه وقطعه، ثم يجتمع بعضها إلى بعض فتصير طبقًا واحداً، ثم سُخرت له «اللاقحة» بمنزلة الذكر الذي يلقح الأنثى فتلقحه بالماء، ولولاها لكان جهامًا لا ماء فيه، ثم سُخرت له «المُزجية» التي تزجيه وتسوقه إلى حيث أُمر فيفرغ ماءه هنالك، ثم سُخرت له بعد إعصاره «المفرّقة» التي تبثّه وتفرقه في الجو فلا ينزل مجتمعًا، ولو نزل جملة لأهلك المساكن والحيوان والنبات، بل تفرّقه فتجعله قطراً، وكذلك الرياح التي تلقح الشجر والنبات، ولولاها لكانت عقيمًا، وكذلك الرياح التي تسيّر السفن، ولولاها لوقفت على ظهر البحر.

ومن منافعها أنها تبرد الماء وتُضرم النار التي يراد إضرامها، وتجفّف الأشياء التي يحتاج إلى جفافها، وبالجملة فحياة ما على الأرض من نبات وحيوان بالرياح؛ فإنه لولا تسخير الله لها لعباده لذَوى النبات ومات الحيوان وفسدت المطاعم وأنتن العالم وفسد؛ ألا ترى إذا ركدت الرياح كيف يحدث الكرب والغم الذي لو دام لأتلف النفوس، وأسقم الحيوان، وأمرض الأصحاء، وأنهك المرضى، وأفسد الثمار، وعفن الزرع، وأحدث الوباء في الجو؟ فسبحان من جعل هبوب الرياح تأتي بروحه ورحمته ولطفه ونعمته، كما قال النبي في الرياح إنها من روح الله تأتي بالرحمة [١].

الثالث عشر: خلق السحاب والرعد والبرق والصواعق

إن من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون العجيب السحاب والرعد والبرق والصواعق، وهي خاضعة لقوانينه وقدرته ومشيئته وفق حكمته وعلمه سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ.

(١) مفتاح دار السعادة، ابن القيم، مرجع سابق، ١/ ٢١٦-٢١٧.

١. السحاب

تحدث الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ **عن السحاب، وهو نوعان:**

أ. السُحب البسيطة

ذُكِرَ هذا النوع في القرآن الكريم، وهي كما يفهم من اسمها تظهر بشكل طبقات تحجب السماء بأكملها، ولا توجد لها حدود واضحة، ويمكن تشبيهها بالضباب المرتفع، وهي من السحب المنخفضة، وقد تصل قاعدتها في بعض الأحيان إلى سطح الأرض فتظهر بشكل ضباب، وقد يحدث أن تتكون من الضباب نفسه عندما يرتفع بتأثير حرارة الشمس أو الرياح أو كليهما، وهي من السحب التي قد يصحبها هطول خفيف من الرذاذ أو حبيبات الثلج، ويكون الهطول عادة متصلاً أو منقطعـاً، ومنها ما يكون رقيقـاً شفافـاً لا يحجب الشمس، ومنها ما يكون سميكـاً معتمـاً، والنوع السميك منها يصاحبه في المعتاد هطول من المطر أو الثلج أو خليط منهما[١].

وفي هذا النوع قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [سورة الروم: ٤٨].

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَاحَ﴾: وَفق ناموسه في تكوين هذا الكون وتنظيمه وتعريفه، ﴿ فَتُثِيرُ سَحَابًا ﴾: بما تحمله من بخار الماء المتصاعد من كتلة الماء في الأرض، ﴿ فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾: ويفرشه ويمده، ﴿وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا﴾: بتجميعه وتكثيفه وتراكمه بعضه فوق بعض، أو يصطدم بعضه ببعض، أو تنبعث شرارة كهربائية بين طبقة منه وطبقة، أو كسفة منه وكسفة، ﴿فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ﴾: وهو المطر يتساقط من خلال السحاب، ﴿فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ

(١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق، ص ٣٢٤.

عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾؛ لا يعرف هذا الاستبشار على حقيقته كما يعرفه الذين يعيشون مباشرة على المطر [١].

ليس في الكلام مثل هذا الكلام من حيث جمال التعبير واكتمال المعنى، ومن حيث المرونة في العرض الذي يستقيم به المعنى لكل ذي لبّ من الناس، سواء كان في الزمان الغابر وما فيه من بدائية المعرفة، أو كان في زماننا هذا بما فيه من ظواهر مذهلة في العلم والاختراع أو تقدم مثير في الخبرات والنظريات العلمية.

إن كلاماً يسمو فوق آفاق العقول في عامة الأدهار، وينسجم تمام الانسجام مع المعطيات الكونية التي يتوصل إليها الإنسان رويداً رويداً، إن هذا الكلام بهذه الطريقة والكيفية في العرض لا جرم أن يكون من عند الله وأنه معجز [٢].

ب. السحب الركامية

تتكون من تراكم السحب وركوب بعضها على بعض، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ [سورة النور: ٤٣].

وتمثل هذه الآية الكريمة إعجازاً علمياً رائعاً في علم المناخ والرياح وتكوين السحب الركامية؛ فهي تتحدث عن تكوين السحب الركامية، التي تبدأ بدفع الرياح للسحب رويداً رويداً، ثم تأتي المرحلة الثانية التي تتمثل بتأليف وجمع قطع السحاب، ثم تصبح هذه القطع مركومة بعضها فوق بعض، وعملية الركم هذه تتبع نزول المطر، وبسبب التراكم التقاعدي تنشأ جبال سيارة من البَرَد، ونويات البَرَد هذه

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٧٧٥.

(٢) إعجاز القرآن، أمير عبد العزيز، مكتبة دنديس، عمان، ٢٠٠٤، ص ١٩٢.

محصورة في السحب الركامية، ولم نقرأ في السحب البساطية أنها تحتوي على البَرَد أو البرق أو الرعد، ثم إن الآية تخبر أن هذا البَرَد له برق، والبرق نتيجة حتمية للبَرَد، وغير هذه الحقائق والأسرار تحتويها هذه الآية، وسوف نرى بإذن الله أن العلم وصل بشكل دقيق إلى ما أوضحته الآية القرآنية بعدما تطور علم الأرصاد الجوية واستعمال العلماء أجهزة الاستشعار عن بعد والرادارات والأقمار الصناعية وغيرها [١].

وفي آية النور يعرض الله المشهد في إطالةٍ، وتترك أجزاؤه للتأمل قبل أن تلتقي وتتجمع، كل أولئك لتؤدي الغرض من عرضها في لمس القلب وإيقاظه، وبعثه إلى التأمل والعبرة، وتدبر ما وراءها من صنع الله.

إن يد الله تزجي السحاب وتدفعه من مكان إلى مكان، ثم تؤلف بينه وتجمعه، فإذا هو ركام بعضه فوق بعض، فإذا ثقل خرج منه الماء والوبل الهاطل، وهو في هيئة الجبال الضخمة الكثيفة، فيها قطع الثلج الصغيرة، ومشهد السحب كالجبال لا يبدو كما يبدو لراكب الطائرة وهي تعلو فوق السحب أو تسير بينها، فإذا المشهد مشهد الجبال حقاً؛ بضخامتها، ومساقطها، وارتفاعاتها وانخفاضاتها، وإنه لتعبير مصور للحقيقة التي لم يرها الناس إلا بعد ركوب الطائرة.

وهذه الجبال مُسخَّرة بأمر الله، وفق ناموسه الذي يحكم الكون، ووفق هذا الناموس يصيب الله بالمطر من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وتكملة المشهد: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: وذلك ليحصل التناسق مع جو النور الكبير في الكون العريض، على طريقة التناسق في التصوير [٢].

---

(١) الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث، التفتنازي، مرجع سابق ص ٣٢٥.

(٢) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٥٢٢.

لقد وصفت الآيات القرآنية الوصف الكامل بالضبط طريقةَ تكوين السحاب والظواهر المصاحبة لتكوينه، والنتائج المترتبة عليه؛ يبدأ بالسَّوق، ثم بالتأليف، ثم بالتراكم، فينزل المطر.

تغيير حرف العطف: انظر إلى الدقة على مستوى الحرف؛ لأن المدة من السوق إلى التأليف تأخذ زمناً، ومن التأليف إلى نهاية المطر تأخذ زمناً، لكن بعد أن ينتهي الركم إلى نزول المطر لا وجود للزمن، ولذلك كان التعبير المناسب لهذا المعنى بحرف «الفاء»؛ الذي يدل على التعقيب والترتيب بسرعة، ولذلك قال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ﴾، ﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ﴾: يعني يقول لك: انظر إلى السماء، «من جبال»؛ ماء الجبال، أيّ: «فيها من بَرَد»: إذاً هي سحاب.

لا يتكون البَرَد إلا في السحاب الركامي الذي تختلف درجة حرارة قاعدته عن قمّته، وبسبب هذا الشكل الجبلي للسحاب يتكون البَرَد، وأما الشكل الطبقي فلا يتكون فيه بَرَد، ولذلك قال: «وينزل من السماء من جبال فيها من بَرَد»، فيجب أن يكون السحاب على شكل جبل، «فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء»: يصيب الله به من يشاء، والضمير يرجع إلى البَرَد، يقول علماء الأرصاد: يتكون البَرَد وينزل إلى قاعدة السحاب، وفجأة يأتي تيار هوائي يصرفه ويعيده إلى وسط السحاب.

أما كيفية فهم قوله تعالى: ﴿فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ﴾؛ فيعني: كان متّجهاً إلى قوم فقال له: ارجع، وتتبّع علماء الأرصاد ذلك فوجدوها دورة تدورها حبّة البَرَد وتكون غلافاً، فلما تنزّلت حبّة البَرَد إلى الأرض نعرف كم دورة دارت حبّة البَرَد في جسم السحاب. قال تعالى: ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾: سنا برقه: لمعان برقه؛ بيّن مؤتمر دولي في عام ١٩٨٥م -لأول مرة- أن البَرَد هو السبب الحقيقي لتكوين البرق، فعندما يتحول البَرَد من سائل إلى

جسم صلب تتكون الشحنات الكهربائية الموجبة والسالبة، وعندما تدور حبّة البَرَد توزع الشحنات الموجبة والشحنات السالبة، ومع استمرار الدورات تكون عملية التوصيل، فالبرق من البَرَد [١].

ومن الآيات التي تحدثت عن السحب ونزول الأمطار قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً فُرَاتًا﴾ [سورة المرسلات: ٢٧]، أي: جعل فيها جبالاً رواسي ثابتات سامقات، تتجمّع على قممها السحب، وتنحدر عنها مساقط الماء العذب، أفيكون هذا إلا عن قدرة وتقدير وحكمة وتدبير؟ [٢].

فالجبال الشاهقة تكون مصدراً للأمطار، حيث تعترض الرياح المحملة ببخار الماء، إذ تجبر الهواء الرطب على الارتفاع إلى الأعلى فيبرد ويتكاثف ويسقط مطراً غزيراً [٣].

وقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ۝١٤ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ۝١٥ وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾ [سورة النبأ: ١٤-١٦]، «وأنزلنا من المعصرات»: أي: السحاب، «ماء ثجاجـًا»: أي: كثيراً جداً [٤].

فقد أثبت العلم الحديث أنه بعد أن يتكون السحاب يمر فيه تيار هوائي دائري يدور كالعصارة، فيرفع بدورانه هذه السحابةَ المشبعةَ ببخار الماء إلى الأعلى فيبرد ويتكثف ويلقح أيضـًا، وتبدأ عملية العصر عند نقطة محدّدة في مكان محدّد من الطبقات العليا، فينزل المطر، ثم لا تلبث أن تَرفع كمية أخرى من الهواء المشبع ببخار الماء من الأسفل إلى الأعلى، وتتكثف وينزل الماء، فعن طريق العصر ينزل

(١) دلائل الإعجاز العلمي، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، ٢٠٠٦، ص ٤٣٦.

(٢) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٦/ ٢٧٩٣.

(٣) الاكتشافات العلمية الحديثة، سليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، ط ١، ١٩٨٧، ص ١٥٧.

(٤) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص ١٠٧٢.

الماء من السحب دفعة دفعة، وليس بانسياب مستمر، وهذه الظاهرة تشاهد كثيراً في المناطق الاستوائية حيث تيارات الحمل قوية، فتحمل السحاب وينزل المطر وتكثر الغابات وتتشابك، وتلتف الأشجار بعضها حول بعض [١].

١. الرعد والبرق والصواعق

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [سورة الرعد: ١٢-١٣]؛ أيّ: «هو الذي يريكم البرق» يخبر تعالى بأنه هو الذي يسخّر البرق، وهو ما يُرى من النور اللامع ساطعـًا من خلال السحاب، «خوفـًا وطمعـًا»: خوفـًا للمسافر يخاف أذاه ومشقّته، وطمعـًا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله، «وينشئ السحاب الثقال» أي: يخلقها مُنشَأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، «يسبّح الرعد بحمده» لقوله: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [سورة الإسراء: ٤٤]، «والملائكة من خيفته» أي: خشّعـًا لربهم خائفين من سطوته، «ويرسل الصواعق» وهي هذه النار التي تخرج من السحاب، «فيصيب بها من يشاء» أي: من عباده بحسب ما شاءه وأراده، «وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال» أي: شديد الحول والقوة، فلا يريد شيئـًا إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء، ولا يفوته هارب، فإذا كان وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يُخاف منها وتزعج العباد، وهو شديد القوة، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده [٢].

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ١١٠.

(٢) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص ٤٧٠.

وفي هذه الآيات حقيقة كونية؛ وهي أن سبب حدوث البرق والرعد والصواعق مع تكوين السحاب الثقال الممطر، أي: المتشابه الضخم في الجو العاصف، هو اجتماع الحالتين المتضادتين المتكهربتين المتجاذبتين تجاذباً شديداً في هذا السحاب عندما يقترب بعضه من بعض، ثم يجتمعان.

ويخبر العلم بأن البرق شرر كهربائي عظيم الحرارة شديد الضوء مفرط السرعة، ويحدث بمرور الكهرباء في الهواء بين كتل السحاب الرعدي، فيسخن الهواء في مقاومته بمرور الكهرباء خلاله إلى درجة عظيمة، ويتمدد بسرعة كبيرة، ولكنه يبرد ويرجع إلى حالته الأصلية بسرعة كبيرة أيضاً، فتولد من تمدده وانكماشه السريعين موجات اهتزازية عظيمة السعة، فتنتشر في الهواء بين السحاب والأرض، فينشأ عنهما صوت الرعد. فالعلم إذاً يتفق مع ما قيل من أنَّ السبب العام من تولد البرق والرعد والصواعق هو التكهرب الموجب والسالب في السحاب [(١)].

٢. أخطار الصواعق والبرق:

قال تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة البقرة: ١٩٢٠]، إنه مشهد عجيب، حافل بالحركة، مشوب بالاضطراب، فيه تيه وضلال، وفيه هول ورعب، وفيه فزع وحيرة، وفيه أضواء وأصداء؛ صيّب من السماء هاطل غزير «فيه ظلمات ورعد وبرق»، «كلما أضاء لهم مشوا فيه»، «وإذا أظلم عليهم قاموا» أي:

---

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية تاريخه وموقف العلماء منه، بكر زكي إبراهيم عوض، ص ٧٠- ٧١.

وقفوا حائرين لا يدرون أين يذهبون وهم مفزعون، «يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت».

إن الحركة التي تغمر المشهد كله؛ من الصيّب الهاطل، إلى الظلمات والرعد والبرق، إلى الحائرين المفزعين فيه، إلى الخطوات المروِّعة الوجلة التي تقف عندما يخيم الظلام، إن هذه الحركة في المشهد لترسم -عن طريق التأثر الإيحائي- حركة التيه والاضطراب والقلق التي يعيش فيها أولئك المنافقون [١].

الرابع عشر: خلق الشجر والنبات

الشجر والنبات نعمة من نعم الله في الخلق، وقد كرّر الله ذكرها في كتابه العزيز تذكيراً بما فيها من الجمال والظلال، وما فيها من الثمار والمنافع التي لا تحصى، والمتاع النافع للناس ولأنعامهم، وهي آية من آيات الكمال في الخلق الذي أبدعه الله وسواه وأحكمه وأحسن صنعه سبحانه؛ فخلق الأرض وقدر لها أن تكون مكاناً ليعيش فيه بنو آدم ودوابهم، وقضى لها أن تكون كوكب حياة، فجعل فيها ما يحقق هذه الغاية؛ بالقَدَر السابق من الله عَزَّوَجَلَّ أن تكون سكناً لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ وزوجه وذريتهما من بعدهما، ولذا جاء خلق النبات والشجر مصاحباً لخلق الأرض، والحديث عنه في القرآن مقترن بالحديث عن خلقها.

إن ذلك يقرر الحقيقة العظمى في انتفاء المصادفة عن الخلق، وأن هذا الكون بما فيه خُلق وفق قدر محكم، ونظام دقيق، وحكمة عظمى، لا ترى فيه من تفاوت، ولا تحس فيه من خلل، ولا تلتمس فيه من نقص ولا عيب، فسبحان الذي خلق فسوى وقدر فهدى، وسبحان العليم العظيم الذي أحاط بكل شيء علماً وأحصى كل شيء عدداً [٢].

---

(١) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ١/ ٤٦.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٣٩.

١ . خلق النبات:

تقرر الآيات الكريمة بداية خلق النبات في الأرض في مرحلة الدحي الوارد في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [سورة النازعات: ٣٠-٣١].

فإخراج الماء والمرعى هو معنى الدحي، قال القرطبي: أي: بسطها، وقيل: دحاها سواها، وقيل: دحاها: حرثها وشقها. وقيل: مهّدها للأقوات، والمعاني متقاربة، وقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا﴾ أي: أخرج من الأرض. ﴿مَاءَهَا﴾ أي: العيون المتفجرة بالماء، ﴿وَمَرْعَاهَا﴾ أي: النبات الذي يُرعى، وقال القُتَبي: دل بشيئين على جميع ما أخرجه من الأرض قوتـاً ومتاعـاً للأنام من العشب والشجر والحب والتمر والعصف والحطب واللباس والنار والملح [1].

وقال سبحانه: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٩ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِن فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِّلسَّائِلِينَ﴾ [سورة فصلت: ٩-١٠]، وعن ابن عباس قال: خلق الله الأرض في يومين، ثم خلق السماء، ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض، ودحيها أن أخرج منها الماء والمرعى، وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين، فذلك قوله تعالى: ﴿دَحَاهَا﴾ [2].

٢ . منافع النبات:

والله سبحانه يقرر حقيقة أن هذه الأرض وُضعت في الأصل للناس لعَمَارتها

(١) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، مرجع سابق، ١٩/ ٢٠٥.

(٢) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، مرجع سابق، ٤/ ٩٢. الخرعان، قصة الخلق، مرجع سابق، ص ٢٤٠.

والعيش فيها، ولذا جعل فيها ما يحقق هذه الغاية، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ﴾ [سورة الرحمن: ١٠].

قيل في معنى: ﴿لِلْأَنَامِ﴾: الناس، وقيل: الجن والإنس، وقيل: بل كل ما دبّ على وجه الأرض، ثم يبين سبحانه ما وضع فيها من مقومات حياتهم، فيقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١١﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ﴾ [سورة الرحمن: ١١-١٢].

ويقول عَزَّوَجَلَّ مبيناً نعمته على عباده بتنويع نعمه وفضائله فيما يبثه من أنواع النبات وأشكاله وطعومه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠١١].

وقد كرر الله تعالى التذكير لعباده في كتابه العزيز بأنه سبحانه الخالق وحده لهذا النبات، ابتداء يوم خلق السماوات والأرض، وامتداداً حين ينزل الماء من السماء، ويخرج الزرع والثمر، في آية من آياته المبهرة الدالة على قدرته على الحياة والموت والبعث والنشور، قال سبحانه: ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [سورة الواقعة: ٦٣-٦٤].

وبيّن سبحانه نعمته على عباده بأن جعل لهم في هذه الأرض من المتع وموارد العيش ما يقيم حياتهم وحياة أنعامهم: قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ﴾ [سورة عبس: ٢٤-٣٢]. والحَب: كل ما يذكر من الحبوب، والقضب:

العلف، وأما الفاكهة: فكل ما يُتفكّه به من الثمار، والأبّ: ما أنبتت الأرض مما تأكله الدواب ولا يأكله الناس [(١)].

وكما أنها للعيش والأكل فهي كذلك للبهجة والجمال والسرور، قال سبحانه: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة النمل: ٦٠] [(٢)].

٣. جمال الأشجار ومنافعها:

الأشجار رمز للجمال، وتعتبر من أهم الزينات التي تزين الأرض، جبالها وسهولها ووديانها وحدائقها ومساكنها وشوارع مدنها، وهي محل ضرب الأمثال الجمالية في القرآن الكريم.

أ. **شجرة النخيل:**

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤-٢٥]، «ألم تر كيف ضرب الله مثلاً كلمة طيبة» وهي شهادة أن لا إله إلا الله وفروعها، «كشجرة طيبة» وهي: النخلة، «أصلها ثابت» في قلب المؤمن علماً واعتقاداً، «وفرعها في السماء» من الكلم الطيب، والعمل الصالح، والأخلاق المرضية، والآداب الحسنة، في السماء دائماً، «تؤتي أُكُلَها كل حين بإذن ربها» يصعد إلى الله منه من الأعمال والأقوال التي تخرجها

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٢) الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

شجرة الإيمان ما ينتفع به المؤمن وينتفع به غيره، «ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون» ما أمرهم به وما نهاهم عنه [(١)].

وقال تعالى: ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾ [سورة ق: ١٠]. «والنخل باسقات»: وهي الطوال، وهو نوع خاص من النخل يتميز بطول ساقه حتى ليتجاوز الثلاثين متراً بالارتفاع، «لها طلع نضيد» أي: متراكب بعضه على بعض، وفي ذلك القدرة الإلهية المبتدعة التي تتجلى في خلق النخلة الباسقة بهذا الطول الفارِهِ، وإعطائها من القدرات البينة الظاهرة والخفيّة المستترة ما جعل من النخل مضرب المثل في القرآن الكريم، الذي ذكره في عشرين موضعـاً، وفضّله على غيره من أنواع الزروع والفاكهة، وجعله في مقابلة غيره من أنواع النبات.

فمن القدرات الظاهرة للنخل ثباته في الأرض، وارتفاعه فوق سطحها، ومقاومته للريح، وتحمله لكل من الحرارة الشديدة والجفاف، وقوته وتعميره، ووفرة إنتاجيته تحت أقسى الظروف، وتعدد أشجاره وثماره شكلاً ولونـاً وطعمـاً وحجمـاً ونفعـاً، وتعدد الفوائد المرجوة من كل جزء من أجزاء شجرته المباركة...إلخ [(٢)].

ب. شجرة الزيتون

ذكر الله في القرآن الكريم شجرة الزيتون كواحدة من مكونات المثل الذي ضربه الله لنوره في السماوات والأرض، الأمر الذي يدل على اهتمام القرآن الكريم بجمال الأشجار، فقد زادت الدنيا جمالاً إلى جمالها ونوراً إلى نورها.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا

(١) صحيح تفسير القرآن العظيم، السعدي، مرجع سابق، ص ٤٨٣.

(٢) آيات النبات في القرآن الكريم، زغلول نجار، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ص ٤٠٩.

شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [سورة النور: ٣٥]، وقد فُسر قوله تعالى «الله نور السماوات والأرض» بكونه مُنوِّر السماوات والأرض، وهادي أهل السماوات والأرض، فبنوره اهتدى أهل السماوات والأرض، وهذا إنما هو فعله، وإلا فالنور الذي هو من أوصافه قائم به، ومنه اشْتُقَّ اسم النور الذي هو أحد الأسماء الحسنى، والنور يضاف إليه سبحانه على أحد وجهين؛ إضافة صفةٍ إلى موصوفها، وإضافة مفعولٍ إلى فاعله [1].

وفي قوله تعالى: «مثل نوره» وهي أن أصل الإيمان يكون من الله، وعندما يشرح الله صدر عبده المؤمن للإسلام، ويجعل له نوراً، فيبدأ به النور والحياة، وقد شبَّه العلم المستفاد من الوحي الواصل للقلب بالزيت الجيد، فاستدامة النور وقوته وسلامته وتنامي حياة القلب إنما تكون بالعلم بالكتاب والسنة والعمل به، فهي غذاؤه ومادة حياته [2].

إن ضياء النار يحتاج في دوامه إلى مادة تحمله، فتلك المادة للضياء بمنزلة غذاء الحيوان، فكذلك نور الإيمان يحتاج إلى مادة من العلم النافع والعمل الصالح يقوم بها، ويدوم بدوامها، فإذا ذهبت مادة الإيمان طفئ كما تطفأ النار بفراغ مادتها [3].

إن المثل دل على أن الإيمان يزيد وينقص، ويزيد العلم الواصل للقلب المستفاد من نور الكتاب والسنة كما ينقص بنقصه، ومأخذ ذلك من المثل هو تشبيه

---

(١) اجتماع الجيوش الإسلامية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١، ١٩٨٨، ص ٦.

(٢) الأمثال القرآنية، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٩٨٠، ١/ ٣٦٠.

(٣) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٢٠٥.

العلم الذي يمد القلب بالمعارف والحقائق الإيمانية بالزيت الذي يمد المصباح بالوقود، وكون المصباح يزيد ضوءه ويصفو بزيادة الزيت وجودته.

والمؤمنون يتفاوتون بقوة النور الكائن في قلوبهم بحسب ما عندهم من العلم والإيمان، وأكمل المؤمنين نوراً هو النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ؛ لكمال علمه وإيمانه.

إن المثل دل على أن النور الذي يجعله الله في قلوب المؤمنين نور حقيقي، ومأخذ ذلك هو تشبيه ذلك النور الذي يُعلم معناه ولا تعرف كيفيته بنور المصباح.

هناك تشابه بين الفطرة والفتيلة من حيث إن كلاً منهما في أصل خلقه ووضعه مهم لاستدعاء وتشرّب ما يناسبه؛ فالفتيلة تتشرب الوقود المناسب وتمتصه وتتبلل به وتصبح مهيأة به للاشتعال إذا أُوقدت، وكذلك الفطرة على الدين الحنيف التي فطر الله قلوب العباد عليها، مهيأة لاستدعاء ما يناسب من التوحيد والدين الحق، فإذا تشربت ما يرد إليها من ذلك من العلم بالكتاب والسنة فإنها تكون مهيأة لإيقاد مصباح، وقذف نور الإيمان به، قال الله تعالى ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [سورة الروم: ٣٠].

فالله عَزَّوَجَلَّ فطر كل الناس على معرفته وتوحيده ومحبته، وجبل نفوسهم على استدعاء ما يناسب ذلك وقبوله من الدين والإسلام، والفطرة تزكّى بالعلم المستمد من الكتاب والسنة، وتطهَّر من مكائد شياطين الإنس والجن الذين يجتهدون في إفسادها[(١)].

إن المثل دل على أثر نور العلم والإيمان في العقل، حيث أكسبه سلامة التعقل وسداد النظر وصحة الاستنتاج.

وإن الطريق إلى الحق في كل المطالب الدينية إنما يكون بأعمال العقل المستنير بالوحي النازل على الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ لاستخلاص الحقائق والمعارف اليقينية وغيرها.

---

(١) الأمثال القرآنية، الميداني، مرجع سابق، ١/ ٣٩٠-٤١٢.

وإن العقل المجرد عن العلم لا سبيل له إلى تلك الحقائق، كما دل المثل على أن النور سطع وأشرق على كل أعمال القلب ووظائفه الأخرى من العقائد والعواطف والإرادات والانفعالات، فأخصبها بالخير والسلام والصلاح.

وفي قوله: «نور على نور» دل على أن نور القرآن والسنة والعلم المستفاد منهما يغذي نور الإيمان ويزيده ويقويه.

وفي قوله تعالى: «ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور» دليل على أن النورين من الله؛ نور الإيمان الذي يُقذَف في القلب، ونور العلم الذي طريقه الوحي، فمن هُدي إلى الأول واهتدى بالثاني فقد أعطاه الله نوراً تاماً، ومن كان غير ذلك فليس له من نور، بل في طريق من طرق الضلال سائر الظلمات [(١)].

وفي قوله: «يوقَد من شجرة مباركة زيتونة» نور زيت الزيتون كان أصفى نور يعرفه المخاطَبون، ولكن ليس لهذا وحده كان اختيار هذا المثل، إنما كذلك الظلال المقدسة التي تلقيها الشجرة المباركة في الوادي المقدس في الطور، وهو أقرب منابت الزيتون لجزيرة العرب، وهي شجرة معمرة، وكل ما فيها ينفع الناس؛ زيتها وخشبها وورقها وثمرها، ومرة أخرى يلتفت من النموذج الصغير ليذكّر بالأصل الكبير، فهذه الشجرة ليست شجرة بعينها متحيزة إلى مكان أو جهة، إنما هي مثَل مجرد للتقريب: «لا شرقية ولا غربية»، وزيتها ليس زيتاً من هذا المشهود المحدود، وإنما هو زيت آخر عجيب؛ «يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار» فهو من الشفافية بذاته ومن الإشراق بذاته، حتى ليكاد يضيء بغير احتراق [(٢)].

وذكر تعالى شجرة الزيتون أيضاً في قوله: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ [سورة المؤمنون: ٢٠]؛ «وشجرة تخرج من طور

---

(١) المعجزة الخالدة، الصلابي، مرجع سابق، ص ٢٠٦.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ١/ ٢٥٢٠.

سيناء»؛ هذه الآية تشير بوضوح إلى شجرة الزيتون التي تؤكل ثمارها، ويُؤتدم بزيتها، وبما فيه من منافع للناس.

وفي قوله: «تنبت بالدهن» أي: تنبت ثمارها ملتبسة بالدهن وهو زيت الزيتون، «وصبغ للآكلين»: أي: إدام وطعام لهم، سمي صبغـًا لكونه إدامـًا، ولأنه يصبغ الخبز إذا لامسه، ولعل في ذلك إشارة إلى ما هو غير الدهن من مئات المركّبات الكيميائية المهمة التي مكّن الله تعالى شجرة الزيتون من استخلاصها من ماء الأرض وتربتها، ونقلها من العصارة الغذائية، وتخليقها في أوراقها وثمارها، وهو ما تعجز أكبر المصانع التي بناها الإنسان عن تحقيقه، لذلك امتدح ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ كلاً من شجرة الزيتون وزيتها في ستة مواضع أخرى من القرآن الكريم، وأقسم بالتين والزيتون في موضع سابع منه، والله تعالى غني عن القسم لعباده[1].

وقد ثبت بالدراسة أن أفضل الزيوت النباتية على الإطلاق هو زيت الزيتون، وذلك لما أعطاه الله تعالى من خاصية خفض الدم، وتقليل امتصاص الجسم للكوليسترول بصفة عامة، وإبقاء المعدل الكلي للكروليسترول في الدم بحدود (١٣٪)، وإنقاص معدل الكوليسترول الخفيف بنسبة (٢١٪)، فيرفع نسبة الكوليسترول المفيد نسبياً في الدم، والمعروف باسم الكوليسترول الثقيل.

ومن الثابت طبياً أنه كلما انخفضت نسبة الكوليسترول الضار وزادت نسبة المفيد منه في الدم قلّت نسبة الإصابة بالجلطة القلبية؛ من مثل الإصابة بالمرض المعروف باسم «احتشاء العضلة القلبي»، وعلى ذلك فإن تناول زيت الزيتون بكميات منتظمة يحمي القلب من أمراض انسداد الشرايين، وهي من أكثر الأمراض انتشاراً في الزمن الحاضر.

---

(١) من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، المرجع السابق، ص ٤٢٢.

وقد ثبت بالتحليل الدقيق احتواء كل من ثمرة الزيتون وزيتها على مركبات كيميائية تمنع تخثر الدم، وانطلاقاً من ذلك يوصي الأطباء كل من أجريت لهم عمليات توسعة لشرايين القلب بتناول (٤-٥) ملاعق من زيت الزيتون، ويستخدم هذا الزيت في إنتاج العديد من الأدوية، والدهانات الطبية، وزيوت الشعر والصابون، وبه كانت توقد المصابيح في المنازل والمساجد قديماً؛ لصفاء اللهب الناتج عن اشتعاله.

ج. **شجرتا التين والزيتون:**

قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [سورة التين: ١-٣].

هذه الآيات القرآنية الثلاث يقسم فيها ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بكل من التين والزيتون، وجبل طور سيناء، ومكة المكرمة، والله تعالى غني عن القسم لعباده، ولكن إذا جاءت الآية القرآنية بصيغة القسم كان في ذلك تنبيه لنا على أهمية الأمر المقسم به.

وفي القَسَم الثاني بالتين تأكيد لتميز ثمرته بقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مقيدة، وغير ذلك من المركبات الكيميائية المهمة، ومنها المضادة للسرطانات، والفيروسات والبكتيريا والطفيليات، كما أثبتت الدراسات مؤخراً، وفي القسم بالزيتون إشارة إلى تميز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوفر لغيره من النباتات [١].

د. **شجرة اليقطين**

قال تعالى: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ۝١٤٥ وَأَنبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ﴾ [سورة الصافات: ١٤٥-١٤٦].

---

(١) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، زغلول النجار، ص ٣٠٧.

بتأمل هاتين الآيتين الكريمتين من سورة الصافات، يتبادر إلى الذهن اختيار الله عَزَّوَجَلَّ للتعبير القرآني «شجرة من يقطين»، لحماية عبده ونبيّه يونس بن متى، على نبينا وعليه من الله السلام، بعد أن نبذه الحوت بالعراء وهو سقيم، أي: وهو منهك القوى من شدة المرض، وهذا التنكير في الإشارة إلى شجرة اليقطين يفيد بأن الشجرة من جنس اليقطين الذي عرفه العرب، ومنه كلٌّ من القرع العسلي، وقرع الكوسا، والحنظل، وليست نوعـاً محدداً [١].

وتُوحي الصياغة القرآنية: «شجرة من يقطين» بأن المقصود هو عموم اليقطين الذي نعرفه، وهنا يظهر التساؤل المنطقي؛ وماذا في اليقطينيات من علاج للحالات المماثلة للحالة التي مر بها نبي الله يونس عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بعد أن التقمه الحوت ولفظه بالعراء وهو سقيم؟ أي مريض منهك القوى [٢].

وثبت بالدراسة المختبرية التي أعدَّها الدكتور كمال فضل خليفة الأستاذ المشارك في علم النبات بجامعة الخرطوم، أن اليقطينيات تحتوي على عدد من المركبات الكيميائية المهمة التي لها تأثير طبي علاجي ووقائي واضح؛ يبرز في مقاومة الحشرات، وفي علاج العديد من الالتهابات الجلدية وتقرحاتها [٣].

وفي علاج عدد من أمراض الجهازين الهضمي والبولي، وفي مقاومة بعض الأمراض السرطانية - عافانا الله جميعـاً منها-هذا بالإضافة إلى القيمة الغذائية العالية لثمار اليقطينيات المأكولة، والقيمة الطبية للثمار التي لا تؤكل؛ مثل ثمار الحنظل، وهنا تتضح روعة الإشارة القرآنية المبهرة في قول الحق تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنۢبَتۡنَا عَلَيۡهِ شَجَرَةً مِّن يَقۡطِينٍ﴾ [سورة الصافات: ١٤٥].

---

(١) من آيات النبات في القرآن الكريم، النجار، مرجع سابق، ص ٥١٢.

(٢) المرجع نفسه، ص ٥١٤.

(٣) مدخل إلى دراسة الإعجاز العلمي، النجار، مرجع سابق، ص ٣٠٨.

هـ. شجر المراعي

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠].

وفي قوله: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾ أي: وأخرج لكم منه شجراً ترعون فيه أنعامكم، ومن الثابت علمياً أن الماء سابق في وجوده على الأرض لخلق جميع أحيائها، وأن النبات سابق في وجوده لخلق الحيوان، وكلاهما سابق في وجوده لخلق الإنسان، وبتقدير الله أدى النبات -ولا يزال مؤديًا- للدور الرئيسي في إمداد الغلاف الغازي للأرض بالأكسجين، وفي تخليق الجزيئيات العضوية اللازمة لبناء أجساد كل من النبات والحيوان والإنسان، ومن هنا كان اعتماد كل من الإنسان والحيوان في غذائه أساساً على النبات، وهي حقائق لم تكن معروفة في زمن الوحي، ولا لقرون متطاولة من بعده، ما يؤكد روعة الإشارة القرآنية في قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ١٠-١١].

وفي قوله: «إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون» في تدبير هذا الكون ونواميسه المواتية لحياة البشر، وما كان الإنسان ليستطيع الحياة على هذا الكوكب لو لم تكن نواميس الكون مواتية لحياته، أو موافقة لفطرته، أو ملبّية لحاجته، والذين يتفكرون هم الذين يدركون حكمة التدبير، وهم الذين يربطون بين ظاهرة كظاهرة المطر وما يُنشئه على الأرض من حياة وشجر وزروع وثمار، وبين النواميس العليا للوجود، ودلالتها على الخالق وعلى وحدانية ذاته ووحدانية إرادته، ووحدانية تدبيره، وأما الغافلون فيمرون على مثل هذه الآية في الصباح والمساء وفي الصيف والشتاء

فلا توقظ تطلعهم، ولا تثير استطلاعهم ولا تستجيش ضمائرهم إلى البحث عن صاحب هذا النظام الفريد [١].

و. تنوع الأشجار واختلاف ألوانها

تختلف الأشجار اختلافـًا كبيراً في أنواعها وأشكالها وألوانها، مما يعطيها المزيد من الجمال والبهجة، فمنها الباسق، والقصير، ومنها السميك، والنحيف، ومنها كثير الفروع، وقليله، ومنها المتسلّق، والزاحف، وتختلف أيضـًا في تنوع ثمارها وأوراقها، وقد لفت القرآن الكريم أنظارنا إلى هذا التنوع.

قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [سورة الأنعام: ١٤١].

إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو الذي خلق هذه الجنات ابتداء، فهو الذي أخرج الحياة من الموت، وهذه الجنات منها المعروشات التي يتعهّدها الإنسان بالعرائس والحوائط، ومنها البريات التي تنبت بذاتها، بقدَر الله، وتنمو بلا مساعدة من الإنسان ولا تنظيم، وإن الله هو الذي خلق الزيتون والرمان منوع الصنوف، متشابهـًا وغير متشابه، وإنه هو الذي بث الحياة في هذه الأرض، ونوّعها هذا التنويع وجعلها مناسبة للوظائف التي تتطلبها حياة الناس في الأرض، فكيف يذهب الناس في مواجهة هذه الآيات وهذه الحقائق إلى تحكيم غير الله في شأن الزروع، والأنعام، والأموال [٢]، وغير ذلك في كونه ومخلوقاته ومناحي الحياة؟

---

(١) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢١٦٢.

(٢) في ظلال القرآن الكريم، سيد قطب، مرجع سابق، ٣/ ١٢٢٣.

هـ. الشجر يؤمن بالله ويسجد له

وثمة أمر عظيم هنا، ما تؤكده الآيات القرآنية الكريمة في هذا الخَلْق النافع الجميل البهيج؛ من أنه مخلوق، يؤمن بالله، طائع منقاد له، يعبده، ويسجد له في ذل وخضوع، مثله في ذلك مثل السماوات والأرض والجبال وعباد الله المؤمنين، في إشارة إلى تناغم هذا الوجود بربه الخاضع لسلطانه، المنقاد لأمره في ذل وخضوع وسجود[1].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: ١٨].

وبتدبُّر القلب هذا النص فإذا حشد من الخلائق مما يدرك الإنسان ومما لا يدرك، وإذا حشد من الأفلاك والأجرام مما يعلم الإنسان ومما لا يعلم، وإذا حشد من الجبال والشجر والدواب في هذه الأرض التي يعيش عليها الإنسان، إذا بتلك الحشود كلها في موكب خاشع تسجد كلها لله وتتجه إليه وحده دون سواه، تتجه إليه وحده في وحدة واتساق، إلا ذلك الإنسان فهو وحده الذي يتفرق «وكثير من الناس وكثير حق عليه العذاب»، فيبدو هذا الإنسان عجيباً في ذلك الموكب المتناسق، وهنا يقرر أن من يحق عليه العذاب فقد حق عليه الهوان «ومن يهن الله فما له من مكرم» فلا كرامة إلا بإكرام الله، ولا عزة إلا بعزة الله، وقد ذل وهان من دان لغير الله[2].

و. ثمرات مختلف ألوانها

الثمار جزء من جمال الحدائق إن لم تكن أجمل ما فيها، إذ إنَّ لها من الألوان

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٤٣.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٤/ ٢٤١٤.

والأشكال ما يضفي على الحدائق جمالاً وبهجة، والثمار تختلف في ذلك من نوع لآخر، ومن صنف لآخر، بل تختلف حتى في الصنف الواحد، فألوان الثمار تتدرج وتزداد تدرجاً كلما دخل عليها يوم جديد، وهكذا إلى أن يكتمل جمالها باكتمال نضجها[1].

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٧].

إنها لفتة كونية عجيبة من اللفتات الدالة على مصدر هذا الكتاب، لفتة تطوف في الأرض كلها تتبع فيها الألوان والأصباغ في عواملها في الثمرات، وفي الجبال، وفي الناس، وفي الدواب والأنعام، لفتة تجمع في كلمات قلائل بين الأحياء وغير الأحياء في هذه الأرض جميعاً، وتدع القلب مأخوذاً بذلك المعرض الإلهي الجميل الرائع الكبير الذي يشمل الأرض جميعاً، وتبدأ بإنزال الماء من السماء وإخراج الثمرات المختلفات الألوان.

وألوان الثمار معرض بديع للألوان يعجز عن إبداع جانب منه الرسامون في جميل الأجيال، فما من نوع من الثمار يماثل لونُه لونَ نوع آخر، بل ما من ثمرة واحدة يماثل لونُها لوَن أخواتها من النوع الواحد، فعند التدقيق في أي ثمرتين أختين يبدو شيء في ظاهرها، ولكنها من ناحية دراسة الألوان تبدو طبيعية؛ ففي ألوان الصخور شبه عجيب بألوان الثمار وتنوعها وتعددها، بل إن فيها أحياناً ما يكون على شكل بعض الثمار وحجمها كذلك، حتى ما تكاد تفرق من الثمار صغيرها وكبيرها.

«ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب»، والجدد: الطرائق والشعاب، وهنا لفتة في النص صادقة، فالجدد البيض مختلف ألوانها فيما بينها، والجدد مختلف ألوانها فيما بينها، مختلف في درجة اللون، والتظليل، والألوان

(١) الجمال الحسي في القرآن، ص ١٧٤.

الأخرى المتداخلة فيه، وهناك جدد وغرابيب سود حالكة شديدة السواد، واللفتة إلى ألوان الصخور وتعددها وتنوعها داخل اللون الواحد، بعد ذكرها إلى جانب ألوان الثمار تهز القلب هزاً وتوقظ فيه حاسة الذوق الجمالي التي تنظر إلى الجمال نظرة تجريدية؛ فتراه في الصخرة كما تراه في الثمرة، على بعد ما بين طبيعة الصخرة وطبيعة الثمرة، وعلى بعد ما بين وظيفتها في تقدير الإنسان، ولكن النظرة الجمالية المجردة ترى الجمال وحده عنصراً مشتركاً بين هذه وتلك يستحق النظر والالتفات، ثم ألوان الناس وهي لا تقف عند الألوان المتميزة العامة لأجناس البشر، فكل فرد بعد ذلك متميز اللون بين بني جنسه، بل متميز في توءمه الذي شاركه حملاً واحداً في بطن واحد.

وكذلك ألوان الدواب والأنعام، والدواب أشمل، والأنعام أخفى، فالدابة كل حيوان، والأنعام هي الإبل والبقر والغنم والماعز، خصصها من الدواب لقربها من الإنسان، والألوان والأصباغ فيها كذلك معرض جميل كمعرض الثمار ومعرض الصخور السوداء.

هذا الكتاب الكوني الجميل الصفحات العجيب التكوين والتلوين يفتحه القرآن ويقلب صفحاته، ويقول إن العلماء الذين يتلونه ويدركونه ويتدبرونه هم الذين يخشون: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [سورة فاطر: ٢٨].

والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية، يعرفونه بآثار صنعته، ويدركونه بآثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته برؤية حقيقة إبداعه، ومن ثم يخشونه حقاً ويتقونه حقاً، ويعبدونه حقاً؛ لا بالشعور الذي يجده القلب أمام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر الذي يستشعره القلب، ويتحرك به، ويرى يد الله المبدعة للألوان والأصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون.

«إن الله عزيز غفور»؛ عزيز قادر على الإبداع وعلى الجزاء، غفور يتدارك بمغفرته من يقصّرون في خشيته وهم يرون بدائع صنعته [(١)].

- تأثير «جيمس جينز» [(٢)] وتأثره بهذه الآية:

هذه الواقعة رواها العالم الهندي المغفور له بإذن الله «عناية الله المشرقي»، يقول: كان ذلك يوم أحدٍ من عام ١٩٠٩م، وكانت السماء تمطر بغزارة، وخرجت من بيتي لقضاء حاجة ما، فإذا بي أرى الفلكي المشهور «السير جميس جينز»، الأستاذ بجامعة كامبريدج ذاهباً إلى الكنيسة والإنجيل والشمسية تحت إبطه، فدنوت منه وسلمت عليه، فلم يرد عليّ، فسلمت عليه مرة أخرى فسألني: ماذا تريد مني؟

فقلت له: أريد أمرين يا سيدي؛ الأول هو أن شمسيتك تحت إبطك رغم شدة المطر، فابتسم السير جيمس وفتح شمسيته على الفور، فقلت له: وأما الأمر الآخر فهو ما الذي يدفع رجلاً ذائع الصيت في العالم مثلك لأن يتوجه إلى الكنيسة؟

وأمام هذا السؤال توقف السير جيمس لحظة، ثم قال: عليك اليوم أن تأخذ شاي المساء عندي، وعندما وصلت إلى داره في المساء خرجت السيدة جيمس في الساعة الرابعة بالضبط، وأخبرتني أن السير جيمس ينتظرني، وعندما دخلتْ عليه غرفته وجدت أمامه منضدة صغيرة عليها أدوات الشاي، وكان البروفيسور منهمكاً في أفكاره، وعندما شعر بوجودي سألني: ماذا كان سؤالك؟ ودون أن ينتظر ردي بدأ يلقي محاضرة عن تكوّن الأجرام السماوية ونظامها المدهش، حتى إني شعرت

---

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٩٤٢.

(٢) جيمس جينز James Hopwood Jeans (١٨٧٧ - ١٩٤٦): درسَ الرياضيات في جامعة كامبريج، وهو عالم بريطاني عمل في مجال الرياضيات والفيزياء وعلم الفلك، ومن أشهر إنجازاته تعيين كتلة جينس وهي أقل كتلة لسحابة من الغاز والغبار الكوني يمكن أن يتكون منها نجم.

بقلبي يهتز بهيبة الله وجلاله، وأما السير جيمس فوجدت شعر رأسه قائمـًا، والدموع تنهمر من عينيه، ويداه ترتعدان من خشية الله، وتوقف فجأة، ثم بدأ يقول: يا عناية الله، وعندما أركع أمام الله وأقول: إنك العظيم، أجد أن كل جزء في كياني يؤيدني في هذا الدعاء، وأشعر بسكونٍ وسعادة عظيمتين، وأحس بسعادة تفوق الآخرين ألف مرة، أفهمت يا «عناية الله خان» لماذا أذهب إلى الكنيسة؟

ويضيف العلامة «عناية الله» قائلاً: ولقد أحدثت المحاضرة طوفانـًا في عقلي، وقلت له: يا سيدي لقد تأثرت جداً بالتفاصيل العلمية التي رويتموها لي، وتذكرت بهذه المناسبة آية في كتابي المقدس، فلو سمحتم لي لقرأتها عليكم، فهز رأسه بكل سرور، فقرأت عليه الآية التالية: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا ۚ وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ [سورة فاطر: ٢٧-٢٨]. فصرخ السير جيمس: ماذا قلت؟! «إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۗ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ؟»

مدهش، وغريب، وعجيب جداً! إن الأمر الذي كشفت عنه هو دراسة استمرت خمسين سنة، من أنبأ محمداً به؟ هل هذه الآية موجودة في القرآن حقيقة؟ لو كان الأمر كذلك فاكتب شهادة مني أن القرآن كتاب موحى من عند الله، ويستطرد السير جيمس جينز قائلاً: لقد كان محمد أميـًا، ولا يمكن أن يكشف عن هذا بنفسه، ولكن الله هو الذي أخبره بهذا السر، مدهش وغريب جداً.

الخامس عشر: خلق الظلال

هذا المخلوق اللطيف العجيب، إنه الظلال الذي خلقه الله وجعله آية من آياته الدالة على وحدانيته وقدرته، حيث يسجل الله هذا الامتنان بهذه النعمة في آية النحل في:

١. نعمة الظل

في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [سورة النحل: ٨١]، وقد قال القرطبي: الظلال كل ما يستظل به من البيوت والشجر، وقوله: «مما خلق»: يعم جميع الأشخاص الـمُظِلَّة[١].

فالظل نعمة تقي الإنسان حر الشمس، ويستبرد فيه ويتقي به لهيبها وشعاعها، كما أنه وسيلة توقيت يعرِف بها الإنسان مراحل النهار؛ فيقيس بالفيء -وهو امتداد الظل- حركة الشمس، وأوقات الصلاة النهارية؛ الظهر والعصر، وبه تعرف أوقات النهي وصلاة الضحى.

ويتحدث الله سبحانه عن حركة هذا المخلوق اللطيف، وكيف أنه سبحانه يحركه بلطفه وقدرته ويمده ثم يقبضه، ممتناً لكل تلك الحركة العجيبة الهادئة، مذكراً بأنه سبحانه القادر على جعله ساكناً لا حراك فيه.

٢. إعجاز الله في خلق الظل

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ۝٤٥ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا﴾ [سورة الفرقان: ٤٥-٤٦].

شرع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بيان الأدلة على وجوده، وقدرته التامة على خلق الأشياء المختلفة والمتضادة، فقال تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ؟» هو ما بين طلوع الفجر إلى طلوع الشمس «وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا»، أي: دائماً لا يزول، كما قال تعالى: «ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا»، أيّ لو لا أن الشمس تطلع عليه لما عُرف، فإن الضد لا يعرف إلا بضده، وقوله تعالى: «يَسِيرًا» أي سهلاً، وقيل

(١) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٠/ ١٥٩.

سريعـًا، وقيل قبضـًا خفيفـًا حتى لا يبقى في الأرض ظل إلا تحت سقف أو تحت شجرة، وقد أظلت الشمس ما فوقه [(١)].

إنه تعبير يدعو إلى التأمل ويقظة الحس لتلك الحركة التي لا تُخطئها عين، ومتابعة خطوات الظل في مدة انقباضه يُشِيع في النفس نداوة وراحة، كما يثير فيها يقظة لطيفة شفيفة وهي تتبّع صنع الباري اللطيف القدير، وإن مشهد الظلال والشمس مائلة للمغيب، وهي تطول وتطول، وتمتد وتمتد، ثم في لحظة واعدة ينظر الإنسان فلا يجدها جميعـًا، لقد اختفى قرص الشمس وتوارت معه الظلال.

وإن بناء الكون المنظور على هذا النسق، وتنسيق المجموعة الشمسية هذا التنسيق هو الذي جعل الظل متحركـًا هذه الحركة اللطيفة، ولو اختلف هذا النسق أقل اختلاف لاختلفت آثاره في الظل الذي نراه، ولو كانت الأرض ثابتة لسكن الظل فوقها لا يمتد ولا ينقبض، ولو كانت سرعتها أبطأ أو أسرع مما هي عليه لكان الظل في امتداده وقبضه أبطأ وأسرع، فتنسيق الكون المتطور على ناموسه هذا هو الذي يسمح بظاهرة الظل، ويمنحها خواصها التي نراها.

وهذا التوجيه إلى تلك الظاهرة التي نراها كل يوم، ونمر بها غافلين، هو طرف من منهج القرآن في استحياء الكون دائمـًا في ضمائرنا، وفي إحياء شعورنا بالكون من حولنا، وفي تحريك خوامد إحساسنا التي أفقدها طول الألفة، وطرف من ربط العقول والقلوب بهذا الكون الهائل العجيب [(٢)].

٣. الظل الساجد

قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَايِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٨].

---

(١) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٣/ ٣٢٠.

(٢) في ظلال القرآن، قطب، مرجع سابق، ٥/ ٢٥٦٩.

وهذه الآية الكريمة أشارت إلى هذا المخلوق اللطيف «الظل الساجد» لله عَزَّوَجَلَّ، والآية الكريمة دعوة مباشرة للتأمل والتدبر في تلك الحركة العجيبة التي يتوقف اهتمام الكثيرين بها عند حد الاتقاء بها من حر الصيف اللاهب، إنه المعنى الإيماني الذي تعبّر عنه حركة الظل، معنى الخضوع والسجود لله الواحد الأحد في انسجام تام بين مخلوقات هذا الكون الساجد لربه الخاضع المنيب له سبحانه [١].

وقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [سورة الرعد: ١٥].

يُخبر تعالى عن عظمته وكبريائه الذي خضع له كل شيء، ودانت له الأشياء والمخلوقات بأسرها؛ جماداتها وحيواناتها، ومكلفوها من الإنس والجن والملائكة، فأخبر أن كل ما له ظل يتفيأ ذات اليمين وذات الشمال -أي بكرة وعشياً- ساجد بظله لله تعالى، قال مجاهد: إذا زالت الشمس سجد كل شيء لله عَزَّوَجَلَّ.

وقوله: «وهم داخرون» أيّ: صاغرون، وقال مجاهد أيضاً: سجود كل شيء فيئُهُ، وذكر الجبال قال: سجودها فيئُها، وقال أبو غالب الشيباني: أمواج البحر صلاته [٢].

وقال القرطبي: ظلال الحق ساجدة لله تعالى بالغدو والآصال؛ لأنها تتبين في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريف الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٨]، وقال مجاهد: ظل المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع، وظل الكافر يسجد كرهاً وهو كاره [٣].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٥٤.

(٢) تفسير ابن كثير، مرجع سابق، ٢/ ٥٧١-٥٧٢.

(٣) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ٩/ ٣٠٢.

فبئساً لهذا الكافر الذي ينطق كل ما حوله بالوحدانية ويظل في عناده وشذوذه البائس عن هذا الكون في عبادته لله الواحد الأحد، حتى ظله الذي يطبع شكله على الأرض ويتبعه في كل مكان.

إن هذا المعنى العظيم لسجود الظل يستحق من كل عاقل الوقوف أمامه معلناً عبوديته لله، وبراءته من كل جحود أو استكبار عن عبادته سبحانه، أو الذل له، ومظهراً حاجته لفقره لمعبوده الذي يسجد له كل شيء، حتى الظلال.

وقد كرر الله ذكره في أكثر من آية في موضوع من الامتنان العظيم الذي امتنَّ الله به على عباده، فها هو موسى عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ يسجّل الله رحلته من مصر إلى مدين التي لاقى فيها من العنت والشدة ما لاقى، وبعد أن سقى للمرأتين يأوي إلى ظل شجرة وارفة مسلِّماً أمره إلى الله، طارحاً شكواه بين يديه في أدب ولطف، قال سبحانه: ﴿فَسَقَىٰ لَهُمَا ثُمَّ تَوَلَّىٰ إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [سورة القصص: ٢٤].

ويتوالى ذكر امتنان الله بنعمة الظل في قصة قوم موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وهو ظل ليس من نوع الظل الذي استظلّ به موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، ولكنه ظل لطيف آخر؛ إنه ظل السحاب البارد اللطيف، يقول سبحانه: ﴿وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا ۚ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [سورة الأعراف: ١٦٠].

٤. الإهلاك بالظل

الظل كما كان لبني إسرائيل نعمة ورحمة ومنّة من الله فقد كان لغيرهم عذاباً

وهلاكـًا، والله سبحانه يخلق الشيء وضده، يخلق من الشيء أضداداً بمنتهى حكمته وبالغ فضله وكرمه؛ ليعلم الناس أنه على كل شيء قدير، والظل خلق من مخلوقات الله، وجندي من جنوده المنقادين لأمره، فيجعله الله رحمة لقوم وعذابـًا لآخرين، وما يعلم جنود ربك إلا هو.

فقد كان الظل عذابـًا لقوم شعيب أصحاب الأيكة، والأيكة هي الشجر الملتف الكثير الظلال، كما في قوله تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [سورة الشعراء: ١٧٦-١٧٨]، إلى قوله: ﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الشعراء: ١٨٩].

قال ابن عباس: أصابهم حر شديد، فأرسل الله سبحانه سحابة فهربوا إليها ليستظلوا بها، فلما صاروا تحتها صِيح بهم فهلكوا، وقيل: أقامها الله فوق رؤوسهم وألهبها حراً حتى ماتوا من الرَّمد [١].

وقيل: وسلَّط الله عليهم الحرَّ حتى أخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء، فكانوا يدخلون الأسراب ليتبرَّدوا فيها فيجدوها أشد حراً من الظاهر، فهربوا إلى البرّية، فأظلَّتهم سحابة -وهي الظُّلة- فوجدوا برداً ونسيمـًا، فأمطرت عليهم ناراً فاحترقوا [٢].

فالظِّل في الدنيا رحمة لعباد الله المؤمنين، ونعمة من النعم التي خلقها الله وسخّرها للناس أجمعين، لكنه يتحول بإرادة الله وقدرته عذابـًا وجحيمـًا على العاصين الكافرين المنكرين لوحدانيته، المعارضين لرسله [٣].

---

(١) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٥٧.

(٢) تفسير القرطبي، مرجع سابق، ١٣/ ١٣٥-١٣٧، بتصرف.

(٣) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

٥. الظلال في الآخرة

ذكر الله الظلال في صور نعيم الجنة التي ينعم الله بها على عباده في ذلك المستقر الكريم، بل جعل ذلك من أخص خصائص الجنة، حين قال سبحانه: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [سورة الواقعة: ٣٠].

وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ۖ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا ۖ وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [سورة الرعد: ٣٥].

فالجنة ظلها لا يزول ولا يقلّص، كما قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۖ لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ ۖ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [سورة النساء: ٥٧].

وفي الصحيحين أن رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: (إن في الجنة شجرةً يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها، ثم قرأ: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾)[١].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلَالٍ وَعُيُونٍ﴾ [سورة المرسلات: ٤١].

وقال: ﴿هُمْ وَأَزْوَاجُهُمْ فِي ظِلَالٍ عَلَى الْأَرَائِكِ مُتَّكِئُونَ﴾ [سورة يس: ٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾ [الإنسان: ١٤].

وحينما يُحشر الناس إلى ربهم يوم القيامة، وتدنو منهم الشمس، ويزول كل ملك وسلطان غير ملك الله وسلطانه، لا يبقى إلا ظل عرشه العظيم يستظل به المؤمنون الذين سبقت لهم الحسنى في أمان الله، ويبقى غيرهم في عرقهم يسبحون في كرب شديد وهو عظيم، كما في الحديث الصحيح؛ عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: (سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله)[٢].

---

(١) صحيح البخاري، رقم ٦٢٠.

(٢) قصة الخلق، الخرعان، مرجع سابق، ص ٢٥٨.

وفي مقابل ذلك يُحرم من هذه النعمة أهل النار، أعاذنا الله وإياكم منها، ويصبح ظلهم دخاناً ولهباً، لا بارد يستظل به، ولا كريم في رائحته يستأنس به، كما في قوله تعالى: ﴿انطَلِقُوا إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ ۝ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ [سورة المرسلات: ٣٠-٣١].

وهو ظل دخان جهنم، يبدو في ظاهره ظلاً وهو دخان كريهٌ لاهب، قال تعالى: ﴿وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ۝ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ﴾ [سورة الواقعة: ٤٣-٤٤].

فيتحول هذا الكائن اللطيف إلى عذاب على من عصى الله وخالف أمره [(١)].

هذا وقبل الشروع في قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ رأيت الحديث عن المخلوقات التي خلقها الله عَزَّوَجَلَّ قبل آدم، وطبيعي كان عن بعضها وليس كلها، وقد تحدث الدكتور محمد بن عبد الله الخرعان بنوع من التفصيل في كتابه قصة الخلق، وإن كنت استفدت من الكتاب إلا أنني رجعت لمصادر متخصصة أخرى، وتركت الحديث عن الملائكة والجن والشياطين والجنّة مستقلة، وإنما سيأتي الحديث عن هذه المخلوقات عند دخولي في الكتابة عن قصة آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، فقد كان الحديث عن معالم الخلق في القرآن والسنة، وأنه هدي نبوي، وأن بداية الخلق ليست غامضة، وأن الله هو الأول، وقد تحدى الملحدين، وأنه سبحانه خلق كل شيء فقدّره تقديراً، ولم يزل خلاقاً عليماً قديراً، وأنه سبحانه غني عن خلقه، وله صفات الكمال والأسماء الحسنى، وقد أشرت فيما مضى إلى أن الخبر عن الله جَلَّ وَعَلَا ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مصدر المعرفة ببدء الخلق، وبيّنت أول مخلوقات الله وآراء العلماء في التقديم والتأخير، وبدأت بـ:

- خلق العرش والكرسي.

---

(١) المرجع نفسه، ص ٢٦٠.

- وخلق الماء، والقلم، واللوح المحفوظ، والزمن، والأرض، والجبال، والسماوات، والشمس، والقمر، والليل، والنهار، والنجوم، والرياح، والشجر، والظلال، قبل الكتابة عن آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، وعشت مع الآيات القرآنية متأملاً ومتدبراً ومتفكراً، ورأيت عظمة الله من خلال آياته القرآنية والكونية، وتبين لي أن كل مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ في الوجود تسبح بحمد الله، وكلٌّ عُلّم صلاته وتسبيحه، وكل ما في السماوات وما في الأرض يسجد لله.

- كل شيء يسبح بحمده:

قال تعالى: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [سورة الحديد: ١].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ ۖ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة النور: ٤١].

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [سورة الإسراء: ٤٤].

وكل شيء في الوجود يسجد لله [١]، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ ۖ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ۗ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج: ١٨].

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِن دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٩]، وإن الآية الكريمة تبين أن الجميع يسجد لله،

---

(١) خليفة الله في الأرض الإنسان من الخلق إلى البعث، عبد الحافظ سلامة حافظ، ص ٦٥.

جميع دواب الأرض والسماوات والملائكة، والآية التي قبلها فصّلت وعمّمت، سبحانك ربنا ما عبدناك حق عبادتك.

الخلاصة

هذه المرحلة التأسيسية في نشأة الخلق وخلق البشرية مصدرنا فيها هو كتاب الله العزيز الحكيم الذي «لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ»، وقد اعتمدتُ على تفاسيره المتعددة، كما استفدتُ كثيراً مما قاله الأولون والعلماء المعاصرون ونهلت من مصادرهم وكتاباتهم الرصينة حول تلك الفترة، وأبرز النتائج التي وصلت إليها التالية:

١. أوَّلُ كلمةٍ يدخلُ بها الإنسان بوّابةَ الإسلامِ، ويصلُ إلى مدارجِ التوحيد، ويرتقي في مراقي العبودية، هي كلمةُ «لا إله إلا الله، محمدٌ رسول الله»، التي بموجبها يعترفُ العبدُ للهِ عَزَّوَجَلَّ وحدَه بالربوبية والألوهية، ولمحمَّدٍ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالرسالةِ، وقد عُرِفَتْ لا إله إلا الله لدى المسلمين «بكلمة التوحيد»، و«كلمة الإخلاص»، و«كلمة التقوى».

٢. إن معنى كلمة «لا إله إلا الله» أنَّه لا معبودَ بحقٍّ إلا الله، فهو وحدَه سبحانه المستحقُّ بأنْ تُصرفَ له جميعُ العباداتِ، وتكونَ خالصةً له دون سواه، ومعنى شهادةِ «أنَّ محمداً رسول الله»: الإقرارُ باللسانِ، والإيمان بالقلبِ، بأنَّ محمَّد بنَ عبد الله القرشيَّ الهاشميَّ رسولُ اللهِ إلى جميعِ الخلقِ من الإنس والجن.

٣. إن لكلمة «لا إله إلا الله» فضائل جمة وردت في كتاب الله تعالى وفي سنة نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقد وُصِفَت في القرآن الكريم بالكلمة الطيبة، والقولِ الثابتِ، والعروة الوثقى، وأنّ الرسل جميعَهم أُرسلوا بها مبشِّرين ومنذرين، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

٤. كما ورد فضلها في السنة المشرفة، فمن ذلك أنها أفضل شعب الإيمان، وأن الجهاد أُقِيْمَ من أجل إعلائها، وأنّها ترجَحُ بصحائفِ الذنوب.

٥. إنّ ذكرَ اللهِ من أفضل العباداتِ المقرِّبةِ إلى اللهِ تعالى وأجلّها، وأعظمِها أجراً، مع سهولته ويُسْرِه على مَنْ يسرّهُ الله عليه. هذا وإنّ أفضل أنواعِ الذكر بعد القرآن العظيم هو قولُ المرء: لا إله إلا الله، وهي كلمةُ التوحيدِ، كما ورد عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّه قال: «أفضلُ الذكرِ لا إله إلا الله».

٦. لا توجَدُ في القرآن الكريم مناقشةٌ صريحةٌ لمنكري الخالق، فإنَّ الإيمانَ بوجودِ خالقٍ لهذا الكون قضيةٌ ضروريةٌ لا مساغَ للعقلِ في إنكارِها، فهي ليستْ قضيةً نظريةً تحتاجُ إلى دليلٍ وبرهانٍ؛ ذلك لأنّ دلالةَ الأثرِ على المؤثِّرِ يدرِكُها العقلُ بداهةً، والعقلُ لا يمكنُ أن يتصوّر أثراً من غيرِ مؤثّرٍ، ولو كانَ أثراً تافهـًا، ولذلك لم يناقشِ القرآن الكريم هذه القضية حتى حينما أوردَ إنكارَ فرعونَ لربِّ العالمين، يوم أن قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣]، ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي﴾ [القصص: ٣٨].

٧. إن انتظام الكون وعدم فساده، وانتظام أمر العالم العلوي والسفلي، وارتباطُ بعضِه ببعضٍ، وجريانُه على نظام مُحْكَم، لا يختلف ولا يفسد، هو أدلُّ دليلٍ على وجود الخالق ووحدانيته، قال تعالى: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢].

٨. يعتبر الترابط الهادف بين بلايين أجزاء الكون دليلاً باهراً على وجود الله، وهو الترابط غائي على حدِّ تعبير الفلاسفة، أي: ترابط له غاية، فإنه ليس مجرد ترابط فقط، بل هو ترابط هادف فيه القصد وفيه الغاية، إذ إن كل شيءٍ له غاية، وسمِّي أيضـًا «دليل القصد»، وذلك أن كل ما في العالم مقصود لا دخل للاعتباط فيه، هادف لا دخل للمصادفة فيه، ومن أجل ذلك اعتبر هذا دليلاً على وجود الله، ولقد سمِّي هذا الدليل أيضـًا «الدليل الغائي».

٩. وَجَّه القرآن الكريم الأنظار إلى عناية الله بالكون، وعلى الخصوص بالإنسان في رحاب الكون، وهو إشارة إلى دليل على وجود الخالق يسمَّى «دليل العناية»، وهو كون الله سبحانه معنيٌّ بالعالم، وعنايته بالكون سارية في جميع أجزائه، يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

١٠. إن من أسماء الله اسم «الظاهر»، فالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ظاهر ظهوراً واضحاً، فهو أظهر من كل ما سواه، والمؤثِّر في أعراف المؤمنين أظهر من الأثر، والخالق أوضح من الخلق، والمكوِّن أجلى من الكون، الكون كله بما فيه ومن فيه مظهر من مظاهر أسمائه وصفاته، وعلاماته، فكل الكون يدل على الله أبداً، لذلك فإن أكبر وظيفة للكون أن نتعرف على الله من خلاله، ولو لم نستفِد منه.

١١. الناس في كل زمان ومكان يشتاقون إلى معرفة كيفية خلق العالم، ويكثر تساؤلهم بمتى وكيف؟ ويريدون تحديداً واضحاً عن الأول من المخلوقات وعما بعده، كما إنهم يريدون ترتيباً يكون فيه التعيين والتحديد؛ ولذلك فقد تكرر في القرآن الكريم ذكر بدء الخلق في أكثر من آية؛ مثل قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [العنكبوت: ٢٠].

١٢. يُصوّر الفكر الغربي المادي الحديث بداية الخلق كبداية غامضة أو هلامية، حيث جاء تفسير بداية خلق الإنسان بعيداً عن الدين فيه، وذلك تبعاً للفكر الاجتماعي والتربوي الإنساني الذي ينطلق من النظرية المادية الملحدة، التي ترفض الدين والإيمان بالله، وبما جاء عن الله في تفسير سلوك الإنسان، وارتباطه بالإيمان بالله، ورسله، وكتبه، واليوم الآخر، والقضاء والقدر.

١٣. أقام الله عَزَّوَجَلَّ الحجَّة العقلية الدامغة على الملحدين والمشركين، وتحدّى عقولهم وكل قواهم في نفي الإلحاد وفي نفي الشريك؛ وذلك من خلال تقرير مبدأ الخلق في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ﴾ [الطور: ٣٥-٣٧]، فهذه الآية تنفي مبدأ الإلحاد من خلال الإلزام بوجود خالق، إذ إنهم لم يُخلقوا من غير خالق، فكل مخلوق خالقه واحد.

١٤. إن أخطر شبهة يلقيها الشيطان على ابن آدم ولا يكاد يسلم من التعرّض لها أحد، هي وسوسة الشيطان في مسألة الخلق، فالتفكير في مبدأ الخلق دون هديٍ من الوحي مدخل من مداخل الشيطان ووسوسته، ولذا نبه لها النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتى لا يقع فيها المسلم، فقد روى البخاري من حديث أنس قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لن يبرح الناس يتساءلون حتى يقولوا: هذا الله خالق كل شيء، فمن خلق الله؟، فإذا بلغه فليستعذ به ولينتهِ».

١٥. إن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ متصف بجميع صفات الكمال، وهو المنفرد بها وحده دون ما سواه، قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ [الإخلاص:١-٤].

١٦. فالإثبات بوصفه سبحانه بأنه هو الذي يرجع إليه كل أمر، وذلك لأنه هو المتصف بجميع صفات الكمال، فالمرجع والمرد إليه سبحانه، وأما التنزيه: فوصفه تعالى بأنه غنيٌّ عن كل شيء، فلا افتقار فيه بوجهٍ من الوجوه.

١٧. تعد آية الكرسي أفضل آية في كتاب الله، إذ كل ما فيها متعلق بالذات الإلهية العليّة، وناطق بربوبيته تعالى، وألوهيته وأسمائه وصفاته الدالة على كمال ذاته وعلمه وقدرته وعظيم سلطانه.

١٨. قضت إرادة الله تعالى بأن يكون الخلق في أوقات متفاوتة، فهو سبحانه لم يخلق الخلق جميعهم في وقت واحد ولا دفعة واحدة، وإنما خلق الخلق في أوقات متفاوتة، وخلق كل مخلوق في مراحل وأطوار متعددة، لتتجلى قدرته وتظهر دلائل تصرفه وتدبيره لخلقه.

١٩. إن الخلق والوجود لم يخلق عبثاً وإنما كان بقصد وحكمة ولغاية إلهية، فالله عَزَّوَجَلَّ ربط بين الخلق وبين الحكمة والعلة من الخلق، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الدخان: ٣٨-٣٩].

٢٠. لا يوجد إجماع واتفاق على أي المخلوقات قد خلق أولاً؟ فمصدر معرفة أول المخلوقات وكيفية الخلق هو الخبر عن الله تعالى وعن رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وما فَهمه أهل العلم منهما، ذلك أن الحقيقة المجردة تقول أنه لا مصدر لذلك غير الوحي المعصوم والفهم المهتدي بهديه، وما عدا ذلك فهو فرضيات وتوقعات، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [سورة الملك: ١٤].

٢١. إن أول المخلوقات وأعظمها هي العرش والكرسي، فعرش الرحمن هو أعظم المخلوقات حجماً وكيفية وأعلاها مكاناً، فهو سقف الكون، وعليه ذو الجلال والإكرام، ولا يدانيه في عظمته شيء من خلق الله، وقد أضافه إلى نفسه إضافة تشريف وتعظيم؛ فيقال: «عرش الرحمن»، قال تعالى: ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، والكرسي خلق عظيم وهو بعد العرش في عظمة الخلق، فهو يسع السماوات السبع والأرضين السبع معاً في الخلق والحجم، قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾.

٢٢. الماء من أول المخلوقات وجوداً، فهو سر الحياة ومنبعها، ولذا فهناك من العلماء من قال بأن الماء أول المخلوقات، فقد خُلِقَ قبل العرش، وذلك لقوله

تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود: ٧]، وفيه إشارة إلى أن الماء والعرش كانا مبدأ هذا العالم لكونهما خُلقا قبل خلق السماوات والأرض، ولم يكن تحت العرش إذ ذاك إلا الماء.

٢٣. من آراء العلماء في أي المخلوقات خلق أولاً، أن بعضهم قال إنه القلم، وقد استندوا في ذلك إلى حديث عبادة بن الصامت مرفوعـاً: (أول ما خلق الله القلم، ثم قال اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة).

٢٤. والمقصود بالقلم هنا القلم الذي أمره الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ في بدء الخليقة بأن يكتب مقادير الأشياء وما هو كائن من مخلوقات، وأحداث، وحياة وموت، إلى يوم القيامة، وذلك بمقتضى علم الله بخلقه.

٢٥. اللوح المحفوظ أحد المخلوقات العظيمة التي خلقها الله في بدايات الخلق، وقد اقترن ذكره بالقلم في أحاديث كتابة القدر، وسماه الله محفوظـاً لأنه لا يتطرق إليه العبث ولا تصل إليه الشياطين، فهو محفوظ من كل تغيير وتبديل، محفوظ من أن ينفُذ إليه أو بغير ما فيه من حكم أو قضاء أو قدر، والقرآن الكريم محفوظ في اللوح منذ الأزل، قال تعالى: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ ۝٢١ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١٢٢].

٢٦. الزمان من مخلوقات الله العظيمة، فهو الزمان والوقت الذي نتحرك فيه ونعيش أيامه ولياليه، والذي به نحسب الأعمال والآجال، والوقت الذي هو محل الأعمال، وامتداد الآمال.

٢٧. والزمان كان مخلوقـاً ومقدراً منذ بداية الخلق، وقد جاءت ألفاظ القرآن الكريم لتؤكد هذه الحقيقة، وقد بين الله سبحانه هذه الحكمة العظيمة في قوله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ

مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢].

٢٨. الأرض من أعظم مخلوقات الله تعالى، وقد خلقها قبل السماوات، فخلقها وقدر فيها الأقوات في أربعة أيام، ودحاها فأخرج منها الماء والمرعى، وأرسى فيها الجبال، وهي سبع أرضين كمثيلتها من السماوات كما صرح النص القرآني، وقد أشار القرآن إلى كروية أيضـاً في قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ﴾ [الزمر: ٥].

٢٩. إن الجبال خلق من مخلوقات الله العظيمة، ذكرها الله في كتابه العزيز في أكثر من أربعين موضعـاً؛ فتحدث عن صفاتها ووظائفها وخصائصها، فالجبال خلقت بعد الأرض، لقوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا ۝٣١ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢]، وقد وصفها الله بأنها رواسي وأوتاد، فهي خلقت من أجل ترسية الأرض ومنعها من أن تميد بالناس، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [الأنبياء: ٣١].

٣٠. وقد دلت النصوص القرآنية على أنها تعبد الله تعالى فتسجد له وتسبحه وتخشع له، كما أنها تغضب وتخشى وتهتز.

٣١. تكرر حديث القرآن الكريم عن خلق السموات والأرض في عديد من المواضع، فقد أشار إلى أن السموات والأرض كانتا ملتصقتين في رتق واحد، وأن الله خلق السماء بغير عمد فجعلها سقفـاً للأرض، وهيأها لعباده، فمنع سقوطها على الأرض وأحكم بناءها، فجعل الله السموات على قدر من العظَمة بما لا يحيط به وصف، ولا يدركه حس، وذلك كله لتكون موضع عبرة ومحل تدبر وتفكر لعباد

الله المؤمنين، قال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ۝١٩٠ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠-١٩١].

٣٢. خلق الله الشمس والقمر ليتم بهما بناء الكون، وتستقر بوجودهما حياة الكائنات وتنمو، وليميز الله بهما بين الليل والنهار، والنور والظلام، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ۝١٥ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ [نوح: ١٥-١٦].

٣٣. خلق الله الليل والنهار وهما من أعجب آياته وبدائع مصنوعاته، ولهذا يعيد ذكرهما في القرآن، قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ﴾ [فصلت: ٣٧]؛ ففي تعاقب الليل والنهار ما يدعو إلى التدبر والاعتبار بتصرم الأيام وتبدل الأحوال، وقد فاضل الله بين بعض الليالي وبين بعض الأيام، فخصّ الليل بالقيام والنهار بالصيام، وجعل في بعض الليالي من الخصائص والأمور العظيمة ما لم يجعله في النهار.

٣٤. إن النجوم من مخلوقات الله العظيمة وآية من آياته الباهرة، فالنجوم خلق جميل بلألائه بديع بنوره، أقسم الله به وبمواقعه، وتحدث عن حكمة خلقه؛ زينة للسماء، وهداية للسائرين، ورجوماً للشياطين، وذكر سجوده لربه وخضوعه لسلطانه، فأقسم الله بها، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقد بين الله سبحانه الحكمة من خلقها، فقد خلقها لتكون آية على عظمته وقدرته يُهتدى بها في ظلمات البر والبحر، وتُعرف بها الجهات شمالها وجنوبها وشرقها وغربها، فقال سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ٩٧].

٣٥. إن الله تعالى خلق الهواء، عنصراً أساسياً من عناصر الحياة، فالهواء محيط بالأرض، وفيه يتنفس الإنسان والحيوان وذوات الأرواح من الطيور والحشرات، كما لا يستغني عنه النباتات في حياته ونموه وانتشاره، حتى الحيوانات في البحر لا تعيش بدونه.

٣٦. خلق الله تعالى الرياح وسخرها من الهواء، فهي هواء متحرك وهي موجودة في الحياة فوق البسيطة، ولم يستأثر بها أحد دون الآخر، وما ملَّك الله الرياح أو وكَّل بها أحداً من الناس، بل زمام أمورها وتصريف حركتها وشؤونها بيد الخالق الرحيم، قال تعالى: ﴿وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤]، والرياح قوة من قوى هذ الكون وجند من جنوده، وذكرها في مواضع للتعبير عن رحمته سبحانه، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان: ٤٨].

٣٧. إن من مخلوقات الله عَزَّوَجَلَّ في هذا الكون العجيب السحاب والرعد والبرق والصواعق، وهي خاضعة لقوانينه وقدرته ومشيئته وفق حكمته وعلمه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٢-١٣].

٣٨. بدأ خلق النبات في الأرض في مرحلة الدحي الواردة في قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ۝٣٠ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣١]، فمعنى الدحي هو إخراج الماء والمرعى وتمهيدها للأقوات.

٣٩. وللنبات منافع جمة للعباد في أنواعه وأشكاله وطعومه، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ۝١٠

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ١٠-١١]، وكما أن النبات للعيش والأكل فهو للبهجة والجمال والسرور، قال تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠].

٤٠. الأشجار رمز للجمال، وتعتبر من أهم الزينات التي تزين الأرض، جبالها وسهولها ووديانها وحدائقها ومساكنها وشوارع مدنها، وهي محل ضرب الأمثال الجمالية في القرآن الكريم، وأهمها شجرة النخيل التي قال الله تعالى في وصفها: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [إبراهيم: ٢٤-٢٥].

٤١. ذكر الله شجر الزيتون والتين في كتابه العزيز في معرض الحديث عن خلقه للنبات، قال تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ ﴿١﴾ وَطُورِ سِينِينَ ﴿٢﴾ وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣]. وفي القَسَم بالتين تأكيد لتميز ثمرته بقيمتها الغذائية والصحية، وما بها من إنزيمات مقيدة، وغير ذلك من المركبات الكيميائية المهمة، ومنها المضادة للسرطانات، والفيروسات والبكتيريا والطفيليات، وفي القسم بالزيتون إشارة إلى تميز أشجاره وثماره وزيوته بميزات عديدة لا تتوفر لغيره من النباتات، وقد ذكر الله تعالى في القرآن الكريم أنواعـاً أخرى من الأشجار كشجرة اليقطين وشجرة المراعي وغيرها.

٤٢. إن من مظاهر القدرة والجمال في خلق الأشجار، تنوعها واختلاف ألوانها وتنوع ثمارها، مما يعطيها المزيد من الجمال والبهجة، قال تعالى: ﴿وَهُوَ

الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ۚ كُلُوا مِن ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ۖ وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأنعام: ١٤١].

٤٣. خلق الله تعالى الظلال لتقي الإنسان حر الشمس، ويتقي به لهيبها وشعاعها، ويستبرد فيها، كما أنه وسيلة توقيت يعرف بها الإنسان مراحل النهار، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾ [النحل: ٨١].

٤٤. إن في قوله تعالى: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٨﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٨- ٢٩]، استدلالاً قاطعاً على أن الإيمان بالله أمر مستقر في الفطر والعقول، وأنه لا عذر لأحد في الكفر به البتة، فذكر تعالى أربعة أمور؛ ثلاثة منها مشهودة في هذا العالم وهي كونهم كانوا أمواتاً لا أرواح فيهم قبل أن يخلقهم، وأنه تعالى أحياهم بعد هذه الإماتة، وأنه يميتهم بعد هذه الحياة، والرابع منتظر موعود به وعد الحق، وهو أنه تعالى يحييهم بعد هذه الإماتة فيرجعون إليه.

٤٥. إن قوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، يؤكد على أن أصل البشرية كلها من زوج واحد خلقه ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خلقاً خاصاً بـ «الخليفة»؛ لأنه تعالى وضع في بنائه القدرة على التزاوج وإنتاج سلالة خصبة ملأت الأرض ببلايين من الأفراد الذين عاشوا وماتوا، وبالبلايين الذين يملؤون جنبات الأرض اليوم، وقد طمرت الحضارة المادية المعاصرة حقيقة الخلق الخاصة بالإنسان هذه تحت

ركام فكرة «التطور العضوي»، وهي فكرة أشاعها عدد من شياطين الإنس للتخلص من الإيمان بالخلق والخالق عزوجل؛ غير أن ربنا تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أكد حقيقة خلق أبوينا آدم وحواء من نفسٍ واحدةٍ في قوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

٤٦. إن الحكمة من خلق الإنسان حددها ووضع معالمها الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فالحكمة سابقة على الخلق، وقبل أن يبرز آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من العدم إلى الوجود بيّن الله تعالى الحكمة من وراء خلقه؛ ألا وهي الخلافة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠]. وإن مفهوم الخلافة يدخل في السياسة، والاقتصاد، والحياة الاجتماعية، والرياضية، والفنية، والأدبية والشعرية، وفي كل نواحي الحياة.

٤٧. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون:١٢]؛ خلق الله تعالى الإنسان على مراحل، أولها التراب وثانيها الماء، ومن ثم الطين، والطين الذي خلق منه آدم وُصف في القرآن بثلاث صفات، ويمكن اعتبارها مراحل تحول التراب والطين إلى جسد من لحم ودم وعظام وأعضاء وهذه الصفات هي: الطين اللازب، والحمأ المسنون، والصلصال.

٤٨. وكون الله عَزَّوَجَلَّ خلق الإنسان من طين الأرض، فذلك أدعى لنجاحه في استعمارها، والغوص في أسرارها، ومعرفة قوانينها والضرب فيها، وإن العمل والكدُّ والكدح وعرق الجبين ليس عيباً، إنه سر التميز والإبداع.

٤٩. وصف القرآن مراحل تكوين الإنسان ، فقد ذكر أطوار الإنسان بعد ولادته وخروجه إلى الدنيا، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ

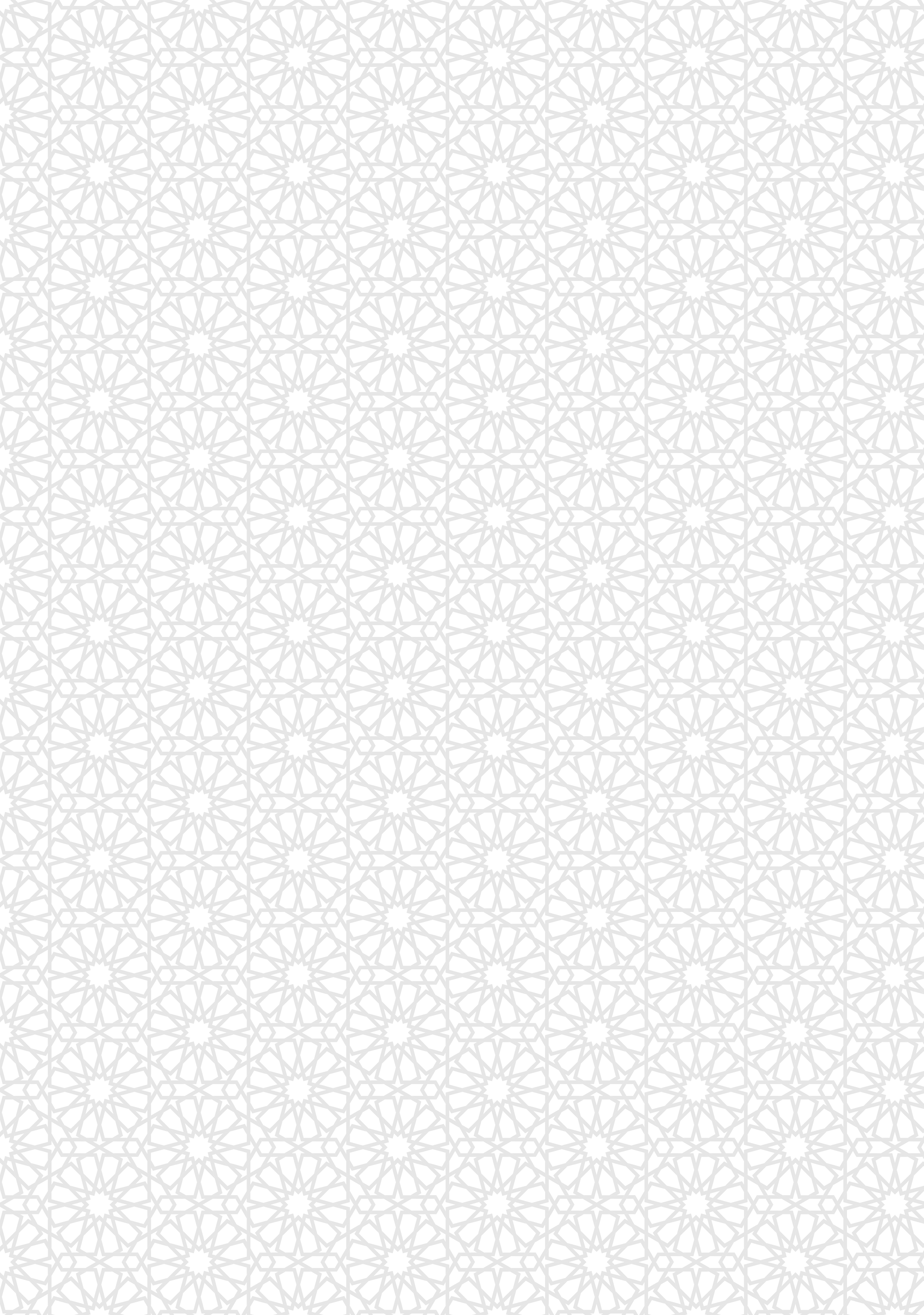
ٱلۡقَدِيرُ﴾ [الروم:٥٤]، فينبه تعالى على تنقل الإنسان في أطوار الخلق حالاً بعد حال، فأصله من تراب، ثم من نطفة، ثم من علقة، ثم مضغة، ثم يصير عظاماً، ثم يكسو العظام لحماً، وينفخ فيه الروح، ثم يخرج من بطن أمه ضعيفاً نحيفاً واهن القوى، حتى يكون صغيراً، ثم حدثاً ثم مراهقاً، ثم شاباً وهو القوة بعد الضعف، ثم يشرع في النقص فيكتهل، ثم يشيخ، ثم يهرم ، وهو الضعف بعد القوة، فتضعف الهمة والحركة والبطش وتشيب اللمة.

٥٠. زعم دارون أن الإنسان متسلسل من سلالات حيوانية، وأنه أخذ صورته الإنسانية منذ مليون سنة، ولكن علم المستحاثات هنا لا يثبت ذلك الزعم، إذ لم يعثر على السلاسل المزعومة التي تسلسل منها الإنسان، فهناك حلقات كثيرة مفقودة بين الإنسان والغوريلا أو الشمبانزي الذي يتوهم أن أصل الإنسان منها، وإن المكتشفات التي عثر عليها الجيولوجيون تنقض نظرية دارون من أساسها، فقد زعم دارون أن الأحياء البسيطة التي تطور منها الإنسان يُعثر عليها في الطبقات السفلى من الأرض دائماً بينما أثبتت الحفريات عكس ذلك، فقد وجدت من الهياكل والصور الحية المستخرجة من باطن الأرض أحياء أعقد تركيباً وأرقى مما فوقها من الأحياء.

٥١. أكرم الله آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ بالنبوة والرسالة الربانية فبدأ يعبد الله كما علمه الله بتعليم رسالته الجديدة وبلغها لأبنائه، وبدأ يعلم أولاده من بعده شرع الله تعالى وعلى كيفية عبادة الله والإخلاص له وسعى بكل ما يستطيع أن يقيم شرع الله في الأرض وأن يحقق العدالة في خلق الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وعلى أرضه.

٥٢. إن ميراث أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للبيت الحرام، الذي هو أول بيت وضع للناس دليل على أن قيادة البشرية تنتهي إليها، وأنها وريثة آدم في التوحيد

والإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وإفراد العبادة له وحده سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، وأنها الشهيدة على الناس قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة:١٤٣].



المراجع



١ . **إثبات علو الله على خلقه**، أبو الحسن خوجلي.

٢ . **اجتماع الجيوش الإسلامية**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق عواد عبد الله المعتق، مطابع الفرزدق التجارية، الرياض، ط ١ ، ١٩٨٨ .

٣ . **الأساس في التفسير**، سعيد حوى، دار السلام، القاهرة، ط ٦ ، ١٤٢٤ .

٤ . **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، محمد الأمين الشنقيطي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٩٥ .

٥ . **الإعجاز القرآني في ضوء الاكتشاف العلمي الحديث**، مروان وحيد شعبان التفتنازي، دار المعرفة للطباعة والنشر، ٢٠٠٦ .

٦ . **أعلام الموقعين عن رب العالمين، تحقيق محمد عبد السلام إبراهيم**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١ ، ١٩٩١ .

٧ . **الاكتشافات العلمية الحديثة**، سليمان عمر قوش، دار الحرمين، الدوحة، ط ١ ، ١٩٨٧ .

٨ . **الأمثال القرآنية**، عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق، ط ١ ، ١٩٨٠ .

٩ . **أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير**، جابر بن موسى أبو بكر الجزائري، مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، ط ٥ ، ٢٠٠٣ .

١٠ . **البداية والنهاية**، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط ١ ، ١٩٩٧ .

١١ . **التبيان في أقسام القرآن**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق محمد الفقي، دار المعرفة، بيروت.

١٢ . **التحرير والتنوير**، محمد الطاهر ابن عاشور، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٨٤.

١٣ . **التفسير العلمي المعاصر**، سليمان بن صالح القرعاوي، دار الحضارة للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ١٤٢٥.

١٤ . **تفسير القرآن العظيم**، إسماعيل بن عمر ابن كثير، تحقيق سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط ٢، ١٩٩٩.

١٥ . **التفسير المنير**، وهبة بن مصطفى الزحيلي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط ٢، ١٤١٨.

١٦ . **تقريب التهذيب**، أحمد بن علي ابن حجر العسقلاني، تحقيق محمد عوامة، دار الرشيد، سوريا، ط ١، ١٩٨٦.

١٧ . **تهذيب سيرة ابن هشام**، عبد السلام هارون، مؤسسة الرسالة، ط ١٤، ١٩٥٨.

١٨ . **جامع البيان في تأويل القرآن**، محمد بن جرير الطبري، تحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط ١.

١٩ . **جامع الرسائل**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق محمد رشاد سالم، دار العطاء، الرياض، ط ١، ٢٠٠١.

٢٠ . **الجامع لأحكام القرآن**، أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية، القاهرة، ط ٢، ١٩٦٤، ٢٠/ ١٤٤.

٢١. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، المغرب، ط١، ١٩٩٧.

٢٢. **دراسات في الثقافة الإسلامية (المصادر - الأسس - الخصائص - التحديات)**، أحمد محمد بن جلي، ٢٠١٦.

٢٣. **الدلالة العقلية في القرآن ومكانتها في تقرير مسائل العقيدة الإسلامية**، عبد الكريم عبيدات، دار النفائس للنشر والتوزيع، الأردن، ط ١، ٢٠٠٠.

٢٤. **دلائل الإعجاز العلمي**، سيف الدين الكاتب، دار الشرق العربي، لبنان، ٢٠٠٦.

٢٥. **الرد على الجهمية والزنادقة**، أحمد بن محمد بن حنبل، تحقيق صبري بن سلامة شاهين، دار الثبات للنشر والتوزيع، ط١.

٢٦. **الرسالة**، محمد بن إدريس الشافعي، المحقق: أحمد شاكر، ١٩٤٠، مكتبة الحلبي، القاهرة.

٢٧. **زهرة التفاسير**، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي.

٢٨. **السر القدسي في فضائل ومعاني آية الكرسي**، صالح علي العود، دار ابن حزم، ط ١، ٢٠٠٩.

٢٩. **شرح أسماء الله الحسنى**، عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق عبيد بن علي العبيد، الجامعة الإسلامية، المدينة النورة، العدد ١١٢، السنة ٣٣، ١٤٢١هـ.

٣٠. **شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٨.

٣١. **صحيح البخاري**، محمد إسماعيل البخاري، دار الفكر، ط١، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٣٢. **صحيح تفسير القرآن العظيم**، مصطفى العدوي، دار ابن رجب، ط ١، ٢٠١٠.

٣٣. **صحيح مسلم**، مسلم بن الحجاج، شرح النووي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

٣٤. **الصلاة وحكم تاركها**، أبو عبد الله محمد ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الله المنشاوي، مكتبة الإيمان، القاهرة، ٢٠٠٤م.

٣٥. **الصواعق المرسلة في الرد على الجهمية والمعطلة**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، تحقيق علي بن محمد الدخيل الله، دار العاصمة، الرياض، ط ١.

٣٦. **طريق الهجرتين وباب السعادتين**، محمد بن أبي بكر ابن القيم، دار السلفية، القاهرة، ط ٢، ١٣٩٤.

٣٧. **الفيزياء ووجود الخالق مناقشة عقلانية إسلامية لبعض الفيزيائيين والفلاسفة الغربيين**، جعفر شيخ إدريس، الناشر مجلة البيان، ط ١، ٢٠٠١.

٣٨. **القاموس المحيط**، أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، تحقيق مكتب تحقيق التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان.

٣٩. **قصة الخلق**، محمد بن عبد الله الخرعان، دار كنوز إشبيليا للنشر والتوزيع، الرياض، ط ١، ٢٠٠٨.

٤٠. **قصص الأنبياء في رحاب الكون مع الأنبياء والرسل**، عبد الحليم محمود، دار الرشاد للنشر والتوزيع، ط ١، ٢٠١٠.

٤١ . **القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه**، عبد الرحمن بن صالح المحمود، دار الوطن، ط ٢، ١٩٩٧ .

٤٢ . **لا يأتون بمثله**، محمد قطب، دار الشروق، ط ١ ، ٢٠٠٢ .

٤٣ . **المباحث العقدية المتعلقة بالأذكار**، علي بن عبد الحفيظ الكيلاني، عمادة البحث العلمي في الجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، ط ١ ، ١٤٢٨هـ.

٤٤ . **مباحث في إعجاز القرآن**، مصطفى مسلم، دار المسلم، الرياض، ط ٢، ١٤١٦ .

٤٥ . **مجموع الفتاوى**، أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة المنورة، ١٩٩٥ .

٤٦ . **المحكم في العقيدة**، محمد عياش الكبيسي، المكتب المصري الحديث، ط١ .

٤٧ . **مختصر شرح العقيدة الطحاوية**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠١ .

٤٨ . **مختصر شرح العقيدة الطحاوية**، محمد ناصر الدين الألباني، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠٠١ .

٤٩ . **المسيح عيسى بن مريم الحقيقة الكاملة**، محمد علي الصلابي، ط ١، ٢٠١٩ .

٥٠ . **المصباح المنير في غريب الشرح الكبير**، أحمد بن محمد الفيومي، المكتبة العلمية، بيروت، ٢/ ٢٠٥ .

٥١. **مع الله**، سلمان بن فهد العودة، دار الإسلام اليوم، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٥٢. **معارج القبول بشرح سلم الوصول إلى علم الأصول**، حافظ بن أحمد الحكمي، تحقيق عمر بن محمود، دار ابن القيم، الدمام، ط ١، ١٩٩٠.

٥٣. **معجزة القرآن**، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٧٨.

٥٤. **معجزة القرآن**، محمد متولي الشعراوي، المختار الإسلامي للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١، ١٩٧٨.

٥٥. **المعجزة القرآنية الإعجاز العلمي والغيبي**، محمد حسن هيتو، مؤسسة الرسالة، ١٩٨٩.

٥٦. **المعجم الكبير**، سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي بن عبد المجيد، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط ٢، ١٩/ ٤٧٠.

٥٧. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة**، دار الكتب العلمية، محمد بن أبي بكر ابن القيم، بيروت.

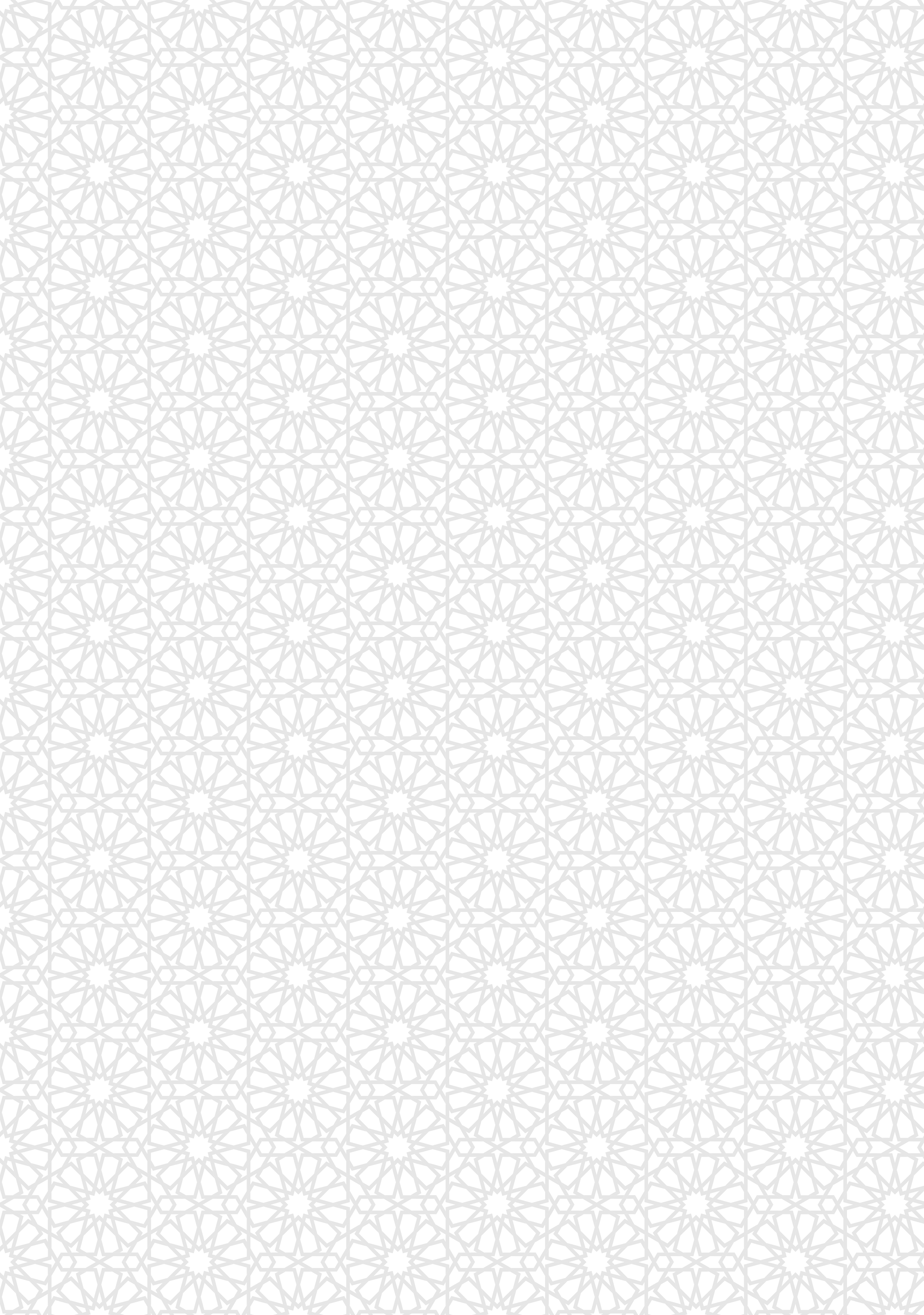
٥٨. **مفردات ألفاظ القرآن**، الحسين بن محمد الراغب الأصفهاني، تحقيق صفوان عدنان الداودي، دار القلم، دمشق، ط ١، ١٤١٢هـ.

٥٩. **من آيات الإعجاز العلمي الأرض في القرآن الكريم**، زغلول محمد النجار، دار المعرفة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٥.

٦٠. **من آيات الإعجاز العلمي في القرآن الكريم**، زغلول راغب محمد النجار، دار المعرفة، ط ٤، ٢٠٠٧.

٦١ . **الولاء والبراء في الإسلام**، محمد بن سعيد القحطاني، دار طيبة، الرياض، ط ١ .

٦٢ . **ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**، عبد العزيز الجليل، دار طيبة، الرياض، ط٣، ١٤٣٠هـ-٢٠٠٩م.



كتب صدرت للمؤلف

١. السيرة النبوية: عرض وقائع وتحليل أحداث.

٢. سيرة الخليفة الأول أبو بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٣. سيرة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٤. سيرة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٥. سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: شخصيته وعصره.

٦. سيرة أمير المؤمنين الحسن بن علي بن أبي طالب: شخصيته وعصره.

٧. الدولة العثمانية: عوامل النهوض والسقوط.

٨. فقه النصر والتمكين في القران الكريم.

٩. تاريخ الحركة السنوسية في إفريقيا.

١٠. تاريخ دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي.

١١. عقيدة المسلمين في صفات رب العالمين.

١٢. الوسطية في القران الكريم.

١٣. الدولة الأموية، عوامل الازدهار وتداعيات الانهيار.

١٤. معاوية بن أبي سفيان، شخصيته وعصره.

١٥. عمر بن عبد العزيز، شخصيته وعصره.

١٦. خلافة عبد الله بن الزبير.

١٧. عصر الدولة الزنكية.

١٨. عماد الدين زنكي.

١٩. نور الدين زنكي.

٢٠. دولة السلاجقة.

٢١. الإمام الغزالي وجهوده في الإصلاح والتجديد.

٢٢. الشيخ عبد القادر الجيلاني.

٢٣. الشيخ عمر المختار.

٢٤. عبد الملك بن مروان وبنوه.

٢٥. فكر الخوارج والشيعة في ميزان أهل السنة والجماعة.

٢٦. حقيقة الخلاف بين الصحابة.

٢٧. وسطية القران في العقائد.

٢٨. فتنة مقتل عثمان.

٢٩. السلطان عبد الحميد الثاني.

٣٠. دولة المرابطين.

٣١. دولة الموحدين.

٣٢. عصر الدولتين الأموية والعباسية وظهور فكر الخوارج.

٣٣. الدولة الفاطمية.

٣٤. حركة الفتح الإسلامي في الشمال الأفريقي.

٣٥. صلاح الدين الأيوبي وجهوده في القضاء على الدولة الفاطمية وتحرير البيت المقدس.

٣٦. استراتيجية شاملة لمناصرة الرسول (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)، دروس مستفادة من الحروب الصليبية.

٣٧. الشيخ عز الدين بن عبد السلام سلطان العلماء.

٣٨. الحملات الصليبية (الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة) والأيوبيون بعد صلاح الدين.

٣٩. المشروع المغولي عوامل الانتشار وتداعيات الانكسار.

٤٠. سيف الدين قطز ومعركة عين جالوت في عهد المماليك.

٤١. الشورى في الإسلام.

٤٢. الإيمان بالله جل جلاله.

٤٣. الإيمان باليوم الآخر.

٤٤. الإيمان بالقدر.

٤٥. الإيمان بالرسل والرسالات.

٤٦. الإيمان بالملائكة.

٤٧. الإيمان بالقران والكتب السماوية.

٤٨. السلطان محمد الفاتح.

٤٩. المعجزة الخالدة.

٥٠. الدولة الحديثة المسلمة، دعائمها ووظائفها.

٥١. البرلمان في الدولة الحديثة المسلمة.

٥٢. التداول على السلطة التنفيذية.

٥٣. الشورى فريضة إسلامية.

٥٤. الحريات من القرآن الكريم، حرية التفكير وحرية التعبير، والاعتقاد والحريات الشخصية.

٥٥. العدالة والمصالحة الوطنية ضرورة دينية وإنسانية.

٥٦. المواطنة والوطن في الدولة الحديثة.

٥٧. العدل في التصور الإسلامي.

٥٨. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي.

٥٩. الأمير عبد القادر الجزائري.

٦٠. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، سيرة الزعيم عبد الحميد بن باديس، الجزء الثاني.

٦١. سُنة الله في الأخذ بالأسباب.

٦٢. كفاح الشعب الجزائري ضد الاحتلال الفرنسي، وسيرة الإمام محمد البشير الإبراهيمي.

٦٣. أعلام التصوف السُني «ثمانية أجزاء».

٦٤. المشروع الوطني للسلام والمصالحة

٦٥. الجمهورية الطرابلسية (١٩١٨ – ١٩٢٢) أول جمهورية في تاريخ المسلمين المعاصر

٦٦. الإباضية؛ مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

٦٧. المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ –الحقيقة الكاملة–.

٦٨. قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

٦٩. نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

٧٠. إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ «داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة».

٧١. العالم الكبير وناصر الحديث الإمام محمد بن إدريس الشافعي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

٧٢. مدرسة الأشاعرة وسيرة الإمام أبو الحسن الأشعري

٧٣. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والخضر.

٧٤. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة طه.

٧٥. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة القصص.

٧٦. موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ في سورة الشعراء.

٧٧. مؤمن آل فرعون في سورة غافر.

٧٨. لا إله إلا الله؛ أدلة وجود الله وأول المخلوقات.



د. علي محمد محمد الصلابي

مفكر ومؤرخ وفقيه

- ولد في مدينة بنغازي بليبيا عام ١٣٨٣ هـ/ ١٩٦٣م

- نال درجة الإجازة العالمية (الليسانس) من كلية الدعوة وأصول الدين من جامعة المدينة المنورة عام ١٩٩٣م، وبالترتيب الأول.

- حصل على درجة الماجستير من كلية أصول الدين في جامعة أم درمان الإسلامية عام ١٩٩٦م.

- نال درجة الدكتوراه في الدراسات الإسلامية بأطروحته فقه التمكين في القرآن الكريم من جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان عام ١٩٩٩م.

- اشتهر بمؤلفاته واهتماماته في علوم القرآن الكريم والفقه والتاريخ والفكر الإسلامي.

- زادت مؤلفات الدكتور الصلابي عن ستين مؤلفًا أبرزها:

• السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث.

• سير الخلفاء الراشدين.

• الدولة الحديثة المسلمة.

• الدولة العثمانية عوامل النهوض والسقوط.

• فاتح القسطنطينية السلطان محمد الفاتح.

• وسطية القرآن الكريم في العقائد.

• صفحات مشرقة من التاريخ الإسلامي.

• تاريخ كفاح الشعب الجزائري.

• العدالة والمصالحة الوطنية.

• الإباضية. مدرسة إسلامية بعيدة عن الخوارج.

• المسيح عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ الحقيقة الكاملة.

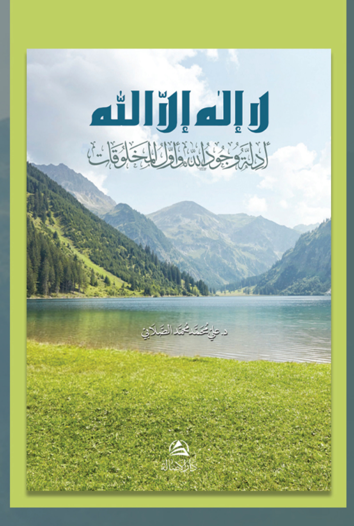
• قصة بدء الخلق وخلق آدم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ

• نوح عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ والطوفان العظيم؛ ميلاد الحضارة الإنسانية الثانية.

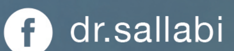
• إبراهيمُ خليل الله عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ "داعية التوحيد ودين الإسلام والأسوة الحسنة".

• موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ.

فهرس الموضوعات



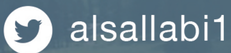




dr.ali_alsallabi



alsallabicom



www.alsallabi.com



